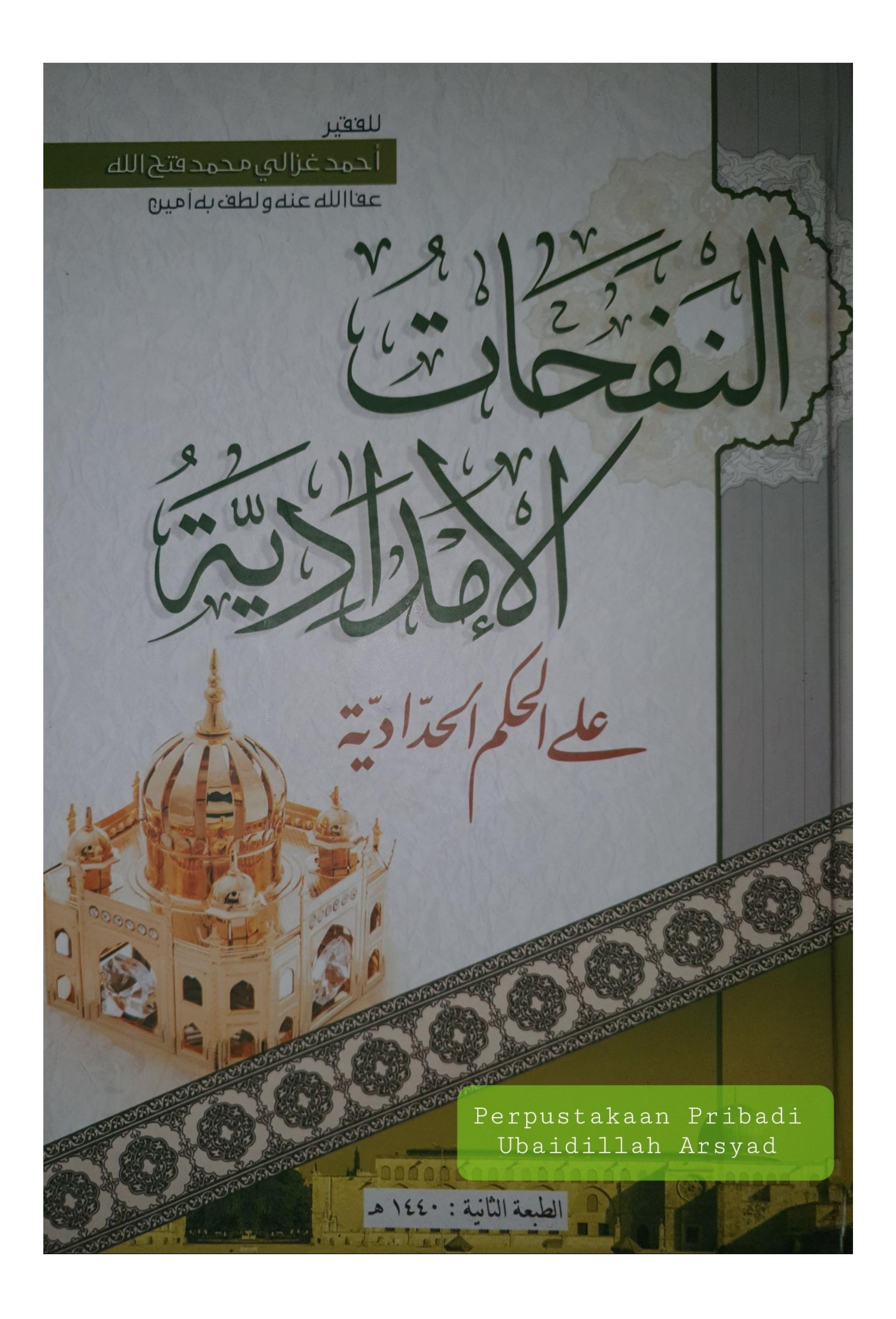
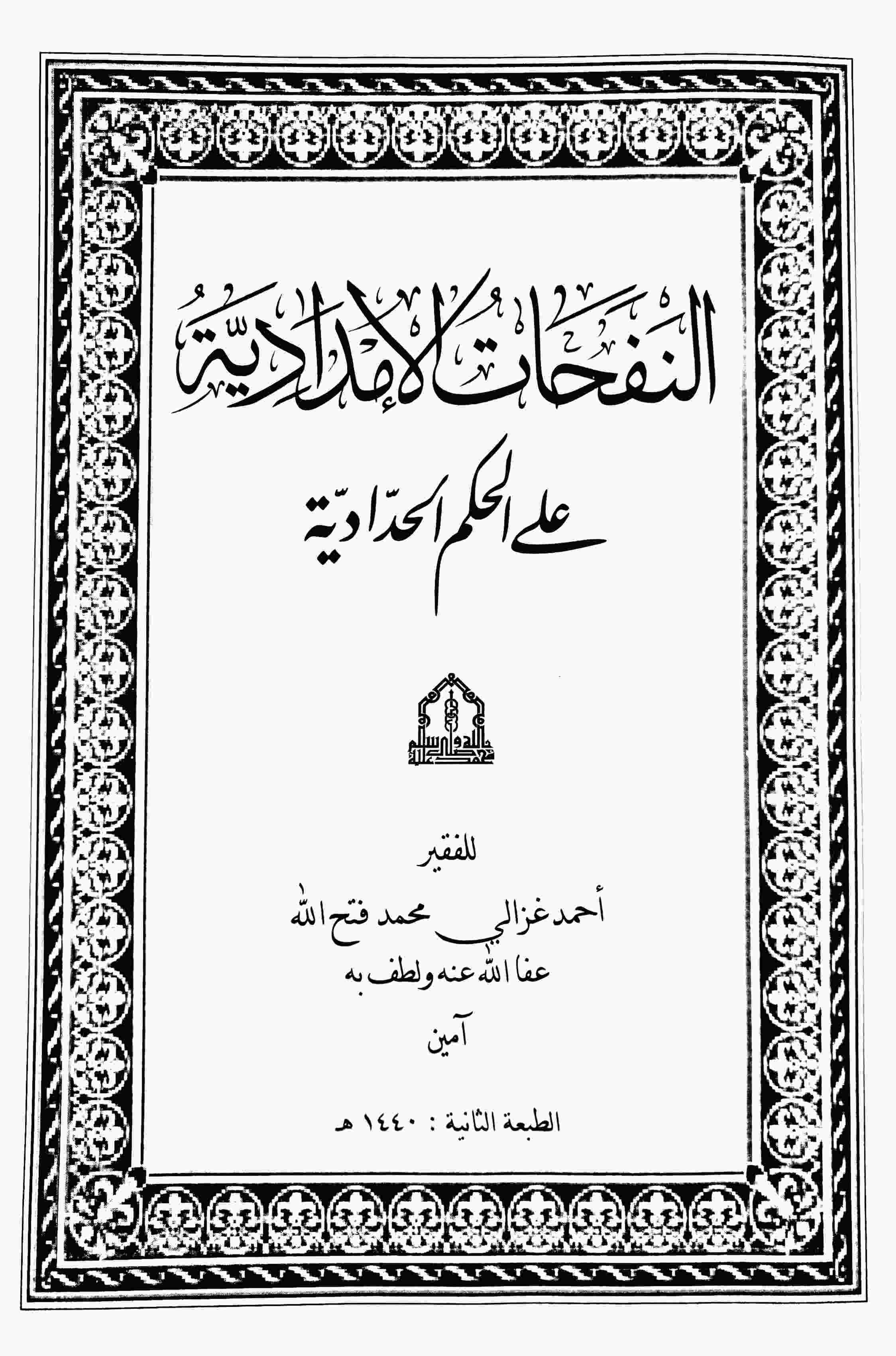


للفقير
أحمد غزالي محمد فتح الله
عفا الله عنه ولطف به آمين
النفحات الإمدادية
على الحكم الحدادية
Perpustakaan Pribadi
Ubaidillah Arsyad
الطبعة الثانية : ١٤٤٠ هـ



النفحات الإمدادية

على الحكم الحدّادية

للفقير

أحمد غزالي محمد فتح الله

عفا الله عنه ولطف به

آمين

الطبعة الثانية : ١٤٤٠ هـ

ترجمة الإمام العلامة الشهير عبد الله بن علوي بن محمد الحداد

هو الإمام العلامة الداعي إلى الله بقوله وفعله ، قطب الإرشاد الحبيب عبد الله بن علوي بن محمد الحداد ، ولد رضي الله عنه بالسبير من ضواحي مدينة تريم بحضرموت ليلة الخميس ٥ صفر سنة ١٠٤٤هـ ، وتربى في تريم ، وقد كف بصره وهو صغير فعوضه الله عنه بنور البصيرة ، وجد واجتهد في طلب العلوم النافعة ، وعكف على علماء عصره ، وفي مقدمة مشايخه سيدنا الحبيب عمر بن عبد الرحمن العطاس ، والحبيب العلامة عقيل بن عبد الرحمن السقاف ، والحبيب العلامة عبد الرحمن بن شيخ عيديد ، والحبيب العلامة سهل بن أحمد باحسن الحديلي باعلوي . ومن مشايخه أيضا الإمام العلامة عالم مكة المكرمة السيد محمد ابن علوي السقاف . ثم نصبه الله للدعوة والإرشاد ، داعيا إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ، فأقبل عليه الناس وانتشر صيته في البلدان ، وانتفع به القاصي والداني ، فنفع الله به الكثير ، وأرشد الجم الغفير ، وانتشرت دعوته في كل مكان ، وانتفع الناس بوعظه وكتبه ، وأخذ عنه الجم الغفير . فمن كبار تلامذته ابنه سيدنا الحبيب حسن بن عبد الله الحداد ، والحبيب أحمد بن زين الحبشي ، والحبيب عبد الرحمن بن عبد الله بلفقيه ، والحبيبان محمد وعمر أبناء زين بن سميط ، والحبيب عمر بن عبد الرحمن البار ، والحبيب علي بن عبد الله بن عبد الرحمن السقاف ، والحبيب محمد بن عمر بن طه الصافي السقاف وغيرهم العدد الكثير . وله مؤلفات كثيرة جمعت النصائح والمواعظ والحكم ، وانتشرت انتشارا كبيرا ، وكتب لها القبول والمحبة ، ونفع الله بها الناس . وقد ترجمت بعض مؤلفاته إلى لغات

أجنبية في العصر الحاضر ، مثل الإنجليزية والفرنسية . ومؤلفاته غنية عن التعريف ، ومشهورة لدى الكبير والصغير ، منها : النصائح الدينية ، والدعوة التامة ، ورسالة المعاونة ، وغيرها من الوصايا والرسائل ، ومجموع كلامه تثبيت الفؤاد ، وديوانه العظيم الدرر المنظوم الجامع للحكم والعلوم ، ووصاياه ومكتباته ، وأكثر مؤلفاته مطبوعة ، وأقبل عليها الناس إقبالا شديدا ، وأعجب بها العلماء والعارفون، وجعلوها بمنزلة الغداء، يقرئون فيها في كثير من الأوقات، وقالوا عنها : إنها جمعت الخلاصة والزبدة من كلام الإمام حجة الإسلام الغزالي ، ولا يستغني عنها كل مسلم ، فهي وجيزة وجامعة ، ونفع الله بها ببركة مؤلفها الإمام الحداد رضي الله عنه . وكان رضي الله عنه قد سافر إلى الحرمين الشريفين ، وأدى النسكين ، وزار جده سيد الكونين ، سيدنا محمدا عليه أفضل الصلاة والسلام ، وذلك في عام ١٠٧٩ هجرية ، واجتمع بعلماء الحرمين الشريفين ، الذين اغتبطوا به ، وعرفوا قدره ، وأثنوا عليه . ولم يظل يدعو الناس إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة حتى وفاته إلى رحمة الله تعالى ، فتوفي ليلة الثلاثاء ٧ ذو القعدة عام ١١٣٢ هجرية ، ودفن بمقبرة زنبل بتريم رحمه الله رحمة واسعة ورضي الله عنه ونفعنا به وبعلومه في الدارين آمين .

ترجمة العلامة الصوفي الشيخ محمد حياة السندي صاحب مواهب الحَكَم شرح الحِكم للحداد .

هو الشيخ العلامة الصوفي محمد حياة السندي أصلا وولادة ، المدني إقامة ووفاة ، الحنفي مذهبا ، ولد بمدينة جاجر من إقليم السند ، ونشأ بها ثم انتقل إلى مدينة تتة قاعدة بلاد السند ، فأكب على طلب العلم ، وأخذ عن علمائها ومشايخها ، وتلمذ على علامة الهند الشيخ ولي الله الدهلوي ، ولازم الشيخ العلامة محمد معين بن محمد أمين التتوي السندي ، ثم هاجر إلى الحرمين الشريفين ، فأدى النسكين ، وتوطن المدينة المنورة وأخذ عن أعلامها ، ولازم الشيخ العلامة المحدث الشيخ أبا الحسن محمد نور الدين بن عبد الهادي السندي المدني صاحب حواشي الكتب الست ، وجلس مجلسه بعد وفاته أربعا وعشرين سنة .

من شيوخه غير المذكورين : الشيخ عبد الله بن سالم البصري ، والشيخ أبوطاهر محمد بن إبراهيم الكردي المدني ، والشيخ أبو الأسرار حسن بن علي العجيمي وغيرهم .

وأما تلاميذه فكثيرون منهم : الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي ، والشيخ العلامة محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني صاحب سبل السلام شرح بلوغ المرام ، والشيخ المحدث الفهامة محمد فاخر الإله آبادي ، والعلامة غلام علي آزاد البلجرامي ، وخلق كثيرون .

كان رحمه الله تعالى من العلماء الربانيين ، وعظماء المحدثين ، ورعا متجردا منعزلا عن الخلق إلا في وقت الدرس ، مثابرا على أداء الجماعات في الصف الأول من المسجد النبوي .

تصانيفه كثيرة منها : شرح الأربعين النووية ، وشرح الترغيب والترهيب للمنذري في مجلدين ، ومختصر الزواجر لابن حجر، وشرح الحكم العطائية ، وشرح الحكم الحدادية ، وغيرها .

وتوفي في المدينة المنورة آخر أربعاء السادس والعشرين من صفر سنة ١١٦٣ هجرية ودفن بالبقيع رحمه الله تعالى ونفعنا بعلومه آمين .

ترجمة العلامة الداعي إلى الله شيخنا السيد الحبيب عمر بن حامد الجيلاني حفظه الله تعالى ونفعنا بعلومه آمين

هو الشيخ العلامة المحدث السيد الحبيب عمر بن حامد بن عبد الهادي بن عبد الله بن عمر بن أحمد الجيلاني الحسني أحد العلماء البارزين في مكة المكرمة ، بقية الشيوخ العارفين المربين ، ولد حفظه الله تعالى بحضرموت باليمن الميمون في وادي دوعن من قرية الخريبة (قرية تهوي إليها قلوب العلماء قبل أجسادهم وكانت مرتعا خصبا للعلم والعلماء) من أبوين صالحين ، فأبوه هو علامة الوادي الإمام الحبيب حامد بن عبد الهادي الجيلاني كان مثالا فريدا في علمه وأخلاقه ، كانت وظيفته تدور بين أمور عبادة وتعليم وإصلاح بين الناس ، وأمه كانت من العابدات الصالحات من أسرة باراس ، وهي أسرة تسلسل فيها العلم منذ قديم الزمان .

نشأ حفظه الله تعالى على حب العلم والشغف به منذ صغره فلازم والده ملازمة الظل لأصله ، وكان والده يرعاه رعاية خاصة لما رأى فيه من النجابة والذكاء ، فقرأ عليه كتبا عديدة في مختلف العلوم والفنون في النحو والفقه والحديث والتفسير وتهذيب النفس وغيرذلك ، وجد واجتهد في الطلب ، وهجر لذيذ المنام ، وكان من ثمار ذلك التحصيل ترشيحه للتدريس في مدرسة الخريبة فدرس فيها وألقى للطالبين ما لذ وطاب ، وأدخل بعض المواد التي لم تكن معروفة في ذلك الوقت ، حتى تطورت المدرسة وزاد فيها عدد الطلاب ، أضعاف ما كانت عليه قبل ذلك ، ولما سافر والده إلى الحج خلفه في الدرس وعمره لم يتجاوز ١٧ سنة .

ثم شاءت الأقدار وسافر السيد الحبيب حفظه الله تعالى من حضرموت إلى مكة المكرمة بسبب ما كان يسود حضرموت من الحكم الإستبدادي الشيوعي، واستقر فيها، وأخذ العلوم عن علمائها الأعلام منهم: الشيخ العلامة حسن مشاط، والعلامة السيد علوي بن عباس المالكي، والشيخ العلامة عبد الله اللحجي وغيرهم من علماء الحرمين الشريفين والعالم الإسلامي، وكان السيد الحبيب حفظه الله تعالى خير خلف لخير سلف، فقد أقام الدروس في مكة المكرمة، وكانت بدايته في الدروس بحضور عدد قليل جدا لا يتجاوز الخمسة بل أقل، ثم كتب الله له القبول بعلمه وبأخلاقه العالية مع الصغير قبل الكبير، فحواهم واهتم بهم فانهال الناس على دروسه في الفقه والحديث وتهذيب النفوس، واحتفوا حوله مغترفين غرفة من بحار علومه الواسعة، وقد كان قائما بدرس العلوم الشرعية في مكة المكرمة أكثر من ٢٠ سنة، ولا يزال حفظه الله تعالى يدرس العلوم ويفيد الطلاب حتى الآن أمده الله في عمره وبارك فيه، وكان درسه بمكة المكرمة بعد صلاة العشاء في كل ليلة في غير شهر رمضان، أما في رمضان فكان يعقد درسا بعد صلاة العصر وذلك في كل عام إما في السيرة النبوية أو في الحكم والتصوف أو غير ذلك، حضر درسه عدد كبير من العلماء والسادة والطلاب والتفوا حوله وسمعوا قوله الممتع المربي، وعند ما حدَّث لا يحب أحد أن يقوم من مجلسه ولا يحس بالتعب عند سماع حديثه، وكل يريد أن يتكلم السيد ولا يسكت عن كلامه، لما فيه من الحكم والفوائد الشوارد، والنوادر والعوائد، فأقواله درر منضودة، ولآلي مكنونة، وجواهر في قلائدها وعقودها، ولاغرو فإن سر الآباء والأجداد يسري في الأبناء والأولاد، والله لا ينزع السر من أهله.

وكان من عادته أنه ابتدأ الدرس من أول رمضان، وختمه في ليلة الخامس

والعشرين منه ، وقد حضر درسه عند الختم جمع كبير وعدد وفير من العلماء والسادة النبلاء ، و الطلاب النجباء من أنحاء المملكة ومن خارجها ، وعقد عند ختمه حفل من بعد صلاة العصر إلى وقت الإفطار ، ثم بعد صلاة المغرب أنشدت الأناشيد والقصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ممن حضر من المنشدين ، ثم أجاز السيد جميع الحاضرين بالكتاب المقروء الذي آن ختمه ، ثم ألقى المحاضرة العلمية كبار الحاضرين من العلماء والسادة الغرر من المملكة أو خارجها ، ثم أقيمت صلاة العشاء مع التراويح بعدها ، ثم أحضر العشاء بفتح العين ، وبالجملة فمجلس الختم مجلس نور وذكر وعلم وبركة تعطرت المجالس بالعطور والبخور والمدح النبوي ، وتنورت ببدور البضعة الطاهرة ، وكواكب الأنفس الزكية النيرة ، وأنوار العلماء الزاهرة ، وقد زرته وحضرت دروسه عدة مرات أكثرها في رمضان ، وسمعت بعض دروسه في هذه الحكم الحدادية ، وحصلت الإجازة منه مع الحاضرين خاصة في هذه الحكم عند ختمها في ليلة الخامس والعشرين من رمضان عام ١٤٣٦هـ . كما كانت عادته ختم درس رمضان في ذلك التاريخ . وإجازة عامة في غيرها ، ولله الحمد . وللسيد الحبيب حفظه الله تعالى كثير من المؤلفات : منها الوجيز في الإجابة عن أسئلة جامعة الملك عبد العزيز ، والتزكية وحاجة الأمة إليها ، والغزو البرتغالي للسواحل اليمنية ، والفتوى وخطورتها وشروط من يتولاها ، وأداب طلاب العلم في تحصيله ، وغيرها ، وله دروس علمية في أنواع الفنون خصوصا في علوم السنة ، والسيرة النبوية ، والفقه الشافعي .

النفحات الإمدادية

على الحكم الحدادية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي اختار أوليائه العارفين لحضرته ، واختصهم بقربه ومحبته ، وأنطقهم بالحكم السواطع ، وأجرى على ألسنتهم الكلم الجوامع ، والصلاة والسلام على منبع الحكمة والرسالة ، وهادي الأمة من الضلالة ، سيدنا محمد المحفوف بالكمال ، وعلى آله وأصحابه خير صحب وآل .

(أما بعد) فهذه تقييدات لطيفة على حِكَم الإمام العارف بالله قطب الإرشاد ، العلامة السيد عبد الله بن علوي الحداد ، رضي الله عنه ونفعنا بعلومه وأمدنا وأحبابنا مما رزقه من الفيوضات والأمداد ، جمعتها متطفلا أثناء تدريسي لهذا الكتاب على طلاب العلم في معهدنا المبارك ، وليس لي في هذه التقييدات إلا النقل من تقريرات مفيدة ممتعة لشيخنا العلامة الداعي إلى الله تعالى السيد عمر بن حامد الجيلاني المكي حفظه الله تعالى ونفعنا بعلومه خلال تدريسه لهذه الحكم الحدادية بمكة المكرمة في رمضان المعظم عام ١٤٣٦ هـ ، سجلها بعض الإخوان المجتهدين بالآلة المعروفة وجزاه الله خيرا كثيرا ، ويكون النقل إما لفظا وإما معنى وهذا هو الكثير . بالإضافة إلى ما نقلته من شرح العلامة الشيخ محمد حياة السندي رحمه الله تعالى على هذه الحكم ، ومن الكتب المعتبرة التي بأيدينا ، وليس قصدي في كتابتها وإن لم أكن لحل كلامه أهلا ، إلا التبرك بخدمة كلام هذا القطب الداعي إلى الله قولا وفعلا ، وأرجو من الله أن أكون بذلك من خدامه ومحبيه المخلصين ، فلعلي بحبه أحشر غدا في الجنة معه في زمرة الأولياء العارفين ، وقد سماها شيخنا المذكور العلامة السيد عمر بن حامد الجيلاني حفظه الله تعالى

ونفعنا بعلومه بعد عرضها له : "النفحات الإمدادية على الحكم الحدادية" . والله أسال أن يمن علي فيها بالنفع والقبول ، وهو المأمول في حصول كل سول . آمين .

* روايتي لهذه الحكم الحدادية : أني أرويها عن شيخنا العلامة الفقيه المحدث الشيخ إسماعيل عثمان زين اليمني المكي ، و شيخنا العلامة الورع الزاهد الشيخ عبد الله اللحجي، وهما يرويان عن العلامة المسند الشيخ ياسين بن عيسى الفاداني المكي رحمهم الله تعالى .

* ح ، وأرويها بالإجازة العامة بدون واسطة عن شيخنا العلامة المسند الشيخ ياسين بن عيسى الفاداني المكي ، عن السيد علي بن عبد الرحمن الحبشي الجاكرتاوي ، عن العارف بالله السيد عبد الله بن علي بن الحسن الحداد ، عن أبيه السيد علي بن الحسن بن أحمد الحداد ، عن السيد علوي بن علوي ابن أحمد بن الحسن الحداد ، عن أبيه السيد علوي بن أحمد الحداد ، عن أبيه السيد أحمد بن حسن الحداد ، عن أبيه السيد حسن بن عبد الله الحداد ، عن أبيه المؤلف القطب الحبيب عبد الله بن علوي الحداد ، رحمهم الله تعالى ونفعنا بعلومهم .

* وأرويها أيضا عن شيخنا العلامة الفقيه الحبيب عمر بن حامد الجيلاني المكي حفظه الله تعالى وهو يروي عن والده وشيخه الحبيب حامد بن عبد الهادي الجيلاني وعن شيخه الحبيب محمد بن أحمد الشاطري وهما يرويانها عن شيخهما الحبيب علوي بن طاهر الحداد وهو يرويها عن المسند الحبيب عيدروس بن عمر الحبشي وهو يرويها عن الشيخ عبد الله بن أحمد باسودان وهو يرويها عن الحبيب أحمد بن حسن بن عبد الله بن علوي الحداد وهو يرويها عن جده المؤلف الحبيب عبد الله بن علوي الحداد بها وبسائر مؤلفاته.

قال المؤلف الإمام العلامة قطب الإرشاد الحبيب عبد الله بن علوي الحداد رحمه الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

(قَالُوْا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيْمُ الْحَكِيْمُ) الحَمْدُ للهِ الْحَنَّانِ الْمَنَّانِ ، دَائِمِ الإِحْسَانِ وَالْإِمْتِنَانِ ، الَّذِيْ تَقَدَّسَتْ مَوَاهِبُهُ عَنِ التَّخْصِيْصِ بِمَكَانٍ أَوْ زَمَانٍ ، وَعَنِ الْحَصْرِ فِيْ فُلَانٍ دُوْنَ فُلَانٍ ، جَلَّ عَنِ التَّقْيِيْدِ ذَاتًا وَصِفَاتٍ وَأَفْعَالًا فَسُبْحَانَهُ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِيْ شَأْنٍ .

أَحْمَدُهُ حَمْدَ مَنْ غَرِقَ فِيْ بِرِّهِ ، فَاعْتَرَفَ بِالْعَجْزِ عَنِ الْقِيَامِ بِشُكْرِهِ ، وَعَنْ أَنْ يَقْدُرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ بَعْدَ الْإِتْيَانِ بِحَسَبِ الطَّاقَةِ وَالْإِمْكَانِ ، وَصَلَاتُهُ وَسَلَامُهُ عَلَى خِيْرَتِهِ مِنْ خَلْقِهِ وَالْمَبْعُوْثِ بِخَيْرِ الْأَدْيَانِ ، سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ فِيْ كُلِّ حِيْنٍ وَأَوَانٍ .

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنِّيْ بِعَوْنِ اللهِ قَدْ عَزَمْتُ بَعْدَ أَنِ اسْتَخَرْتُ رَبِّيْ عَلَى تَقْيِيْدِ كَلِمَاتٍ وَأَمْثَالٍ وَأَبْيَاتٍ ، تَرِدُ عَلَيَّ عِنْدَ التَّذَكُّرِ وَالْمُذَاكَرَةِ ، أَرْجُو الْإِنْتِفَاعَ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَقَدْ جَرَّدْتُ الْعَزْمَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ مِرَارًا ، فَلَمْ تَتِمَّ الْعَزْمَةُ ، وَلَمْ تَنْفُذِ الْهِمَّةُ ، وَالسَّبَبُ فِيْ ذَلِكَ بَعْدَ سَابِقِ الْقَدَرِ احْتِقَارُ النَّفْسِ ، وَالْإِتِّكَالُ عَلَى الْحِفْظِ وَالدَّرْسِ ، ثُمَّ إِنِّيْ لَمَّا رَأَيْتُ أَنِّيْ نَسِيْتُ مِنْ ذَلِكَ الشَّيْءَ الْكَثِيْرَ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا الْقَلِيْلُ الْيَسِيْرُ ، وَرَأَيْتُ الْحَاجَةَ فِيْ بَعْضِ

الْأَحْيَانِ تَدْعُوْنِي إِلَى مَا دَخَلَ تَحْتَ دَائِرَةِ النِّسْيَانِ ، وَوَقَفْتُ عَلَى كَلَامٍ لِلشَّيْخِ ابْنِ عَرَبِيٍّ حَاصِلُهُ : أَنَّ الْإِنْسَانَ تَرِدُ عَلَيْهِ الْأَشْيَاءُ فِيْ نِهَايَةِ الطَّلَبِ ، يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْتَنِيَ بِحِفْظِهَا ، لِأَنَّهُ سَوْفَ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا فِيمَا بَعْدُ ، وَمَا وَرَدَتْ إِلَّا لِذَلِكَ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ صَمَّمْتُ عَلَى تَقْيِيْدِ مَا يَخْطُرُ فِي الْبَالِ ، وَإِلَيْهِ أُضِيْفُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى مَا يَكُوْنُ فِي الْإِسْتِقْبَالِ مُسْتَثْنِيًا بِمَشِيْئَةِ اللهِ تَعَالَى النَّافِذَةِ ، وَمُفَوِّضًا إِلَيْهِ ، وَمُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ ، وَرَاغِبًا فِيمَا لَدَيْهِ ، وَمُعْتَصِمًا بِهِ : (وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ) ثُمَّ إِنِّي أُعْلِمُ أَخًا وَقَفَ عَلَى مَا هُنَا فَرَأَى فِيْهِ مُقَارَبَةً لِكَلَامِ أَحَدٍ لَفْظًا أَوْ مَعْنًى أَنَّ ذَلِكَ وَقَعَ بِطَرِيْقِ الْمُوَافَقَةِ ، إِذْ لَيْسَ بِخَافٍ أَنَّ مَنْ أَثْبَتَ كَلَامَ أَحَدٍ ، وَلَمْ يَعْزُهُ إِلَيْهِ ، أَنَّهُ سَارِقٌ أَوْ غَاصِبٌ ، وَكِلَاهُمَا قَبِيْحٌ ، وَهَذَا أَوَانُ الْإِبْتِدَاءِ ، أَصْلَحَ اللهُ النِّيَّةَ ، وَصَفَّى الطَّوِيَّةَ .

(بسم الله الرحمن) بالإنقاذ من النيران (الرحيم) بإدخال الجنان (قالوا) أي الملائكة (سُبْحَانَكَ) تنزيها لك عن الإعتراض عليك (لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) إياه (إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيْمُ الْحَكِيْمُ) الذي لا يخرج شيء عن علمه وحكمته . {البقرة : الآية ٣٢} .

(الحمد) كائن (لله الحنان) بتشديد النون للمبالغة أي الرحيم بعباده (المنان) بتشديد النون أيضا أي كثير العطية . وعن علي كرم الله وجهه : الحنان من يقبل على من أعرض عنه ، والمنان من يبدأ بالنوال قبل السؤال (دائم الإحسان) أي

الإفضال (والإمتنان) أي دائم المنة على عباده بالنعمة (الذي تقدست) أي تنزهت (مواهبه) الكثيرة جمع موهبة بكسر الهاء وفتحها أي هباته وعطاياه (عن التخصيص بمكان أو زمان ، وعن الحصر في فلان دون فلان) بل تعم كل من يشاء (جل) أي تنزه سبحانه وتعالى (عن التقييد ذاتا وصفاتٍ وأفعالا فسبحانه) تنزيها له تعالى عما لا يليق به (كل يوم هو في شأن) وهذا مقتبس من قوله تعالى (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِيْ شَأْنٍ) {الرحمن : الآية ٢٩} . أي كل وقت هو في شأن يبديه وفق تقديره له يرفع أقوامًا ويضع آخرين ، لا شأن يبتديه ، فإن القلم جف بماهو كائن إلى يوم القيامة .

(أحمده) سبحانه وتعالى (حمْدَ من غرِق في بره) بكسر الموحدة أي إحسانه وصِلته (فاعترفَ) أي أقر (بالعجز) أي عدم القدرة (عن القيام بشكره) تعالى (و) العجز (عن أن يَقْدُره) أي يعظمه (حق قدره) أي حق تعظيمه (بعد الإتيان) بشكره وتعظيمه بالطاعات والعبادات (بحسب الطاقة) أي القوة (والإمكان) إذ لا يستطيع ولا يقدر أحد على شكر نعمه وتعظيمه حق الشكر والتعظيم (وصلاته) أي رحمة الله تعالى (وسلامه) أي تحيته (على خِيْرَته) أي مختاره ومصطفاه (من خلقه) إنسا وجنا وملكا (والمبعوث) إلى جميع الخلق (بخير الأديان) جميعا وهو دين الإسلام الحنيف (سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه في كل حين وأوان) أي وقت .

(أما بعد) أي بعد البسملة والحمدلة والصلاة والسلام على من ذكر (فإني بعون الله) وتوفيقه (قد عزمت) أي قصدت (بعد أن استخرت ربي على تقييد كلمات وأمثال وأبيات) من الشعر (ترد) أي تأتي (علي عند التذكر) بنفسي (والمذاكرة)

مع الإخوان (أرجو الإنتفاع بها في الدنيا والآخرة) وقد حقق الله رجاء العلامة المؤلف بإخلاصه وصدقه ، حيث انتفع بهذا الكتاب كثير من طلاب العلم وانتشر في الأفاق (وقد جرَّدتُ) أي فرَّغت (العزم على هذا الأمر) وهو تقييد الكلمات والأمثال والأبيات (مرارا) جمع مرة (فلم تتم العزمة) أي القصد (ولم تنفذ الهمة) أي النية القوية (والسبب في ذلك) أي عدم تمام العزمة والهمة (بعد سابق القدر) الذي قدر الله به المقادير قبل أن يخلق الخلق لاراد لأمره ولا معقب لحكمه (احتقار النفس) واستصغارها عن تقييد ما ذكر من الكلمات والأمثال والأبيات (والإتكال) أي الإكتفاء (على الحفظ) عن ظهر قلب (والدرس) والقراءة (ثم إني لما رأيت أني نسيت من ذلك) أي من تلك الكلمات والأمثال والأبيات (الشيء الكثير) والإنسان محل الخطأ والنسيان (ولم يبق منه إلا القليل اليسير) مما رسخ في ذهني (ورأيت الحاجة في بعض الأحيان) للاستشهاد خصوصا عند وقوع الحوادث (تدعوني إلى) استحضار (ما دخل تحت دائرة النسيان) فلم أستطع أن أستحضره لغيوبه وخفائه عن قلبي ، ولم أقدر أن أطالعه وأعاوده لعدم تقييده بالكتابة (ووقفت على كلام للشيخ) محيي الدين محمد بن علي بن محمد (ابن عربي) الصوفي المولود في الأندلس سنة ٥٦٠ والمتوفى سنة ٦٣٨هـ . (حاصله : أن الإنسان ترد) أي تأتي (عليه الأشياء في نهاية الطلب) وغاية التحصيل (ينبغي له أن يعتني بحفظها) إما عن ظهر قلب ، وإما بتقييدها في كتاب (لأنه سوف يحتاج إليها فيما بعد) في وقت من الأوقات (وما وردت) تلك الأشياء (إلا لذلك) أي لحفظها وعدم إضاعتها (فعند ذلك صمَّمْتُ) أي قويت العزم (على تقييد ما يَخْطُرُ) أي يمر ويستقر (في البال) أي في الذهن (وإليه) أي إلى ما يخطر في البال

وقت كتابة هذه الخطبة (أُضيفُ) أي أزيد (إن شاء الله تعالى ما يكون في الإستقبال) بعد كتابة الخطبة (مستثنيا بمشيئة الله تعالى النافذة) أي بقولي إن شاء الله ، كما يطلب ذلك شرعا ممن يريد أن يفعل شيئا في المستقبل ، ليخرج بذلك من عهدة عدم تفويض الأمور إلى الله وتعليقها بمشيئته ، وربما يكون هناك عائق يعترض دون مرامه . ولعل الحكم التي أضافها المؤلف بعد كتابة الخطبة من الحادية بعد المائة وهي قوله "من سلك ملك" إلى آخر الكتاب بدليل قوله أو قول بعض تلامذته : "ولحق بعد من الكلام المنثور هذا المسطور" (ومفوضا) في كل الأمور (إليه) أي إلى إرادته (ومتوكلا عليه) تعالى في تقييد ما يخطر في البال وإضافة ما يكون في الإستقبال (وراغبا فيما لديه) أي في الأجر الذي عنده تعالى (ومعتصما به) أي متمسكا به (وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) {آل عمران : الآية ١٠١} (ثم إني أُعْلِمُ) من الإعلام (أخا وقف على ما هنا) من الكلمات والأمثال والأبيات (فرأى فيه مقارَبةً) أو مشابهة أو مماثلة (لكلام أحد لفظا أو معنى أن ذلك وقع بطريق الموافقة) التي يقال لها : توارد الخواطر ، أو تلاقي الأفكار ، أو وقع حافر في حافر ، لابطريق النقل والأخذ من كلامه (إذ ليس بخافٍ) على كل منصف (أن من أثبت كلام أحد) من العلماء والمؤلفين وغيرهم (ولم يَعْزُه) أي لم ينسبه (إليه) أي إلى صاحب الكلام (أنه) أي المثبت الذي لم ينسب الكلام إلى صاحبه (سارق أو غاصب) لكلام غيره (وكلاهما) أي السارق والغاصب (قبيح) ومذموم شرعا (وهذا أوان الإبتداء) في تقييد الحكم المقصودة (أصلح الله) لنا ولجميع المسلمين (النية ، وصفَّى الطوية) أي خلص الضمير من كدورات الرياء والعجب والتكبر وغيرها آمين يا مجيب السائلين .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحكمة الأولى

قال رضي الله عنه :

اَلْخَلْقُ مَعَ الْحَقِّ لَا يَخْلُوْ أَحَدٌ مِنْهُمْ مِنْ أَنْ يَكُوْنَ فِيْ إِحْدَى الدَّائِرَتَيْنِ دَائِرَةِ الرَّحْمَةِ أَوْ دَائِرَةِ الْحِكْمَةِ فَمَنْ كَانَ الْيَوْمَ فِيْ دَائِرَةِ الرَّحْمَةِ كَانَ غَدًا فِيْ دَائِرَةِ الْفَضْلِ ، وَمَنْ كَانَ الْيَوْمَ فِيْ دَائِرَةِ الْحِكْمَةِ كَانَ غَدًا فِيْ دَائِرَةِ الْعَدْلِ .

(الخلق) الذين خلقهم الله تعالى من إنس وجن (مع الحق) سبحانه وتعالى (لا يخلو أحد منهم من أن يكون في إحدى الدائرتين) إما أن يكون في (دائرة الرحمة) الإلهية (أو) يكون في (دائرة الحكمة) التي أودعها الله فيه (فمن كان اليوم) أي عند ظهوره في هذا الوجود (في دائرة الرحمة) بأن يوفقه إلى تحصيل ما يرضيه واجتناب ما يسخطه (كان غدا) أي في يوم القيامة الذي هو يوم الجزاء (في دائرة الفضل) فكل ما فاز به من جزاء عمله الصالح من الرحمة والمغفرة ونعيم القبر وجنات النعيم وغير ذلك لا يكون مستحقا له بعمله ، وإنما هو بمجرد فضله وجوده تعالى . كما جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ قَالُوْا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُوْلَ اللهِ ؟ قَالَ : لَا ، وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ فَسَدِّدُوْا وَقَارِبُوْا" أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه . فسددوا : أي الزموا الصواب . وقاربوا : أي لا تبلغوا النهاية بل قاربوا منها . ولا ينافيه قوله تعالى (ادْخُلُوْا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ) {النحل : الآية ٣٢} .

لأن المنفي في الحديث الإستحقاق ، والنظر في الآية إلى الظاهر فإن العمل سبب لدخول الجنة ظاهرا (ومن كان اليوم في دائرة الحكمة) بأن يقدره الله لتحصيل ما لا يرضيه لحكمة لا يعلمها إلا هو (كان غدا في دائرة العدل) والعدل هو وضع الشيء في محله بلا اعتراض ، بخلاف الظلم فإنه وضع الشيء في غير محله مع اعتراض ، فكل ما ناله من ضر وبلايا وعذاب فبعدله تعالى ، وليس ذلك بظلم . قال تعالى : (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيْدِ) {فصلت : الآية ٤٦} . وكل أفعال الله تعالى جارية على الحكمة ، فلا يسأل عن فعله وتدبيره . قال تعالى : (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُوْنَ) {الأنبياء : الآية ٢٣} . قال اللقاني في الجوهرة :

فَـإِنْ يُثِبْنَا فَبِمَحْضِ الْفَضْلِ * وَإِنْ يُعَذِّبْ فَبِمَحْضِ الْعَدْلِ

فالله تعالى لا يضع رحمته إلا في موضعها ، ولا يضع حكمته إلا في محلها ، فمن وفقه الله تعالى للخير فلا يحمدن إلا إياه ، ومن ابتلي بالشر فلا يلومن إلا نفسه . وعن علي رضي الله عنه قال : "كُنَّا فِيْ جَنَازَةٍ فِيْ بَقِيْعِ الْغَرْقَدِ فَأَتَانَا رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقعَدَ ، وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ ، وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ فنكَّس ، ثُمَّ جعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ ، ثُمَّ قَالَ : مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوْسَةٍ إِلَّا وَقَدْ كَتَبَ اللهُ مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَإِلَّا وَقَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيْدَةً . قال : فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُوْلَ اللهِ ، أَفَلَا نَمْكُثُ عَلَى كِتَابِنَا ، وَنَدَعُ الْعَمَلَ ؟ فَقَالَ : مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيْرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَصِيْرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ ، فَقَالَ : اعْمَلُوْا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُوْنَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُوْنَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ ، ثُمَّ قَرَأَ : (فَأَمَّا مَنْ

أَعْطَى وَاتَّقَى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)" {الليل : الآية ٥-١٠} أخرجه مسلم . مخصرة : أي عصا . فنكس : أي قلب المخصرة . ينكت : أي يضرب الأرض . بالحسنى : أي بلا إله إلا الله . لليسرى : أي للجنة . للعسرى : أي للنار .

✦✦✦✦✦✦✦

الحكمة الثانية

قال رضي الله عنه :

مَا تَرَكَ مِنَ الْكَمَالِ شَيْئًا مَنْ أَقَامَ نَفْسَهُ مِنْ رَبِّهِ مُقَامَ عَبْدِهِ مِنْ نَفْسِهِ

(ما ترك من الكمال) الدنيوي والأخروي (شيئا من) أي شخص (أقام نفسه) أي أنزلها (من ربه) تعالى (مقام) أي منزلة (عبده) المملوك (من نفسه) الضعيفة ، فكما يحب الشخص أن يرى من عبده المملوك الطاعة له والخضوع والإمتثال لأوامره ويكره أن يرى منه مخالفته وعدم الإنقياد له مع أنه إنسان مثله ، كذلك الله سبحانه وتعالى يحب أن يرى منه الطاعة والإمتثال لأوامره والإنكسار لديه ، ويكره منه ضد ذلك مع أنه المخلوق الأذل وربه الخالق الأعز الأجل . فالإنسان الكامل هو الذي أنزل نفسه من ربه الخالق عز وجل منزلة عبده المملوك من نفسه ، فإذا حدثته نفسه بالمعصية ، أو واجهته فريضة من الفرائض ، أو نافلة من النوافل ، استشعر في نفسه أن ربه مطلع عليه في كل أحواله ، فلا يراه الله حيث نهاه ، ولا يفقده حيث أمره ، ويكون مطيعا له تعالى في حركاته وسكناته ، ويصل بذلك مقام الإحسان في عباداته ، وهو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ،

وهذا هو الذي يكون سعيدا في الدنيا والآخرة ، محفوفا بعنايته تعالى في أموره الدنيوية والأخروية ، مطاعا في قوله وفعله فإن من أطاع الله أطاعه كل شيء ، ومن خافه خافه كل شيء ، ومن لم يخف الله خاف من كل شيء . فليبادر الشخص المتجه إلى الكمال الدنيوي والأخروي إلى فعل ما يوجب قربته تعالى ومحبته ، وليجتنب عما يسخطه ويبغضه . قال صلى الله عليه وسلم : "إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ : مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِيْ بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِيْ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِيْ يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِيْ يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِيْ يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِيْ يَمْشِيْ بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِيْ لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِيْ لَأُعِيْذَنَّهُ" رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه . وحكي : أن عصام بن يوسف أتى مجلس حاتم الأصم ، فأراد الإعتراض عليه ، فقال له : يا أبا عبد الرحمن كيف تصلي ؟ فحول حاتم وجهه إلى عصام وقال له : إذا جاء وقت الصلاة قمت فأتوضأ وضوءا ظاهرا ووضوءا باطنا ، فقال عصام : كيف الوضوء الباطن ؟ فقال : أما الوضوء الظاهر فأغسل الأعضاء بالماء ، وأما الوضوء الباطن فأغسله بسبعة أشياء : بالتوبة ، والندامة ، وترك حب الدنيا ، وثناء الخلق ، والرياسة ، والغل ، والحسد . ثم أذهب إلى المسجد ، فأبسط الأعضاء فأرى الكعبة ، فأقوم بين حاجتي وحذري ، والله ناظري ، والجنة عن يميني ، والنار عن شمالي ، وملك الموت خلف ظهري ، وكأني واضع قدمي على الصراط ، وأظن أن هذه الصلاة آخر صلاة أصليها ، ثم أنوي وأكبر بالإحسان ، وأقرأ بالتفكر ، وأركع بالتواضع ، وأسجد بالتضرع ، وأتشهد بالرجاء ، فهذه صلاتي منذ ثلاثين سنة ، فقال له عصام : هذا شيء لا يقدر عليه غيرك ، وبكى بكاء شديدا .

الحكمة الثالثة

قال رضي الله عنه :

النَّائِمُ يُوْقَظُ ، وَالْغَافِلُ يُذَكَّرُ ، وَمَنْ لَمْ يُجْدِ فِيْهِ التَّذْكِيْرُ وَالتَّنْبِيْهُ فَهُوَ مَيِّتٌ ، إِنَّمَا تَنْفَعُ الْمَوْعِظَةُ مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهَا بِقَلْبِهِ ، وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيْبُ .

(النائم يوقظ) أي ينبه من نومه ، والنوم هواسترخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة بحيث تقف الحواس الظاهرة عن الإحساس رأسًا ، وقيل : هو زوال القوة والعقل بالغلبة ، والمراد بالنائم من غلبه حب الدنيا ، واتباع شهوته التي تحمله على المخالفة والمعصية ، فكما يوقظ النائم لأداء الصلاة والعمل الواجب ، كذلك ينبه عاشق الدنيا من حبه لها ، واتباع شهواته ، ولا يترك مصرا على ذلك ، ويحث على الزهد في الدنيا وقمع شهواته ، لئلا يخسر الدنيا والآخرة ، ويحتمل أن يراد بالنائم المعرض عن الله تعالى ، فينبه من إعراضه عن الله تعالى ، ويحث على الإقبال إليه ، لئلا يلحقه الوبال ، ويقع عليه النكال . قال تعالى : (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِيْ فَإِنَّ لَهُ مَعِيْشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) {طه : الآية ١٢٤} . ضنكا : أي ضيقا (والغافل) عن الله تعالى ، والغفلة هي غيبة الشيء عن البال وعدم تذكره له (يُذَكَّر) من غفلته ويوجه إلى التقرب إليه تعالى . ولا يترك متماديا في غفلته ونسيانه لئلا ينساه الله تعالى . قال تعالى : (نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ) {التوبة : الآية ٦٧} . (ومن لم يجد) أي لم ينفع (فيه التذكير والتنبيه) ولم تؤثرفيه الموعظة الحسنة (فهو ميت) قلبه لأنه (إنما تنفع الموعظة) السنية الصادرة من الوعاظ المخلصين (من) أي شخصا (أقبل عليها بقلبه) الذي هو محل الإنتفاع

والقبول (وما يتذكر) أي لا يتعظ ولا يعتبر بها (إلا من ينيب) أي من يرجع إلى الله ويخلص له العبادة . وهذا مقتبس من قوله تعالى : (هُوَ الَّذِيْ يُرِيْكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيْبُ) {غافر : الآية ١٣} . آياته : أي دلائل وحدانيته . رزقا : أي بالمطر . وما يتذكر : أي ما يتعظ . ينيب : أي يرجع إلى الله تعالى ويُقبِل بكليته إلى الله تعالى في جميع أموره فيعرض عن غير الله تعالى . ثم إن إيقاظ النائم ، وتنبيه الغافل من وظيفة من له قدرة على ذلك من العلماء ، الذين هم ورثة الأنبياء ، وغيرهم ، ولاييأس من ذلك إذا لم ينفعه تذكيره وتنبيهه الآن ، فربما ينفعه غدا أو في حين من الأحيان ، قال تعالى : (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِيْنَ) {الذاريات : الآية ٥٥} . ذكر : أي الزم التذكير والموعظة . والهداية بيد الله يهدي بها من يشاء في وقت يشاء ، وليتذكر صبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجلده ورحمته بأمته ، عند ما دعا أهل الطائف إلى الله تعالى ، وهو أنه لما مات عمه أبو طالب وزوجته خديجة رضي الله عنها ، اشتد البلاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفهاء قومه ، وتجرءوا عليه ، فكاشفوه بالأذى ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف رجاء أن يؤووه وينصروه على قومه ، ويمنعوه منهم ، ودعاهم إلى الله عز وجل ، فلم ير من يؤوي ، ولم ير ناصرا ، وآذوه مع ذلك أشد الأذى ، ونالوا منه ما لم ينله قومه ، وكان معه زيد بن حارثة مولاه ، فأقام بينهم عشرة أيام ، لا يدع أحدا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه ، فقالوا : اخرج من بلدنا ، وردوه أسوأ رد ، وسلطوا عليه عبيدهم وسفهائهم وصبيانهم ، يرمونه بالحجارة حتى أدْمَوْا قدميه صلى الله عليه وسلم ، ومولاه زيد بن حارثة يدافع عنه ، ويحاول أن يتلقى عنه هذه الحجارة حتى شُجَّ عدة شِجاجٍ في رأسه ، خرج

صلى الله عليه وسلم دامي القدمين من الطائف ، والذي آلمه صلى الله عليه وسلم ليس الحجارة التي جرحت رجليه ، ولكن الكلام الذي جرح قلبه ، ولهذا ناجى ربه بهذه المناجاة : "اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُوْ ضَعْفَ قُوَّتِيْ ، وَقِلَّةَ حِيْلَتِيْ ، وَهَوَانِيْ عَلَى النَّاسِ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنَ ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِيْنَ وَأَنْتَ رَبِّيْ ، إِلَى مَنْ تَكِلُنِيْ إِلَى بَعِيْدٍ يَتَجَهَّمُنِيْ ؟ أَوْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِيْ؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِيْ ، غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِيْ ، أَعُوْذُ بِنُوْرِ وَجْهِكَ الَّذِيْ أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، أَنْ يَحِلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ أَوْ أَنْ يَنْزِلَ بِيْ سَخَطُكَ ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ" . فبعث الله إليه ملَك الجبال يستأمره ويقول : إن شئتَ أُطبِقُ عليهم الجبلين ، ولكنه صلى الله عليه وسلم أبى ذلك ، وقال : إِنِّيْ لَأَرْجُوْ أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَلَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِيْ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُوْنَ . تكلني :أي تفوض أمري . يتجهمني : أي يغلّظني . يحل علي : أي ينزل علي . العتبى : أي الرضا ، أي أسترضيك حتى ترضى .

✦✦✦✦✦✦✦✦✦

الحكمة الرابعة

قال رضي الله عنه :

كَيْفَ يَكُوْنُ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ مَنْ يُرْضِي الْمَخْلُوْقِيْنَ بِسُخْطِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ ؟

(كيف يكون من المؤمنين) الكاملين في الإيمان (من يرضي المخلوقين) الذين لا يغنون عنه شيئا ولايملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا فضلا عن غيرهم (بسخط رب العالمين ؟) الذي إذا حل سخطه على أحد فلا ينجيه منه أحد ، وكان مطرودا

عن رحمته ورضاه ، فليعمل العبد بما يوجب رضوان الله تعالى من طاعة أوامره واجتناب نواهيه ، وإن كان فيه سخط المخلوقين ، ولا يتعرض لسخطه وإن كان ذلك سببا لرضاهم ، وليصلح ما بينه وبين ربه عز وجل فإنه من أصلح ما بينه وبين ربه أصلح الله ما بينه وبين خلقه . قال الله تعالى : ﴿وَاللهُ وَرَسُوْلُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوْهُ﴾ {التوبة : الآية ٦٢} . يرضوه : أي يرضوا الله تعالى بالتوحيد والطاعة . ولم يقل يرضوهما لأن رضا رسول الله تعالى داخل في رضاه تعالى فاكتفي به تخفيفا . وقال صلى الله عليه وسلم : "مَنْ أَسْخَطَ اللهَ فِيْ رِضَا النَّاسِ سَخِطَ اللهُ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ مَنْ أَرْضَاهُ ، وَمَنْ أَرْضَى اللهَ فِيْ سُخْطِ النَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ مَنْ أَسْخَطَ فِيْ رِضَاهُ حَتَّى يُزَيِّنَهُ وَيُزَيِّنَ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ فِيْ عَيْنَيْهِ" أخرجه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما . والذي يراعي ويقدم رضا الله على رضا غيره هو المؤمن الكامل الذي كفاه الله عن مئونة الناس ، كما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت : سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُوْلُ : "مَنْ آثَرَ مَحَامِدَ اللهِ عَلَى مَحَامِدِ النَّاسِ كَفَاهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ" رواه البيهقي . مئونة الناس : أي ثِقَلَهم . ومن فعل سوى ذلك فهو أعمى القلب الذي ضعف يقينه . قال صلى الله عليه وسلم : "إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِيْنِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسُخْطِ اللهِ ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللهِ ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ ، إِنَّ رِزْقَ اللهِ لَا يَجُرُّهُ إِلَيْكَ حِرْصُ حَرِيْصٍ وَلَا يَرُدُّهُ كُرْهُ كَارِهٍ ، وَإِنَّ اللهَ بِحِكْمَتِهِ وَجَلَالِهِ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالْفَرَحَ فِي الرِّضَا وَالْيَقِيْنِ ، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحَزَنَ فِي الشَّكِّ وَالسُّخْطِ " رواه أبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . الروح : أي الراحة والطمأنينة . وقالت عائشة رضي الله عنها : "مَنِ الْتَمَسَ مَحَامِدَ النَّاسِ بِمَعَاصِي اللهِ

عَادَ حَامِدُهُ لَهُ ذَامًّا" أخرجه الخرائطي . وقد علم من ذلك أنه لا تجوز طاعة الأئمة والوالدين في الأمور المحظورة شرعا ، وأولى غيرهم . قال تعالى : (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِيْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا) {لقمان : الآية ١٥} . وإن جاهداك : أي استفرغا جهدهما في تكليفك لتشرك بي غيري ، مع ما أمرتُك به من طاعتهما . ما ليس لك به علمٌ : . أي ما ليس لك به حجة ، يعني : الشرك . فلا تطعهما : أي على الشرك . فكما تحرم طاعة الوالدين في الشرك تحرم في كل معصية ، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . قال القرطبي : إن طاعة الأبوين لا تراعَى في ارتكاب كبيرة ، ولا في ترك فريضة وتلزم طاعتهما في المباحات إهـ . وعن أبي سعيد الخـدري رضي الله عنه : "أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ عَلْقَمَةَ بْنَ مُجَزِّزٍ عَلَى بَعْثٍ وَأَنَا فِيْهِمْ ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى رَأْسِ غَزَاتِهِ أَوْ كَانَ بِبَعْضِ الطَّرِيْقِ اسْتَأْذَنَتْهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْجَيْشِ ، فَأَذِنَ لَهُمْ وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللهِ ابْنَ حُذَافَةَ بْنِ قَيْسٍ السَّهْمِيْ ، فَكُنْتُ فِيْمَنْ غَزَا مَعَهُ ، فَلَمَّا كَانَ بِبَعْضِ الطَّرِيْقِ أَوْقَدَ الْقَوْمُ نَارًا لِيَصْطَلُوْا أَوْ لِيَصْنَعُوْا عَلَيْهَا صَنِيْعًا ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ وَكَانَتْ فِيْهِ دُعَابَةٌ : أَلَيْسَ لِيْ عَلَيْكُمُ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ ؟ قَالُوْا : بَلَى ، قَالَ : فَمَا أَنَا بِآمِرِكُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا صَنَعْتُمُوْهُ ؟ قَالُوْا : نَعَمْ ، قَالَ : فَإِنِّيْ أَعْزِمُ عَلَيْكُمْ إِلَّا تَوَاثَبْتُمْ فِيْ هَذِهِ النَّارِ ، فَقَامَ نَاسٌ فَتَحَجَّزُوْا ، فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّهُمْ وَاثِبُوْنَ ، قَالَ : أَمْسِكُوْا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، فَإِنَّمَا كُنْتُ أَمْزَحُ مَعَكُمْ ، فَلَمَّا قَدِمْنَا ذَكَرُوْا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنْ أَمَرَكُمْ مِنْهُمْ بِمَعْصِيَةِ اللهِ فَلَا تُطِيْعُوْهُ" أخرجه ابن ماجه في سننه . ليصطلوا : أي لِيَقُوا أنفسَهم من البَرْد . دُعابة : أي مزْح ولعب . فتحجزوا : أي أعدُّوا أنفسهم للوثوب . مَنْ أمركم منهم : أي من ولاة الأمور .

الحكمة الخامسة

قال رضي الله عنه :

الْعَادَةُ إِذَا رَسَخَتْ نَسَخَتْ

(العادة) وهي ما تكرر فعله من الأمور ، سواء كان خيرا أو شرا (إذا رسخت) أي تمكنت واستمرت (نسخت) أي أزالت ما قبلها من العادات ، فمن اعتاد الخير فقد نسخ به ما قبله من الشر ، ومن اعتاد الشر فقد نسخ الخير قبله ، ومن اعتاد المداومة على عمل فقد نسخت الكسل قبلها ، فليتعود الشخص فعل الخير لينسخ الشر ولا يتعود للشر فينسخ الخير قبله ، وليتعود بما اعتاده الأولياء والأسلاف الصالحون الذين ينظرون بنور الله ويسيرون على منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم في عباداتهم وأشغالهم الأخروية ، فقد قيل : "عَادَاتُ السَّادَاتِ سَادَاتُ الْعَادَاتِ" . والعادة إذا واظب عليها الإنسان أربعين يوما ، نسخت ما قبلها وأزالته وصارت له كالخلق الأصلي الغريزي غالبا ، فلا يتركها حتى مات . فعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تَمَامُ الرِّبَاطِ أَرْبَعُوْنَ يَوْمًا ، وَمَنْ رَابَطَ أَرْبَعِيْنَ يَوْمًا لَمْ يَبِعْ وَلَمْ يَشْتَرِ وَلَمْ يُحْدِثْ حَدَثًا ، خَرَجَ مِنْ ذُنُوْبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ" أخرجه الطبراني . الرباط : أي إقامة مجاهدة النفس لتتبدلَ أخلاقها القبيحة بالحسنة . لم يبع ولم يشتر ولم يحدث حدثا : أي لم يفعل شيئا من الأمور الدنيوية التي لا ضرورة فيها . قال شمس الدين البوني : أجمع السلف على أن حد الفتح الرباني والكشف الوهباني لا يصح لمن في معدته مثقال ذرة من طعام ، وهو حد الصمدانية الجسمانية . والأشهر عندهم أنه لا

يصح ولا يكون إلا بتمام الأربعين كما اشترط الله على كليمه عليه السلام وأشار بهذا الحديث ، وذلك لتطهر معدته من كثائف الأغذية ، فتقوى روحانية روحه ويصفو عقله وقلبه إهـ . وعن أنس رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَنْ صَلَّى للهِ أَرْبَعِيْنَ يَوْمًا فِيْ جَمَاعَةٍ يُدْرِكُ التَّكْبِيْرَةَ الْأُوْلَى ، كُتِبَ لَهُ بَرَاءَتَانِ : بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ ، وَبَرَاءَةٌ مِنَ النِّفَاقِ" رواه الترمذي . وحكي أن رجلا راود امرأة عن نفسها ، فأخبرت زوجها بذلك ، فقال : قولي له : صل خلف زوجي أربعين صباحا حتى أطيعك فيما تريد ، فقالت لـه ، ففعل ، ثم دعته إلى نفسها فقال : إني تبت إلى الله عز وجل ، فأخبرت زوجها فقال : صدق الله العظيم في قوله : (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) {العنكبوت : الآية ٤٥} . وعن أبي أيوب رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَنْ أَخْلَصَ لِلهِ أَرْبَعِيْنَ يَوْمًا ظَهَرَتْ يَنَابِيْعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ" رواه أبونعيم . من أخلص لله أربعين يوما : بأن طهرت حواسه الظاهرة والباطنة من الأخلاق الذميمة . ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه : أي لأن المحافظة على الطهارة المعنوية ولزوم المجاهدة يوصل إلى حضرة المشاهدة ، ومن هذا الحديث أخذ الصوفية الأربعينية التي يتعهدونها ، واستأنسوا لذلك بقوله تعالى : (وَوَاعَدْنَا مُوْسَى ثَلَاثِيْنَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ) {الأعراف : الآية ١٤٢} قاله المناوي في التيسير . ثلاثين ليلة : أي من شهر ذي القعدة بأن يصومها ونكلمه عند انتهائها ، وأتممناها بعشر : أي من ذي الحجة . ومن هذه الحكمة لا يستغرب ما فعله الصحابة وتابعوهم والعارفون بالله من المداومة على قراءة القرأن كثيرا وختمها عدة مرات في مدة يسيرة جدا ، لصفاء سرائرهم ، وكمال إخلاصهم ، وتعويدهم أنفسهم على

العبادة الشاقة ، حتى استلذوا بها وصارت كالقوت عندهم . فقد ورد في بعض الآثار أن عثمان بن عفان رضي الله عنه "كَانَ يَخْتِمُ فِيْ كُلِّ يَوْمٍ مَرَّةً" ، وكذلك إمامنا الشافعي رحمه الله تعالى نقل عنه أنه ختم في رمضان ستين مرة ختمة في الليل وختمة في النهار ، ونقل عنه أيضا أنه كان يختم في الليل ختمة ، وفي النهار ختمة في غير الصلاة ، لأنه يقرأ في الصلاة زيادة على ذلك . وفي ترجمة شيخنا العلامة الفقيه الشيخ إسماعيل عثمان زين اليمني رحمه الله تعالى أنه كان يستغرق في المطالعة والعبادة في أيام تحصيله المباركة ، حتى إنه لا ينام في اليوم والليلة إلا قدر ساعة واحدة تقريبا قبيل الظهر في مدة خمس سنوات . رحمهم الله ونفعنا بعلومهم آمين .



الحكمة السادسة

قال رضي الله عنه :

لَاتَدُوْمُ مَعَ الْكُلْفَةِ أُلْفَةٌ

(لا تدوم مع الكُلْفة) أي التكلف والمشقة (أُلْفَة) أي مودة ومحبة ، فلا يكلف العبد نفسه لفعل عبادة من العبادات فوق ما يطيقه منها ، ليألفها ولا يملها ، فيداوم عليها ، وفي المثَل : قليلٌ قَرَّ خيرٌ من كثيرٍ فَرَّ . فصلاة الضحى ركعتين مع المداومة عليها ، خير من إتيانها ثمان ركعات في يوم فقط ، وصلاة الوتر ثلاث ركعات مع المواظبة عليها ، خير من إتيانها إحدى عشرة ركعة في ليلة فقط . قال صلى الله عليه وسلم : " أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ وَإِنْ قَلَّ" أخرجه مسلم

وأحمد عن عائشة رضي الله عنها . وأخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت ، قال صلى الله عليه وسلم : "خُذُوْا مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيْقُوْنَ فَإِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوْا" قالت : "وَكَانَ أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا دُوْوِمَ عَلَيْهَا وَإِنْ قَلَّتْ ، وَكَانَ إِذَا صَلَّى صَلَاةً دَاوَمَ عَلَيْهَا". وعنها رضي الله عنها قالت : "دَخَلَ عَلَيَّ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدِيْ امْرَأَةٌ ، فقال : مَنْ هٰذِهِ ؟ فَقُلْتُ : امْرَأَةٌ لَا تَنَامُ ، تُصَلِّيْ . قَالَ : عَلَيْكُمْ مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيْقُوْنَ ، فَوَاللهِ لَا يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوْا ، وَكَانَ أَحَبُّ الدِّيْنِ إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ" أخرجه مسلم . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إِنَّ هَذَا الدِّيْنَ مَتِيْنٌ ، فَأَوْغِلْ فِيْهِ بِرِفْقٍ ، وَلَا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ رَبِّكَ ، فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا سَفَرًا قَطَعَ ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى ، فَاعْمَلْ عَمَلَ امْرِئٍ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَمُوْتَ أَبَدًا ، وَاحْذَرْ حَذَرًا تَخْشَى أَنْ تَمُوْتَ غَدًا" رواه البيهقي . فأوغل فيه أي ادخُلْ وسِرْ فيه برفقٍ . فإن المنبت : أي المنقطع المتخلف عن رفقته لكونه أجهد دابته حتى أعياها أو عطبت . لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى : أي فلا هو قَطَع الأرض التي قصدها ، ولا هو أبقى مركوبَه ينفعه ، فكذا من تكلف من العبادة ما لا يطيقه فإنه لا يصل إلى مقصوده . فاعمل عمل امرىء إلخ : المراد بذلك تقديم أمر الآخرة وأعمالها حذر الموت بالفوت على عمل الدنيا ، وتأخير أمر الدنيا كراهة الإشتغال بها على عمل الآخرة ، قاله المناوي . ومن العبادة الإنفاق والتصدق وغيرهما من باب الإحسان للغير ، فلا يكون الشخص محمودا بفعل ما لا يطيقه من ذلك وإهمال ما يجب عليه من نحو نفقة أقاربه . فقد قيل : لا نتكلف بالمفقود ولا نبخل بالموجود . وكذلك في المصادقة والمعاشرة ، فلا يُثَقِّلُ أَحَدُ

المُعَاشِرَيْن الآخرَ ، ولا يفعل ما يشق عليه ، ليدوم التآلف بينهما ، وإلا فينقطع بل يؤدي ذلك إلى الهجر والتناكر بينهما . ولذا لاينبغي لمن له جاه أن يطلب من إخوانه ما يشق عليهم ، فإنهم إنما يعطونه إياه لا عن طيب قلب ، بل لأجل الخوف أو الحياء ، وذلك مذموم ومنهي عنه شرعا . قال الفقهاء : إن آخذ مال غيره بالحياء له حكم الغاصب إهـ . وقال الغزالي : من طلب من غيره مالًا في الملأ فدفعه إليه لباعث الحياء فقط ، لم يملكه ولا يحل له التصرف فيه إهـ . ولا ينبغي للمعلم أن يكلف على الطالب درس ما لا يحتمله فهمه ، فينفره ويشوش عقله ، لماروي عن ابن عباس رضي الله عنهما رفعه : "لَا تُحَدِّثُوْا أُمَّتِيْ مِنْ أَحَادِيْثِيْ إِلَّا مَا تَحْمِلُهُ عُقُوْلُهُمْ ، فَيَكُوْنَ فِتْنَةً لَهُمْ" أخرجه الديلمي وأبو نعيم . وكذلك لاينبغي للمدرس أن يطوِّل وقت الدرس بما يشق على الطلاب مشقة لا تحتمل عادة ، فإن ذلك يزيل الألفة ، ويورث النفرة ، بل عليه أن يستريح ، ويريحهم ولو قليلا بما يعود الطالب بعده إلى النشاط حتى لا يسأموا . ومن الأساليب التي تمنع الملل ، تغيير الفن المقروء ، أو تغيير الكتاب المقروء ، ولو من فن واحد . قال أبوبكرة رضي الله عنه : "أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ يُنْشِدُ الشِّعْرَ ، فَقُلْتُ : يَارَسُوْلَ اللهِ الْقُرْآنُ أَوِالشِّعْرُ؟ فَقَالَ : يَا أَبَابَكْرَةَ هَذَا مَرَّةً وَهَذَا مَرَّةً". يعني : هذا القرآن مرة وهذا الشعر مرة . وقال سيدنا علي كرم الله وجهه : "رَوِّحُوْا الْقُلُوْبَ وَاطْلُبُوْا لَهَا طُرَفَ الْحِكْمَةِ فَإِنَّهَا تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الْأَبْدَانُ" . روِّحوا القلوب : أي مِنْ مَلَلِها وسآمتها . طرف الحكمة : يعني الكلامَ المستحسَنَ المعجِبَ . وكان من عادة ابن عباس رضي الله عنهما أنه إذا فرغ من الدرس في الحديث أو التفسير أو الأحكام ، قال لتلامذته : "أَحْمِضُوْا". ويأمرهم بالأخذ في

مُلَح الكلام ، خوفًا عليهم من الملل والسآمة . قال المناوي : أَحمِضوا ، أي هاتوا من أشعاركم ، فإن النفس تمل كما تمل الأبدان . وقال الزهري لأصحابه : "هَاتُوْا مِنْ أَشْعَارِكُمْ ، هَاتُوْا مِنْ حَدِيْثِكُمْ ، فَإِنَّ الْأُذُنَ مَجَّاجَةٌ وَالْقَلْبَ حَمْضٌ" . مجاجة : أي تمُجُّ ما تسمعه ولا تَعِيْه . حمض : أي أن القلب إذا مل يشتهي ما يزيل عنه الملل والسآمة . قال الشيخ محمد حياة السندي : وفي قول المؤلف : لاتدوم مع الكلفة ألفة ، إيماء إلى أنه لا تدوم الألفة مع الله ، ولا الأنس بشهوده ، والتلذذ بالتقرب إليه ، إلا بعد ذهاب كلفة الطاعة من الإنسان ، بأن تسهل عليه وتصير ألذ الأمور عليه إهـ . وقد تقدم أن العادة إذا رسخت نسخت ، فإذا عود نفسه للطاعة ، وصارت سجية له ، سهلت عليه واستلذ بها ، ولا يستطيع أن يتركها مدى حياته .

قال البغوي : سمعت عبد الله بن عمر القواريري يقول : لم تكن تفوتني صلاة العشاء في جماعة ، فنزل بي ضيف فشُغلتُ به ، فخرجت أطلب الصلاة في قبائل البصرة ، فإذا الناس قد صلَّوا وخلت القبائل ، فقلت في نفسي : روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ تَفْضُلُ عَلَى صَلَاةِ الْفَذِّ خَمْسًا وَعِشْرِيْنَ دَرَجَةً" ، وروي "سَبْعًا وَعِشْرِيْنَ" ، فانقلبت إلى منزلي ، فصليت العشاء سبعا وعشرين مرة ، ثم رقدت ، فرأيتُني مع قوم راكبي أفراسٍ ، وأنا راكب فرسا كأفراسهم ونحن نتجارَى ، فالتفتَ إليَّ أحدُهم فقال : لا تُجهِدْ فرسَك فلستَ بِلَاحِقِنا ، فقلت : فلِمَ ذاك ؟ قال : إنا صلينا العشاء في جماعة ، وأنت صليت وحدك إهـ .



الحكمة السابعة

قال رضي الله عنه :

مَنْ لَمْ يَدْفَعْ عَنْهُ الْفَقْرَ قَلِيْلُ الْمَالِ ، لَمْ يُحَصِّلْ لَهُ الْغِنَى كَثِيْرُهُ . كَذلِكَ مَنْ لَمْ يَنْتَفِعْ بِقَلِيْلِ الْعِلْمِ فَهُوَ مِنَ الْإِنْتِفَاعِ بِكَثِيْرِهِ أَبْعَدُ

(من لم يدفع عنه الفقر) أي حاجة المعاش (قليل المال) وهو أدنى ما يكفي نفسه ومن عليه مؤنته من الملبوس والمطعوم والمسكن ، أي من لم يكتف بما عنده مما رزقه الله من المال ، ولم ينتفع به ، بل يتشوف إلى ماكان أكثر مما عنده (لم يحصل له الغنى كثيره) أي المالِ ، بل كلما كثر ماله كثرت آماله ، ولا يزيده كثرته إلا بُخلًا بما لديه ، وحرصا إلى غيره ، ولا تنقضي آماله حتى يأخذه الموت ، ويدخل قبره وحيدا تاركا لما جمعه بكده وتعبه . قال تعالى : (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) {التكاثر : الآية ١-٢} . وقال صلى الله عليه وسلم : "لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى ثَالِثًا وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوْبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ " أخرجه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما . ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب : أي لا يزال حريصا على الدنيا حتى يموت ويمتلئ جوفه من تراب قبره . ويتوب الله على من تاب : أي يقبل التوبة من الحرص المذموم ومن غيره . فينبغي للإنسان أن يستشعر بالنعم التي أنعمها الله عليه ويقنع بها ، ولا يزدري بها ، وذلك بشكرها وصرفها فيما يرضي رازقها سبحانه وتعالى ، وذلك سبب النماء والزيادة . قال تعالى : (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيْدَنَّكُمْ) {إبراهيم : الآية ٧} . وهو الفائز السعيد في الدنيا والآخرة . قال صلى الله عليه وسلم : "مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرْبِهِ ،

مُعَافًى فِيْ بَدَنِهِ ، عِنْدَهُ قُوْتُ يَوْمِهِ ، فَكَأَنَّمَا حِيْزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيْرِهَا" رواه الترمذي عن عبيد الله ابن محصن رضي الله عنه . في سربه : أي في نفسه وأهله ومسلكه . حيزت : أي جُمعت . بحذافيرها : أي جوانبها . وقال صلى الله عليه وسلم : "مَنْ أَصْبَحَ مُعَافًى فِيْ بَدَنِهِ ، آمِنًا فِيْ سِرْبِهِ ، عِنْدَهُ قَوْتُ يَوْمِهِ ، فَكَأَنَّمَا حِيْزَتْ لَهُ الدُّنْيَا . يَا ابْنَ جُعْشُمٍ يَكْفِيْكَ مِنْهَا مَا سَدَّ جَوْعَتَكَ ، وَوَارَى عَوْرَتَكَ ، وَإِنْ كَانَ بَيْتٌ يُوَارِيْكَ فَذَاكَ ، وَإِنْ كَانَتْ دَابَّةٌ تَرْكَبُهَا فَبَخْ بَخْ ، فِلَقُ الْخُبْزِ وَمَاءُ الْجَرِّ ، وَمَا فَوْقَ ذَلِكَ حِسَابٌ عَلَيْكَ" رواه الطبراني عن أبي الدرداء رضي الله عنه . بخ بخ : اسم فعل معناه : عَظُم الأمر وفخم ، تقال عند الرضا والإعجاب بالشيء والفخر والمدح . والتكرير للمبالغة . فِلَق الخبز أي كِسَره . والجر : إناء من الخزف . (كذلك من لم ينتفع بقليل العلم) الذي فازبه بأن لا يعمل بما علمه (فهو من الإنتفاع بكثيره) أي العلم (أبعدُ) أي فمن لم ينتفع بقليل علمه الذي رزقه الله وفتح عليه به ، لم ينتفع بكثيره بالأولى ، بل كلما تزايد علمه تزايد بعده من الله تعالى ، وكان علمه حجة ووبالا عليه يوم القيامة ، فمثله كمثل الحمار يحمل أسفارا . قال صلى الله عليه وسلم : "مَنْ ازْدَادَ عِلْمًا وَلَمْ يَزْدَدْ فِي الدُّنْيَا زُهْدًا لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا" رواه الديلمي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه . فينبغي لمن فتح الله عليه بعلم من العلوم أن يعمل به ، ويجود بتعليمه لمن يستفيد منه فيورثه الله بذلك علم ما لم يعلم . فقد روى أبو نعيم في الحلية عن أنس بن مالك رضي الله عنه : "مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" . وقال أبوهريرة رضي الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه : "اللَّهُمَّ انْفَعْنِيْ بِمَا عَلَّمْتَنِيْ وَعَلِّمْنِيْ مَا يَنْفَعُنِيْ وَزِدْنِيْ عِلْمًا الْحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَأَعُوْذُ بِاللهِ مِنْ حَالِ أَهْلِ

النَّارِ" رواه الترمذي وابن ماجه. وقال شيخنا العلامة الفقيه الشيخ إسماعيل عثمان اليمني المكي رحمه الله تعالى ونفعنا بعلومه : "عَلِّمْ مَا تَعْلَمُ يُعَلِّمْكَ اللهُ مَا لَمْ تَعْلَمْ". أو قال : "دَرِّسْ ماَ تَعْرِفُ يُعَرِّفْكَ اللهُ مَا لَمْ تَعْرِفْ " . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : "إِنَّ النُّوْرَ إِذَا دَخَلَ الْقَلْبَ انْشَرَحَ لَهُ الصَّدْرُ وَانْفَسَحَ ، وَقِيْلَ يَا رَسُولَ اللهِ : هَلْ لِذَلِكَ مِنْ عَلَامَةٍ يُعْرَفُ بِهَا ؟ قَالَ : نَعَمْ . التَّجَافِيْ عَنْ دَارِ الْغُرُوْرِ ، وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُوْدِ ، وَالتَّزَوُّدُ لِسُكْنَى الْقُبُوْرِ ، وَالْإِسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبل نُزُوْلِهِ" . وعند ذلك تموت شهواته وتذهب دواعي نفسه ، فلا تأمره بسوء ، ولا تطالبه بارتكاب منهي ، ولا تكون له همة إلا المسارعة إلى الخيرات ، والمبادرة لاغتنام الساعات والأوقات ، وذلك لاستشعاره حلول الأجل ، وفوات صالح العمل .



الحكمة الثامنة

قال رضي الله عنه :

نَازَعَ الْأَقْدَارَ مَنِ اسْتَقْبَحَ مِنْ أَخِيْهِ مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْإِخْتِيَارِ

(نازع الأقدار) بالنصب مفعول مقدم عن الفاعل ، جمع قدر بفتح الدال المهملة ، وهو إيجاد الله الأشياء على قدر مخصوص ووجه معين أراده تعالى (من) اسم موصول في محل رفع فاعل نازع (استقبح من أخيه) المسلم (مالا يدخل تحت الإختيار) بأن لا يكون له حيلة في دفعه ورده ، كقبح الصورة ، وميل القلب ، فمن استقبح من أخيه مالا يدخل تحت اختياره فهو منازع لما قدره الله تعالى ومعترض عليه تعالى. وحكى شيخنا العلامة السيد عمر الجيلاني حفظه الله تعالى:

أن بعض الصالحين رأى كلبا أجْربَ وسِخًا في مزبَلة ، فذمَّه ، فأنطق الله ذلك الكلب وقال له : أنت تعترض على الصنعة أم على الصانع ؟ إن كنت تعترض على الصنعة فلوكان الخيار لي ما أُحِبُّ أن أكون كلبا ، وإن كنت تعترض على الصانع فهو لا يسأل عما يفعل إهـ . ومثله ما في تفسير الآلوسي : أن نوحا عليه السلام إنما سمي نوحًا لكثرة نَوحه وبكائه على نفسه ، ويُنقل في سبب بكائه أنه عليه السلام رأى كلبًا أجرب قذِرًا ، فبصق عليه ، فأنطقه الله تعالى ، فقال أتعيبني أم تعيب خالقي ؟ فندم وناح لذلك إهـ . ومن عاتب أخاه على عدم التساوي في ميل القلب إلى بعض الضرات ، فقد نازع الأقدار ، وتعرض للاعتراض على الواحد القهار ، لأن ميل القلب مما لا يدخل تحت الإختيار . فعن عائشة رضي الله عنها قالت : "كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ يَقْسِمُ بَيْنَ نِسَائِهِ فَيَعْدِلُ ، وَيَقُوْلُ : اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِيْ فِيْمَا أَمْلِكُ فَلَا تَلُمْنِيْ فِيْمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ" رواه أبوداود والترمذي والنسائي . يعني بقوله فيما تملك ولا أملك : ميل القلب الطبيعي . وحكي عن الشيخ أبي الحجاج عفيف الدين الزاهد صاحب كتاب سلوك الخواص أنه كان بمصر ، فبلغه ما وقع ببغداد من القتل مدة أربعين يوما ، وقتل ألف ألف مسلم ، وعلقت النصارى المصاحف في أعناق الكلاب ، وجعلوا المساجد كنائس ، وألقوا كتب الأئمة في الدجلة حتى صارت كالجسر تمر الخيل عليها ، فأنكر الشيخ عفيف الدين ذلك وقال : يارب كيف هذا وفيهم الأطفال ومن لا ذنب له ؟ فرأى في المنام رجلًا ، وفي يده كتاب ، فأخذه فإذا فيه :

دَعِ الْإِعْتِرَاضَ فَمَـا الْأَمْرُ لَكْ * وَلَا الْحُكْمُ فِيْ حَرَكَاتِ الْفَلَكْ
وَلَا تَسْـأَلِ اللهَ عَنْ فِعْلِـهِ * فَمَنْ خَاضَ لُجَّةَ بَحْرٍ هَلَكْ

وحكي في نوادر القليوبي : أن شقيقا البلخي اشترى بطيخة لامرأته ، فوجدتها غير طيبة فغضبت ، فقال لها : على من تغضبين ؟ على البائع أو على المشتري أو على الزارع أو على الخالق ؟ فأما البائع فلوكان منه لكان أطيب شيء يرغب فيه ، وأما المشتري فلو كان منه لاشترى أحسن الأشياء ، وأما الزارع فلو كان منه لأنبت أحسن الأشياء ، فلم يبق إلا غضبكِ على الخالق ، فاتقي الله وارضَيْ بقضائه ، فبكت ورضيتْ بما قضى الله تعالى إهـ .

وليس من منازعة الأقدار استقباح ترك العدل بين الزوجات ، وترك الطاعة وفعل المعصية لأن ذلك داخل تحت الإختيار ، بل استقباح ذلك مطلوب شرعا . فالرضا بقضاء الله تعالى وقدره واجب ، لأنه ينتفي معه الإعتراض عليه تعالى ، ومع ذلك لايلزم الرضا بالمقضي فيطلب منه ما ينبغي طلبه ، ويهرب مما ينبغي الهرب منه ، كما قال رضي الله عنه .



الحكمة التاسعة

قال رضي الله عنه :

الرِّضَا بِالْقَضَاءِ يَنْتَفِيْ مَعَهُ الْإِعْتِرَاضُ عَلَى اللهِ . وَيَبْقَى مَعَهُ الطَّلَبُ لِمَا يَنْبَغِيْ أَنْ يُطْلَبَ ، وَالْهَـرَبُ مِمَّا مِنْهُ يُهْرَبُ

(الرضا بالقضاء) وهي الإرادة الأزلية المقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاص ، قال في التعريفات : والفرق بين القدر والقضاء هو أن القضاء وجود

جميع الموجودات في اللوح المحفوظ مجتمعة ، والقدر وجودها متفرقة في الأعيان بعد حصول شرائطها إهـ . والرضا بقضاء الله وقدره أمر متحتم ، وفي الحديث يقول الله تعالى : "مَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَضَائِيْ وَلَمْ يَصْبِرْ عَلَى بَلَائِيْ فَلْيَلْتَمِسْ رَبًّا سِوَايَ" رواه الطبراني عن أبي هند الداري (ينتفي معه) أي مع الرضا بالقضاء (الإعتراض على الله تعالى) فيما قضى به لأنه تصرف في ملكه كيف يشاء ، ولم يضع رحمته وحكمته إلا في موضعهما (ويبقى معه) أي مع الرضا بالقضاء (الطلب لما ينبغي أن يطلب) مما ينفعه (والهرب مما منه يهرب) مما يضره ، فمن وفقه الله تعالى لفعل ما ينبغي وترك ما لا ينبغي له فليحمده ، وإلا فلا يلومن إلا نفسه ، ولا يتخذ قضاء الله حجة في ترك الطلب والهرب . وذلك كالفقر ، والمرض ، والجهل فإنها كلها قضاء من الله تعالى ، لكن الإنسان يستطيع أن يهرب منها بالتكسب ، والمعالجة ، والتعلم . ولذا قيل : يلزم الرضا بالقضاء ولا يلزم الرضا بالمقضي . قال المناوي : قال ابن عربي رحمه الله : "لا يلزم بالرضا بالقضاء الرضا بالمقضي ، فالقضاء حكم الله وهو الذي أُمِرْنا بالرضا به ، والمقضي المحكوم به ، فلا يلزم الرضا به" إهـ . فإذا رأينا من يفعل معصية من المعاصي يجب علينا أن نرضى بما وقع منه باعتباره من قضاء الله وحكمته ، ولكن لا يجوز أن نرضى بما صدر منه باعتباره من فعله واختياره . ومثل ذلك وقوع فتنة الربا في آخر الزمان ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا أَكَلَ الرِّبَا فَإِنْ لَمْ يَأْكُلْهُ أَصَابَهُ مِنْ بُخَارِهِ" رواه أبوداود عن أبي هريرة رضي الله عنه . وفي رواية : أَصَابَهُ مِنْ غُبَارِهِ" . فعموم تعاطي الربا في آخر الزمان قضاء الله يجب الرضا به ، وليس لنا الإعتراض عليه تعالى فيه ، لكن لا يجوز لنا الرضا بالمقضي

الذي هو تعاطي الربا ، بأن نتخذه حجة في التعامل به وأكله ، بل يجب علينا الهرب منه ، وطلب التكسب بالحلال . وليس من الإعتراض على الله تعالى ومنازعة القدر نحو الفرار من الطاعون ، بل هو من منازعة القدر بالقدر كَمَا وَقَعَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حِيْنَ خَرَجَ إِلَى الشَّامِ فَسَمِعَ أَنَّ الطَّاعُوْنَ قَدْ حَلَّ بِهَا ، فَرَجَعَ وَلَمْ يَدْخُلْ ، فَقَالَ لَهُ أَبُوْ عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ : أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ الله ؟ فَقَالَ عُمَرُ : لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ ، نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ الله إِلَى قَدَرِ الله ، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ إِحْدَاهُمَا خَصْبَةٌ ، وَالْأُخْرَى جَدْبَةٌ ، أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ الله ، وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ الله ، فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وَكَانَ مُتَغَيِّبًا فِيْ بَعْضِ حَاجَتِهِ فَقَالَ : إِنَّ عِنْدِيْ فِيْ هَذَا عِلْمًا سَمِعْتُ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُوْلُ : إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوْا عَلَيْهِ ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوْا فِرَارًا مِنْهُ ، فَحَمِدَ اللهَ عُمَرُ ثُمَّ انْصَرَفَ ، وفي رواية " فَرَجَعَ وَأَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَرْجِعُوْا" أخرجه البخاري . لو غيرك إلخ : أي ممن ليس في منزلتك قالها لَأَدَّبْتُهُ لاعتراضه علي في مسألة اجتهادية وافقني عليها أكثر الناس ، وقيل : لوغيرك قالها لم أتعجَّب منه وإنما أتعجب من قولك أنت مع ما أنت عليه من العلم والفضل . عدوتان : العدوة بضم العين وكسرها جانب الوادي . خصبة : أي كثيرة العشب . جدبة : أي قليلة العشب .

⁂⁂

الحكمة العاشرة

قال رضي الله عنه :

الدُّنْيَا الْمَحْمُوْدَةُ هِيَ الَّتِيْ يَصِلُ بِهَا إِلَى فِعْلِ خَيْرٍ ، أَوْ يَنْجُوْ بِهَا مِنْ فِعْلِ شَرٍّ .

وَالدُّنْيَا الْمُبَاحَةُ هِيَ الَّتِيْ لَا يَقَعُ بِسَبَبِهَا فِيْ تَرْكِ مَأْمُوْرٍ وَلَا رُكُوْبِ مَحْظُوْرٍ ، وَالدُّنْيَا الْمَذْمُوْمَةُ عَلَى لِسَانِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، هِيَ الَّتِيْ يَقَعُ بِسَبَبِهَا فِيْ تَرْكِ طَاعَةٍ أَوْ فِعْلِ مَعْصِيَةٍ .

(الدنياالمحمودة) شرعا (هي التي يصل) الشخص (بها إلى فعل خير) يقربه إلى الله تعالى كإيتاء الزكاة وإنفاق المال في سبيل الله (أو ينجو بها من شر) يبعده عن الله تعالى كأخذ أموال الناس بالباطل ، قال الله تعالى : (وَالَّذِيْنَ فِيْ أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُوْمٌ ، لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُوْمِ) {المعارج : الآية ٢٤-٢٥} . حق معلوم : هو الزكاة . المحروم : أي المتعفف عن السؤال . وقال تعالى : (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى) {الليل : الآية ٥-٧} . فأما من أعطى : أي أعطى حق الله تعالى . واتقى : أي عقاب الله تعالى . وتقدم معنى الحسنى واليسرى في الحكمة الأولى . وعن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : "بَعَثَ إِلَيَّ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : خُذْ عَلَيْكَ ثِيَابَكَ وَسِلَاحَكَ ثُمَّ ائْتِنِيْ ، فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ فَصَعَّدَ فِيَّ النَّظَرَ ثُمَّ طَأْطَأَهُ ، فَقَالَ : إِنِّيْ أُرِيْدُ أَنْ أَبْعَثَكَ عَلَى جَيْشٍ فَيُسَلِّمَكَ اللهُ وَيُغْنِمَكَ وَأَرْغَبُ لَكَ مِنَ الْمَالِ رَغْبَةً صَالِحَةً قَالَ ، قُلْتُ : يَا رَسُوْلَ اللهِ مَا أَسْلَمْتُ مِنْ أَجْلِ الْمَالِ ، وَلَكِنِّيْ أَسْلَمْتُ رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ وَأَنْ أَكُوْنَ مَعَ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى

اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : يَا عَمْرُو نِعْمَ المَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ" رواه البخاري وأحمد . فصعد في النظر وطأطأه : أي فرفع في النظرَ وخفَّضَه . والمعنى : نظر صلى الله عليه وسلم إلى أعلاي وأسفلي . يغنمك : أي يعطيك الله الغنيمة . وعن معاذ ابن عبد الله بن خبيب عن أبيه عن عمه يسار بن عبيد الجهني قال : كُنَّا فِيْ مَجْلِسٍ فَجَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ وَعَلَى رَأْسِهِ أَثَرُ مَاءٍ . فَقَالَ لَهُ بَعْضُنَا : نَرَاكَ الْيَوْمَ طَيِّبَ النَّفْسِ فَقَالَ : أَجَلْ وَالحَمْدُ لله ، ثُمَّ أَفَاضَ الْقَوْمُ فِيْ ذِكْرِ الْغِنَى . فَقَالَ : "لَابَأْسَ بِالْغِنَى لِمَنْ اتَّقَى . وَالصِّحَّةُ لِمَنْ اتَّقَى خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى ، وَطِيْبُ النَّفْسِ مِنَ النَّعِيْمِ" أخرجه ابن ماجه . أفاض القوم : أي تحدثوا . طِيْبُ النفس : أي انشراح الصدر . وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال : "دِيْنُكَ لِمَعَادِكَ ، وَدِرْهَمُكَ لِمَعَاشِكَ ، وَلَا خَيْرَ فِي امْرِئٍ بِلَا دِرْهَمٍ" أخرجه البيهقي في شعب الإيمان . وعن عاصم بن ضمرة أنه قال : ذَمَّ رَجُلٌ الدُّنْيَا عِنْدَ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ : "الدُّنْيَا دَارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا ، وَدَارُ نَجَاةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا ، وَدَارُ غِنًى لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا ، مَهْبَطُ وَحْيِ اللهِ ، وَمُصَلَّى مَلَائِكَتِهِ ، وَمَسْجِدُ أَنْبِيَائِهِ ، وَمَتْجَرُ أَوْلِيَائِهِ ، رَبِحُوْا فِيْهَا الرَّحْمَةَ ، فَاكْتَسَبُوا فِيْهَا الجَنَّةَ ، فَمَنْ ذَا يَذُمُّهَا ؟" .

(والدنيا المباحة) شرعا (هي التي لا يقع) الشخص (بسببها في ترك مأمور) كأداء الزكاة والحج (ولا) يقع بسببها في (ركوب محظور) أي فعل محرم كالربا والإسراف ، قال الشيخ محمد حياة السندي : بأن يتمتع بما أحل الله من غير أن يقع في ترك ما فرض الله أو فعل ما حرمه الله إهـ .

(والدنيا المذمومة على لسان الكتاب) كقوله تعالى : (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) {التغابن : الآية ١٥} (والسنة) كقوله صلى الله عليه وسلم : "الدُّنْيَا مَلْعُوْنَةٌ ،

مَلْعُوْنٌ مَا فِيْهَا إِلَّا مَا ابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُ اللهِ" رواه الطبراني عن أبي الدرداء رضي الله عنه . (هي التي يقع بسببها في ترك طاعة) كترك الصلاة الواجبة (أوفعل معصية) كالغش ، ومن هذه الحكمة يتبين أن الدنيا باعتبار مسبباتها تنقسم إلى ثلاثة أقسام ، الدنيا المحمودة ، والدنياالمباحة ، و الدنيا المذمومة ، فعلى العاقل أن يعيش في هذه الدنيا على الأولى ، وهي المحمودة التي تحمله إلى سعادته في الدارين ، وهي التي تناولها الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، وإلا فعلى الثانية ، وهي المباحة لكن بنية الطاعة ، فإن المباحة تصير قربة بالنية الصالحة ، قال ابن رسلان في زبده :

لَكِنْ إِذَا نَوَى بِأَكْلِهِ الْقُوَى * لِطَاعَةِ اللهِ لَـهُ مَـا قَدْ نَوَى

وليحذرأن يعيش على الثالثة ، وهي الدنيا المذمومة لئلا تنزل عليه اللعنة فيخسر يوم القيامة . عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : "كُنَّا مَعَ أَبِيْ بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فَدَعَا بِشَرَابٍ فَأُتِيَ بِمَاءٍ وَعَسَلٍ ، فَلَمَّا أَدْنَاهُ مِنْ فِيْهِ ، بَكَى وَبَكَى ، حَتَّى أَبْكَى أَصْحَابَهُ ، فَسَكَتُوْا وَمَا سَكَتَ ، ثُمَّ عَادَ فَبَكَى حَتَّى ظَنُّوْا أَنَّهُمْ لَنْ يَقْدِرُوْا عَلَى مَسْأَلَتِهِ ، قَالَ : ثُمَّ مَسَحَ عَيْنَيْهِ فَقَالُوْا : يَا خَلِيْفَةَ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَبْكَاكَ ؟ قَالَ : كُنْتُ مَعَ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فَرَأَيْتُهُ يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ شَيْئًا ، وَلَمْ أَرَ مَعَهُ أَحَدًا فَقُلْتُ : يَا رَسُوْلَ اللهِ مَا الَّذِي تَدْفَعُ عَنْ نَفْسِكَ ؟ قَالَ : هَذِهِ الدُّنْيَا مُثِّلَتْ لِيْ ، فَقُلْتُ لَهَا : إِلَيْكِ عَنِّيْ ! ثُمَّ رَجَعَتْ فَقَالَتْ : إِنْ أَفْلَتَّ مِنِّيْ فَلَنْ يَنْفَلِتَ مِنِّيْ مَنْ بَعْدَكَ" أخرجه البيهقي والحاكم . أفلتَّ مني : أي تخلَّصْتَ مني . فلن ينفلت : أي فلن يتخلص .



الحكمة الحادية عشر

قال رضي الله عنه :

مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكْتَفِيْ بِالْإِشَارَةِ عَنِ التَّعْيِيْنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْتَاجُ إِلَى التَّصْرِيْحِ مَعَ الرِّفْقِ وَاللِّيْنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُجْدِيْ فِيْهِ إِلَّا التَّعْنِيْفُ وَالتَّخْشِيْنُ ، وَمَنْ لَمْ يَنْتَفِعْ بِذَا وَلَا بِذَاكَ ، فَهُوَ مِنَ الشَّيَاطِيْنِ ، وَهَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةِ أَمْثَالٌ مِنَ الْبَهَائِمِ .

فَمَثَلُ الْأَوَّلِ : مَثَلُ الدَّابَّةِ الْمُذَلَّلَةِ ، تَسْتَغْنِيْ عَنْ أَنْ تُلْجِمَهَا أَوْ تَضْرِبَهَا .

وَمَثَلُ الثَّانِيْ : مَثَلُ الدَّابَّةِ الَّتِيْ تَكْتَفِيْ بِالْخِطَامِ دُوْنَ الضَّرْبِ .

وَمَثَلُ الثَّالِثِ : مَثَلُ الدَّابَّةِ الَّتِيْ لَا تَسْتَقِيْمُ إِلَّا بِالضَّرْبِ وَالزَّجْرِ .

وَمَثَلُ الرَّابِعِ :مَثَلُ الدَّابَّةِ الَّتِيْ إِنْ خَطَمْتَهَا أَوْ ضَرَبْتَهَا ازْدَادَتْ نُفُوْرًا .

(من الناس) المتفاوتين في الفهم قوة وضعفا (من يكتفي) في فهم المراد (بالإشارة عن التعيين) والتصريح بالعبارة ، وذلك لجودة فهمه وذكائه . روى مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أنه كان يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ ، الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا ، وَعَقَدَ الْإِبْهَامَ فِي الثَّالِثَةِ ، أي الشهر هكذا وهكذا وهكذا ، وعقد إحدى الإبهامين في المرة الثالثة ، فصارت الجملة تسعا وعشرين ، ثُمَّ قَالَ : الشَّهْرُ هَكَذَا هَكَذَا هَكَذَا ، وَلَمْ يَعْقِدِ الْإِبْهَامَ ، فَصَارَتِ الْجُمْلَةُ ثَلَاثِيْنَ" . أمة : أي جماعة . أمية : أي باقون على ما ولدتنا عليه أمهاتنا من عدم القراءة والكتابة . لا نكتب ولا نحسب : والحكم لأهل

الإسلام الذين بحضرته عند تلك المقالة ، وهو محمول على أكثرهم ، أو المراد نفسه صلى الله عليه و سلم . قاله ابن حجر في فتح الباري (ومنهم من يحتاج) في فهمه (إلى التصريح) بالعبارة ، وذلك لضعف فهمه (مع الرفق واللين) في الخطاب ليقبل ما يسمعه . روى النسائي عن عائشة رضي الله عنها "أَنَّ امْرَأَةً سَأَلَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ : يَارَسُوْلَ اللهِ كَيْفَ أَغْتَسِلُ عِنْدَ الطُّهُوْرِ؟ قَالَ : خُذِيْ فِرْصَةً مُمَسَّكَةً فَتَوَضَّئِيْ بِهَا . قَالَتْ : كَيْفَ أَتَوَضَّأُ بِهَا ؟ قَالَ : تَوَضَّئِيْ بِهَا . قَالَتْ : كَيْفَ أَتَوَضَّأُ بِهَا ؟ قَالَتْ -أي عائشة- : ثُمَّ إِنَّ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبَّحَ وَأَعْرَضَ عَنْهَا ، فَفَطِنَتْ عَائِشَةُ لِمَا يُرِيْدُ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ : فَأَخَذْتُهَا وَجَبَذْتُهَا إِلَيَّ ، فَأَخْبَرْتُهَا بِمَا يُرِيْدُ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" . فرصة : أي قطعة نحو قطن . ممسّكة : أي مُطيَّبةً بالمسك . فتوضئي بها : أي تطهري بها . وحكي أنه وعظ المأمونَ واعظٌ بعنف ، فقال له : يا هذا ارفق ! فقد بُعِث من هو خير منك إلى من هو شرّ مني ، قال الله تعالى : (فَقُوْلَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا) {طه : الآية ٤٤} ، يعني المأمون بقوله من هو خير منك : موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام ، وبقوله من هو شر مني : فرعون . (ومنهم من لا يجدي) أي لا ينفع (فيه) لقسوة قلبه أو قلة فهمه (إلا التعنيف) أي التغليظ (والتخشين) فيُنبَّه معهما لتؤثر فيه الموعظة ويرتدع عن مخالفته ، كما في حديث الرجل الذي يتطوع في مكانه الذي صلى فيه المكتوبةَ "أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَثَبَ إِلَيْهِ ، فَأَخَذَ بِمَنْكِبِهِ ، فَهَزَّهُ ، ثُمَّ قَالَ : اجْلِسْ فَإِنَّهُ لَمْ يَهْلِكْ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ صَلَوَاتِهِمْ فَصْلٌ ، فَرَفَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَصَرَهُ ، فَقَالَ : أَصَابَ اللهُ بِكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ" رواه أبوداود . فهزه : أي فحركه بعنف . (ومن لم ينتفع

بذا) أي بالتعنيف والتخشين (ولا بذاك) أي بالرفق واللين (فهو من الشياطين) الذين لايتأثرون بكل شيء ، فهل يرضى العبد المسلم أن يكون شيطانا ؟ (ولهؤلاء الأربعة أمثال من البهائم ، فمَثل) أي صفة (الأول) وهو الذي يكتفي بالإشارة (مثل الدابة المذللة) أي المُروَّضَة المسخرة التي ذللت لمايراد منها من السير والحمل والركوب عليها (تستغني) لتسخيرها (عن أن تلجمها) أي تُلبِسها اللجامَ وهو ما يجعل في فم الفرس من الحديد (أو تضربها) بنحو سوط ، فترسلها سائرةً مُتَّجهةً جهةَ مقصدك بلا إلجام ولا ضرب لشدة تروضها وتذللها (ومثل الثاني) وهو الذي يحتاج إلى التصريح بالرفق واللين (مثل الدابة التي تكتفي بالخطام) وهوما يجعل في أنف الدابة (دون الضرب) فهي تسير إلى مقصدك مخطومة بلاضرب لتذللها (ومثل الثالث) وهو الذي يحتاج إلى التعنيف والتخشين (مثل الدابة التي لا تستقيم) في سيرها (إلا بالضرب) بنحو سوط (والزجر) بالصوت . (ومثل الرابع) وهو الذي لا يُجْدي فيه اللين ولا التخشين (مثل الدابة) الجَمُوْح (التي إن خطمتها) بالخطام أو ألجمتها باللجام (أو ضربتها) بنحو السوط (ازدادت نفورا) عن صاحبها ولا تنقاد له أبدا .



الحكمة الثانية عشر

قال رضي الله عنه :

إِنْ شِئْتَ أَنْ تَكُوْنَ حُرًّا فَاتْرُكْ كُلَّ أَمْرٍ ، إِنْ لَمْ تَتْرُكْهُ اخْتِيَارًا تَرَكْتَهُ اضْطِرَارًا .

(إن شئت أن تكون حرا) في نفسك من رق الآثار ، طليقا من أَسْر الأغيار (فاترك كل أمرٍ إن لم تتركه اختيارا تركته اضطرارا) وهي أمور الدنيا وأصحابها وشهواتها ، ولذا قال إبراهيم بن أدهم : "الْحُرُّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا " . فإذا كان الإنسان يأتَمِرُ بما أمره ربه تعالى ، وينزجر عما نهاه لأجل ما رسخ في قلبه من عبودية ربه ، وما أعد له بامتثال المأمور واجتناب المنهي من الثواب الأخروي ، فهو حر في نفسه عن رق الأغيار ، عبد للرحيم الغفار ، والحرية حقيقةً حرية القلب كما أن العبودية حقيقةً عبوديةُ القلب ، وكمال الحرية نتيجة كمال العبودية فمن صَدَقت لله عبوديتُه خلصتْ عن رق الكائنات حُرِّيتُه ، وقال بعضهم : "مَنْ أَخْلَصَ عُبُوْدِيَّتَهُ للهِ تَعَالَى وَتَرَكَ عُبُوْدِيَّةَ مَاسِوَاهُ فَهُوَ الْحُرُّ حَقِيْقَةً" . وقال بشر بن الحارث : "مَنْ أَرَادَ أَنْ يَذُوْقَ طَعْمَ الْحُرِّيَّةِ وَيَسْتَرِيْحَ مِنَ الْعُبُوْدِيَّةِ -أي لغير الله - فَلْيُطَهِّرِ السَّرِيْرَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ تَعَالَى" إهـ . أما من فعل أمرا من المأمورات لأجل الدنيا ، أو ترك شيئا من المنهيات خوفا من عقوبة شخص مثلا لاخوفا من الله تعالى فهذا ليس بحر ، بل هو عبد الدنيا وأسير العقوبة ، فإن المشتغل بشيء يصير عبدا وأسيرا له ، ومحب الدنيا يبقى قلبه في الحقيقة عبدا أسيرا لها تملكه وتستعبده ، وإن كان هوفي الظاهر مالكا لها . وقال الغزالي : من أحب شيئا طمع في تحصيله ،

ومتى طمع فيه كان عبدَه، فمن أحب الدنيا استعبدته، ومن أحب الله صار عبدَه، ومن صار عبده صار حرا مما سواه، خدمته الأكوان وأطاعه الإنس والجان، لأن من أطاع الله أطاعه كل شيء، ومن أحب الله ولم يخدمه بأداء الفرائض استخدمه الشيطان إهـ . ومن تعلق قلبه بالمخلوقين أطاع لهم وخضع لهواهم يحكمون ويتصرفون فيه بما يريدون، فالحر هو حاكم نفسه، ولا يجعل غيره حاكما فيه .

ولذا ينبغي للعاقل أن يحذر من الإعتداء على الآخر بقول أو فعل، فيحتاج به إلى الإعتذار إليه، فيقع في أسره، بل ربما يحكم الآخر ويتصرف فيه بما شاء، قال صلى الله عليه وسلم : "إِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ" أخرجه الحاكم في المستدرك من حديث سعد بن أبي وقاص مرفوعا . إياك وما يعتذر منه : أي احذر فعل ما يُحْوِجك إلى الإعتذار . وأخرج البخاري في تاريخه عن سعد بن عمارة الأنصاري موقوفا : "انْظُرْ إِلَى مَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ فَاجْتَنِبْهُ" والمعنى : اجتنِبْ من أن تعتدي على غيرك بقول أوفعل تحتاج بعد ذلك إلى أن تقدم له عذرًا، قال بعضهم : "ثلاثة من أعلام الكمال : وزن الكلام قبل التفوُّه به، ومجانبة ما يحوج إلى الإعتذار، وترك إجابة السفيه حلما عنه" . قال المناوي في التيسير في شرح حديث "إِيَّاكَ وَكُلَّ أَمرٍ يُعْتَذَرُ مِنْهُ" : أي احذر أن تتكلم بما يحتاج أن تعتذر عنه، وفيه شاهد لما ذكره بعض سلفنا الصوفية : أنه لا ينبغي الدخول في مواضع التُّهَم، ومن ملك نفسه خاف من مواضع التهم أكثرَ من خوفه من وجود الألم، فإن دخولها يوجب سقم القلب كما توجب الأغذية الفاسدة سقم البدن، وسقم البدن أطباؤه كثير، بخلاف سقم القلب، فإياك والدخول على الظَلَمة، وقد رأى العارف أبو هاشم عالما خارجا من بيت القاضي فقال له : نعوذ بالله من علم لا ينفع إهـ .

الحكمة الثالثة عشر

قال رضي الله عنه :

مَا عُرِفَ قَدْرُ الشَّيْءِ بِمِثْلِ ضِدِّهِ ، وَلَا تَسَلَّى الْمُصَابُ بِمِثْلِ ذِكْرِ مَنْ أُصِيْبَ بِمِثْلِ مُصِيْبَتِهِ .

(ماعرف قدرالشيء بمثل ضده) فلايعرف قدر نعمة الله تعالى إلا من ابتلي بفقدها، ولا يعرف قيمة العافية إلا من ابتلي بالمرض ، ولا يعرف قدر الغنى إلا من ابتلي بالفقر ، ولا يعرف فضل النور إلا من عرف الظلام ، وهكذا . قالوا : "وَبِضِدِّهَا تَتَمَيَّزُ الْأَشْيَاءُ" (ولا تَسلَّى المصاب) يقال : سَلوْتُ عن كذا وتسليتُ إذا زالت عنك محبته ، والتسلية تخفيف مافي النفس من الحزن والجزع ، والمصاب من أصابته مصيبة (بمثل ذكر من أصيب بمثل مصيبته) كما قالوا : "إِنَّ الْمُصِيْبَةَ إِذَا عَمَّتْ هَانَتْ وَإِذَا اخْتَصَّتْ ثَقُلَتْ" . وقد أنزل الله تعالى في القرآن آيات كثيرة في تسلية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بذكر ما أصاب إخوانه صلى الله عليه وسلم من الأنبياء والمرسلين قبله ، منها قوله تعالى : (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِيْنَ سَخِرُوْا مِنْهُمْ مَا كَانُوْا بِهِ يَسْتَهْزِؤُوْنَ) {الأنعام : الآية ١٠} . فحاق : أي نزل . ما كانوا يستهزئون : وهو العذاب . وقوله تعالى : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا) { يونس : الآية ٩٩} وقوله تعالى : (وَإِنْ يُكَذِّبُوْكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُوْرُ) {فاطر : الآية ٤} وغيرها . وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لَمَّا قَسَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَنَائِمَ حُنَيْنٍ ، سَمِعْتُ رَجُلًا يَقُوْلُ : إِنَّ هَذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا أُرِيْدَ بِهَا اللهُ ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ : "رَحْمَةُ اللهِ عَلَى مُوْسَى قَدْ أُوْذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ". فعلى المصاب بمصيبة أن يصبر على ما أصابه منها ، ويذكر من أصيب بمثل مصيبته ليتسلى عن ألم مصيبته سريعا ، كما فعل سبحانه وتعالى بحبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وليعلم أن الله تعالى لا يبتليه ببلية إلا ليمتحن صبره ورضاه بقضائه وقدره ، وأنه لا يصيبه بمصيبة إلا أراد به خيرا ، وأن أصحاب المصائب إذا صبروا بُشِّروا بالأجر العظيم يوم القيامة . قال تعالى : (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُوْنَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) {الزمر : الآية ١٠} . وقال صلى الله عليه وسلم : "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ" أخرجه مسلم وأحمد عن صهيب رضي الله عنه . وقال صلى الله عليه وسلم : "مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ" أخرجه البخاري وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : "مَا أُصِبْتُ بِمُصِيْبَةٍ إِلَّا كَانَ للهِ عَلَيَّ فِيْهَا أَرْبَعُ نِعَمٍ : أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ فِيْ دِيْنِيْ ، وَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ أَكْبَرَ مِنْهَا ، وَأَنَّنِيْ لَمْ أُحْرَمِ الرِّضَا عِنْدَ نُزُوْلِهَا ، وَأَنَّنِيْ أَرْجُوْ ثَوَابَ اللهِ عَلَيْهَا". فقد رأى في المصيبة الواحدة نعما كثيرة ، وأنها ليست بمصيبة بل كانت عنده نعمةً ، رضي الله عنه وأرضاه .

حكاية : ذكر العتبي أنه كان ماشيا في شوارع البصرة ، وإذا امرأة من أجمل النساء وأظرفهن تلاعب شيخا سمجا قبيحا ، وكلما كلمها ضحكت في وجهه ، فدنوتُ منها وقلت لها : من يكون هذا منكِ ؟ فقالت : هو زوجي ، فقلت لها : كيف تصبرين على سماجته وقبحه مع حسنكِ وجمالكِ ؟ إن هذا من العجب ، فقالت : يا هذا لعله رُزِقَ مثلي فشكر، وأنا رُزِقتُ مثله فصبرت ، والشَّكُور والصَّبُور من

أهل الجنة ، أفلا أرضى بما قسم الله لي ! فأعجزني جوابها فمضيتُ وتركتها .

سمْجا : أي قبيحا . حكاية : طلب رجل من زوجته ماء فجاءته به ، فوجدته قد نام ، فقامت عند رأسه إلى طلوع الفجر ، فلما استيقظ ورآها عند رأسه أعجبه ذلك منها ، فأراد إكرامها فقال لها : تمنَّيْ علي ! فقالت : طلِّقني ! فكره ذلك منها ، قالت : إن أردتَ مكافأتي فطلقني ، فانطلَقا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فعثر في الطريق ، فانكسرت رجلُه فقالت : ارجع فلا سبيل إلى طلاقكَ ، لأنك حدثتني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ" ولك عندي كذا وكذا سنة لم يصبك ، فعلمتُ أن الله تعالى لا يحبك ، فلما أصابك هذا عرفتُ أن الله قد أحبك . وذكر الغزالي في الإحياء : أن عمار بن ياسر رضي الله عنه تزوج امرأة فلم تمَرَضْ فطلَّقها ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يتزوج بامرأة جميلة فقيل : إنها لم تمرض فأعرض عنها .



الحكمة الرابعة عشر

قال رضي الله عنه :

مَنْ أَشْغَلَهُ حَقُّ رَبِّهِ عَنْ حُقُوْقِ نَفْسِهِ وَحُقوْقِ إِخْوَانِهِ ، فَهُوَ عَبْدُ الْحَضْرَةِ .

وَمَنْ أَشْغَلَهُ الْقِيَامُ بِحَقِّ نَفْسِهِ عَنِ الْقِيَامِ بِحَقِّ رَبِّهِ وَحَقِّ إِخْوَانِهِ ، فَهُوَ عَبْدُ الشَّهْوَةِ .

وَمَنْ أَشْغَلَـهُ الْقِيَامُ بِحُقُوْقِ إِخْوَانِهِ عَنِ الْقِيَامِ بِحُقُوْقِ رَبِّهِ وَحُقُوْقِ نَفْسِهِ ،

فَهُوَ عَبْدُ الرِّيَاسَةِ .

وَمَنْ أَشْغَلَهُ الْقِيَامُ بِحُقُوْقِ رَبِّهِ وَحُقُوْقِ إِخْوَانِهِ عَنِ الْقِيَامِ بِحُقُوْقِ نَفْسِهِ ، فَهُوَ صَاحِبُ وِرَاثَةٍ .

(من أشغله حق ربه عن حقوق نفسه وحقوق إخوانه ، فهو عبد الحضرة) الإلهية ، وهو مشغول بحق ربه فانٍ في شهوده ، لا يزال مع ربه في كل أحواله ، يقدمه على كل محبوب ومرغوب ، و يقدم مراده تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم على مراد نفسه ، ولا يرى شيئا سوى محبوبه ومعبوده . قال الشيخ محمد حياة السندي : وهو معذور في هذه الحالة في تقصيره في حقوق نفسه ، وحقوق إخوانه لكونه مسلوب اللب عما سوى معبوده إهـ . (ومن أشغله القيام بحق نفسه عن القيام بحق ربه وحق إخوانه ، فهو عبد الشهوة) الذي لا يستطيع مخالفتها ، وهومشغول بشهوته العاجلة عن الآجلة ، وينسى حق ربه فيعصيه ، وحق إخوانه فيضيعه ، ويجني على دينه فيخسر دنياه وآخرته . قيل : "عَبْدُ الشَّهْوَةِ أَذَلُّ مِنْ عَبْدِ الرِّقِّ" . قال النبي صلى الله عليه وسلم "تَعِسَ عَبْدُ الدِّيْنَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيْصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيْكَ فَلَا انْتَقَشَ" أخرجه البخاري . تعس : أي خسر . الخميصة : هي ثوب أسود أو أحمر لـه أعلام ، والمراد هنا مطلق اللباس . انتكس : أي انقلب على رأسه ، ومعناه خاب وخسر . وإذا شيك فلا انتقش : أي إذا شاكته شوكة فلا يقدر على انتقاشها وهو إخراجها بالمنقاش . والمـراد أنه يعسر عليه الأمور . (ومن أشغلـه القيام بحقوق إخوانه عن القيام بحقوق ربه وحقوق نفسه ، فهو عبد الرياسة) الذي يحب تقديم ما

يرفع نفسه ، ويوجب شهرته عند الناس ، وإن أدى ذلك إلى تضييع حقوق ربه كالصلاة ، وحقوق نفسه الواجبة عليه كترك إنفاق من يمونه ، وهو يحب العلو في الأرض ، ومدح الإخوان ، وتقديمهم له في المحافل ، تلتذ نفسه بذلك أعظم اللذات ، ولم تعتقد باطلاع الخالق خفي شهواته . عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :"بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يُشَارَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ فِيْ دِيْنٍ أَوْ دُنْيَا إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ" رواه الترمذي .

وعن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُشَارَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ ، قَالُوْا : يَا رَسُوْلَ اللهِ ، وَإِنْ كَانَ خَيْرًا ؟ قَالَ : وَإِنْ كَانَ خَيْرًا ، فَهِيَ مَزَلَّةٌ إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ اللهُ ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا فَهُوَ شَرٌّ" رواه البيهقي . مزلة : أي موضع تنزلق فيه القدم . قال في الإحياء : قد ذكر الحسن للحديث تأويلا لا بأس به ، وهو أنه لما رواه قيل له : إن الناس إذا رأوك أشاروا إليك بالأصابع ، فقال : إنه لم يُعنَ هذا ، إنما عُني به المبتدِعُ في دينه والفاسقُ في دنياه إهـ . وقد يكون بعض العارفين له حالةٌ من الأحوال ، ومعاملةٌ كانت سرا بينه وبين ربه ، فاطُّلِع على حالتِه ، فدعا الله تعالى أن يَقبضه خوفا من فتنة الشهرة .

(ومن أشغله القيام بحقوق ربه وحقوق إخوانه عن القيام بحقوق نفسه ، فهو صاحب وراثة) نبوية وأُخْرَوية ، وهو الذي يرث جنة الفردوس ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما ظفِر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بأموال بني النضير ، قال للأنصار : "إِنْ شِئْتُمْ قَسَمْتُمْ لِلْمُهَاجِرِيْنَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ وَدِيَارِكُمْ ، وَشَارَكْتُمُوْهُمْ فِيْ هَذِهِ الْغَنِيْمَةِ ، وَإِنْ شِئْتُمْ كَانَتْ لَكُمْ دِيَارُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ ، وَلَمْ يُقْسَمْ لَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْغَنِيْمَةِ ، فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ : بَلْ نَقْسِمُ لَهُمْ مِنْ دِيَارِنَا وَأَمْوَالِنَا ، وَنُؤْثِرُهُمْ بِالْغَنِيْمَةِ ،

وَلَا نُشَارِكُهُمْ فِيْهَا ، فَنَزَلَتْ : (وَالَّذِيْنَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيْمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّوْنَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُوْنَ فِيْ صُدُوْرِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوْتُوْا وَيُؤْثِرُوْنَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوْقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ) {الحشر : الآية ٩} .

والذين تبوءوا الدار : أي والأنصار الذين توطنوا الدار أي المدينة . والإيمان : أي أَلِفُوْه . حاجة : أي حسدا . خصاصةٌ : أي حاجة وفاقة . ومن يوق شح نفسه : أي يَقِهِ اللهُ حرص نفسه على المال . وقال تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُوْنَ الَّذِيْنَ هُمْ فِيْ صَلَاتِهِمْ خَاشِعُوْنَ)ـ إلى قوله : ـ (وَالَّذِيْنَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُوْنَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُوْنَ الَّذِيْنَ يَرِثُوْنَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ) {المؤمنون : الآية ١-١١} .

ومن أشغله القيام بجميع الحقوق المذكورة فهو صاحب الكمال الدنيوي والأخروي، وهذا أعلى المقامات، ولا يفوز به إلا من اختاره الله لذلك .

* * * * * * * * *

الحكمة الخامسة عشر

قال رضي الله عنه :

عَجَبًا لِمَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيَا وَهُوَ مِنْ تَحْصِيْلِهَا عَلَى وَهْمٍ ، وَمِنَ الْإِنْتِفَاعِ بِمَا حَصَّلَهُ مِنْهَا عَلَى شَكٍّ . وَمِنْ تَرْكِهَا وَالْخُرُوْجِ مِنْهَا عَلَى يَقِيْنٍ .

(عجبًا لمن يطلب الدنيا) الحقيرة التي لا تساوي عند الله جناح بعوضة ، ومن أعظم الجنايات تعظيم ما حقره الله . عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوْضَةٍ مَا

سَقَى مِنْهَا كَافِرًا شَرْبَةَ مَاءٍ" رواه الترمذي . وعن جابر رضي الله عنه : " أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِالسُّوْقِ دَاخِلًا مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ ، وَالنَّاسُ كَنَفَتَيْهِ ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ثُمَّ قَالَ : أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَكُوْنَ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ ؟ فَقَالُوْا : مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ ؟ ثُمَّ قَالَ : أَتُحِبُّوْنَ أَنَّهُ لَكُمْ ؟ قَالُوْا : وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا ، إِنَّهُ أَسَكُّ ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ ؟ فَقَالَ : فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ" رواه مسلم . بعض العالية : واحدة العوالي ، وهي أماكن بأعلى أراضي المدينة ، أدناها من المدينة على أربعة أميال ، وأبعدها من جهة نجد ثمانية أميال كما قاله ابن الأثير . كنفتيه : أي جانبيه . الجدي : أي ولد المعز . أسك : أي صغير الأذنين . (وهو من تحصيلها على وهم) أي تردد يحتمل التحصيل وعدمه ، فكم من حريص جمعها ليله ونهاره حتى يُنْهِك صحته ويضيِّع فرائضه لا يعود إلى بيته إلا بما قسم له . فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِيْ قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ" رواه الترمذي . جمع له شمله : أي جمع له ما تفرق من أمره . راغمة : أي ذليلة تابعة له . فرق عليه شمله : أي فرق ما اجتمع عليه من أمره . (ومن الإنتفاع بما حصله منها) أي من الدنيا (على شك) المراد به مطلق التردد فيشمل الظن ، فكم ممن رزقه الله بأموال هائلة اخترمته المنية أثناء التحصيل ، فلا ينتفع بها بل يتمتع بها غيره من كده وتعبه .

قال بعضهم :

كَمْ عَامِرٍ دَارًا لِيَسْكُنَ ظِلَّهَا * سَكَنَ الْقُبُوْرَ وَدَارُهُ لَنْ يَسْكُنَا

(ومِن تركِها) أي الدنيا (والخروجِ منها على يقين) إذ كل نفسٍ ذائقة الموت ، وكلٌ يتيقن أنه لا يخلّد فيها ، وأنه سيتركها ويتحول إلى دار لا ينفع فيها مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، قال تعالى : (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُوْنَ){الأنبياء : الآية ٣٤} ولكن حلوة الدنيا تجعل عشاقها يتكالبون عليها ، ويقتتلون لأجلها فتوردهم المهلكة ، شأنهم غفلة الموت وطول الأمل . فعن الحسن قال : "لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ وَذُرِّيَّتَهُ ، قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ : إِنَّ الْأَرْضَ لَا تَسَعُهُمْ ، فَقَالَ : إِنِّيْ جَاعِلٌ مَوْتًا ، قَالُوْا : إِذًا لَا يُهَنِّئُهُمُ الْعَيْشُ ، قَالَ : إِنِّيْ جَاعِلٌ أَمَلًا" رواه ابن أبي شيبة . وعن علقمة عن عبد الله رضي الله عنه قال : "نَامَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حَصِيْرٍ ، فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِيْ جَنْبِهِ ، فَقُلْنَا : يَارَسُوْلَ اللهِ لَوِ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً ، فَقَالَ : مَا لِيْ وَلِلدُّنْيَا مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا " رواه الترمذي . وطاء : أي فراشا تطؤه وتنام عليه .

✦✦✦✦✦✦✦✦✦

الحكمة السادسة عشر

قال رضي الله عنه :

مَنْ تَعَوَّدَ نَقْضَ الْعَزَائِمِ حِيْلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْغَنَائِمِ .

(من تعود) يقال : تعوَّد الشيءَ ، جعله من عادته (نقض العزائم) جمع عزيمة وهي القصد المؤكد ، والقوة ، والهمة (حِيل بينه وبين الغنائم) الربانية ، يعني : أن صاحب العزيمة والهمة القوية الذي أعطي قوة على الطاعة إذا انتهز فرصته الثمينة ، فقام بها على طاعة ربه ، فسيفوز بمقصوده وما أعد له من الغنائم التي

تقر بها عينه ، وأما الذي يترخص بنقض عزيمته السنية أو تسويف عمله الصالح فلا ينجح بمقصوده ، ويحجب بينه وبين ما يرجوه ويأمله ، وهو الذي حيل بينه وبين الغنائم ، من طمأنينة القلب في الدنيا والثواب الجزيل والنعم الأبدية في الآخرة . فاحرص أيها العاقل لا سيما الشاب القوي على فعل الخيرات قبل مرور الأوقات ، وانتهز فرصتك الثمينة التي أمامك ، فإن الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك ، ولا تهدر وقت شبابك وقوتك وكمال عقلك ، فإنها إذا مرت وانقضت لا تعود أبدا . قال الراجز :

لَيْتَ وَهَلْ يَنْفَعُ شَيْئًا لَيْتُ * لَيْتَ شَبَابًا بُوْعَ فَاشْتَرَيْتُ

قال ابن مسعود رضي الله عنه : "إِنِّيْ لَأَمْقُتُ الرَّجُلَ أَنْ أَرَاهُ فَارِغًا لَيْسَ فِيْ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِ الدُّنْيَا وَلَا الْآخِرَةِ" . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : "اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ يَعْمَلَانِ فِيْكَ فَاعْمَلْ فِيْهِمَا" . وقال الشافعي رحمه الله تعالى : "صَحِبْتُ الصُّوْفِيَّةَ فَلَمْ أَسْتَفِدْ سِوَى حَرْفَيْنِ أَحَدُهُمَا : قَوْلُهُمْ : الْوَقْتُ سَيْفٌ ، فَإِنْ لَمْ تَقْطَعْهُ قَطَعَكَ ، وَنَفْسُكَ إِن شَغَلْتَهَا بِالْحَقِّ ، وَإِلَّا شَغَلَتْكَ بِالْبَاطِلِ" . سوى حرفين : أي سوى كلمتين . إحداهما قولهم : الوقت سيف إلخ . والكلمة الأخرى هي قولهم : نفسك إن شغلتها إلخ . وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى : "إِنَّمَا أَنْتَ أَيَّامٌ فَإِذَا ذَهَبَ يَوْمٌ ذَهَبَ بَعْضُكَ" . وقالت السيدة حفصة بنت سيرين رحمها الله تعالى : "خُذُوْا مِنْ أَنْفُسِكُمْ وَأَنْتُمْ شَبَابٌ ، فَإِنِّي مَا رَأَيْتُ الْعَمَلَ إِلَّا فِي الشَّبَابِ" . وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى : "إِيَّاكَ وَالتَّسْوِيْفَ فَإِنَّكَ بِيَوْمِكَ وَلَسْتَ بِغَدِكَ ، فَإِنْ يَكُنْ غَدٌ لَكَ فَكُنْ فِيْ غَدٍ كَمَا كُنْتَ فِي الْيَوْمِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ غَدٌ لَمْ تَنْدَمْ عَلَى مَا

فَرَّطْتَ فِي الْيَوْمِ" . وقال أيضا : "يَا مَعْشَرَ الشُّيُوْخِ مَا بَالُ الزَّرْعِ إِذَا بَلَغَ ، قَالُوْا : الْحَصَادُ ، ثُمَّ قَالَ : يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ إِنَّ الزَّرْعَ قَدْ تَبْلُغُهُ الْعَاهَةُ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ" .

قال الشاعر :

تَزَوَّدْ مِنَ التَّقْوَى فَإِنَّكَ لَا تَدْرِيْ * إِذَا جَنَّ لَيْلٌ هَلْ تَعِيْشُ إِلَى الْفَجْرِ
فَكَمْ مِنْ صَحِيْحٍ مَاتَ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ * وَكَمْ مِنْ عَلِيْلٍ عَاشَ حِيْنًا مِنَ الدَّهْرِ
وَكَمْ مِنْ صِغَارٍ يُرْتَجَى طُوْلُ عُمْرِهِمْ * وَقَدْ دَخَلَتْ أَجْسَادُهُمْ ظُلْمَةَ الْقَبْرِ
وَكَمْ مِنْ فَتًى يُمْسِيْ وَيُصْبِحُ لَاهِيًا * وَقَدْ نُسِجَتْ أَكْفَانُهُ وَهْوَ لَا يَدْرِيْ

✦✦✦✦✦✦

الحكمة السابعة عشر

قال رضي الله عنه :

إِذَا دَعَتْكَ نَفْسُكَ إِلَى شَهْوَةٍ ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَقُوْلَ أُجِيْبُهَا فِيْ هَذِهِ ، وَأُفَرِّغُ الْقَلْبَ مِنْ مُطَالَبَتِهَا ، فَإِنَّكَ إِنْ أَجَبْتَهَا إِلَيْهَا دَعَتْكَ إِلَى أَعْظَمَ مِنْهَا .

(إذا دعتك نفسك) الأمارة بالسوء المجبولة على حب الشهوات والحظوظ الدنيوية (إلى شهوة) من شهواتها المردية (فإياك أن تقول) في سرك (أجيبها) أي النفس (في هذه) الشهوة (وأفرغ) أي أُخلي (القلب من مطالبتها) أي الشهوة (فإنك إن أجبتها) أي النفس (إليها) أي إلى تلك الشهوة (دعتك) نفسك (إلى أعظم منها) أي من تلك الشهوة ، فلا تقِفُ نفسُك عندها بل تعبث بك حتى ترديك إلى مهاوي الخزي والهوان ، فاقهر أيها العاقل نفسك الخداعة ، وجاهدها

ما أمكنك ، واقمعها عن شهواتها ، وسد طرق الشيطان عنها ، واقلع مكايده وأعوانه من جميع أجزائها ، حتى تتحرر من رق الهوى ، وسلطان الشيطان والشهوة ، وتكون سعيدا في الدنيا والآخرة . قال الحافظ في الفتح : فأما مجاهدة النفس فعلى تعلم أمور الدين ، ثم على العمل بها ، ثم على تعليمها ، وأما مجاهدة الشيطان فعلى دفع ما يأتي به من الشبهات ، وما يزينه من الشهوات ، وأما مجاهدة الكفار فتقع باليد والمال واللسان والقلب ، وأما مجاهدة الفساق فباليد ثم اللسان ثم القلب إهـ . ومجاهدة النفس أشد من مجاهدة العدو لأنه صلى الله عليه و سلم جعل الذي يملك نفسه عند الغضب أعظم الناس قوة . قال صلى الله عليه وسلم : "لَيْسَ الشَّدِيْدُ بِالصُّرَعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيْدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ" رواه البخاري وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه . الصرعة : الرجل الذي يَصرع الناس لقوته . وهذا هو الجهاد الأكبر كما في الحديث الذي رواه البيهقي والخطيب عن جابر رضي الله عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم : "قَدِمْتُمْ خَيْرَ مَقْدَمٍ وَقَدِمْتُمْ مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ مُجَاهَدَةِ الْعَبْدِ هَوَاهُ" أي جئتم من جهاد العدوّ إلى جهاد النفس . وعن فَضالة بن عبيد رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "اَلْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ لله" رواه أبو بكر بن أبي شيبة والنسائي ، وابن حبان في صحيحه . وفي رواية الطبراني والحاكم من حديث فضالة أيضًا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حجة الوداع : "ثُمَّ أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِـهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُوْنَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِيْ طَاعَةِ الله" . وعن حنان ابن خارجة قال : قلتُ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : "كَيْفَ

تَقُوْلُ بِالْجِهَادِ وَالْغَزْوِ ؟ قَالَ : ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَجَاهِدْهَا ، وَابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَاغْزُهَا ، فَإِنَّكَ إِنْ قُتِلْتَ فَارًّا بَعَثَكَ اللهُ فَارًّا ، وَإِنْ قُتِلْتَ مُرَائِيًا بَعَثَكَ اللهُ مُرَائِيًا ، وَإِنْ قُتِلْتَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا بَعَثَكَ اللهُ صَابِرًا مُحْتَسِبًا" رواه ابن أبي الدنيا . قال الشاعر :

إِذَا مَا دَعَتْكَ النَّفْسُ يَوْمًا لِشَهْوَةٍ * وَكَانَ عَلَيْهَا لِلْخِلَافِ طَرِيْقُ

فَخَالِفْ هَوَاهَا مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّمَا * هَوَاهَا عَدُوٌّ وَالْخِلَافُ صَدِيْقُ

قال الغزالي : شهوة النفس أضر الأعداء ، وبلاؤها أصعب البلاء ، وعلاجها أعسر الأشياء ، وداؤها أعضل الداء ، فإنها عدوٌّ مِن داخل ، واللص إذا كان من داخل البيت عزت الحيلة في دفعه ، وهي عدو محبوب ، والإنسان أعمى من عيب محبوبه ، وإذا نظرت وجدت أصل كل فتنة وفضيحة وخزي وهلاك وآفة وما وقع في خَلْقِ الله من أول الخَلْقِ إلى يوم القيامة من قِبَلِ النفس إهـ .

✦✦✦✦✦✦✦✦

الحكمة الثامنة عشر

قال رضي الله عنه :

لَايَبْلُغُ الْعَبْدُ حَقِيْقَةَ الْإِيْمَانِ حَتَّى يَجِدَ فِيْ مُعَامَلَةِ الْحَقِّ مَا يَجِدُ أَهْلُ الشَّهَوَاتِ فِيْ شَهَوَاتِهِمْ مِنَ اللَّذَّةِ وَالْحَلَاوَةِ .

(لايبلغ العبد) المؤمن (حقيقة الإيمان حتى يجد في معاملة الحق) تعالى أي في طاعته (ما يجد أهل الشهوات في شهواتهم من اللذة والحلاوة) فالمؤمن حقا يجد في الأعمال الدنيوية تعبا ، ويجد في عبادته لذة كما يجد الجائع لذة الطعام ،

والعطشان حلاوة الشراب ، ولا يحس فيها بالتعب والكد ، ولا يشعر بالسآمة والملل ، بل لا يتأثر بالألم الذي أصابه من لذة المعاملة بربه . قال صلى الله عليه وسلم : "حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ النِّسَاءُ وَالطِّيْبُ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِيْ فِي الصَّلَاةِ" رواه أحمد ، والنسائي ، والحاكم ، والبيهقي ، عن أنس رضي الله عنه .

وقال صلى الله عليه وسلم : "يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا " رواه أبوداود . أي أذِّنْ بالصلاة يا بلال نسترِحْ بأدائها من شغل القلب . وروي "أَنَّهُ دَخَلَ ضِرَارُ بْنُ ضَمْرَةَ الْكِنَانِيُّ عَلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِيْ سُفْيَانَ فَقَالَ لَهُ : صِفْ لِيْ عَلِيًّا ؟ فَقَالَ : أَوَتُعْفِيْنِي يَاأَمِيرَ الْمُؤْمِنِيْنَ ؟ قَالَ : لَا أُعْفِيْكَ ، قَالَ : أَمَّا إِذْ وَلَا بُدَّ ، فَإِنَّهُ كَانَ وَاللهِ بَعِيْدَ الْمَدَى ، شَدِيْدَ الْقُوَى ، يَقُوْلُ فَصْلًا ، وَيَحْكُمُ عَدْلًا ، يَتَفَجَّرُ الْعِلْمُ مِنْ جَوَانِبِهِ ، وَتَنْطِقُ الْحِكْمَةُ مِنْ نَوَاحِيْهِ ، يَسْتَوْحِشُ مِنَ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا ، وَيَسْتَأْنِسُ بِاللَّيْلِ وَظُلْمَتِهِ ، كَانَ وَاللهِ غَزِيْرَ الْعَبْرَةِ ، طَوِيْلَ الْفِكْرَةِ ، يُقَلِّبُ كَفَّهُ وَيُخَاطِبُ نَفْسَهُ ، يُعْجِبُهُ مِنَ اللِّبَاسِ مَا قَصُرَ، وَمِنَ الطَّعَامِ مَا خَشُنَ ، كَانَ وَاللهِ كَأَحَدِنَا يُدْنِيْنَا إِذَا أَتَيْنَاهُ ، وَيُجِيْبُنَا إِذَا سَأَلْنَاهُ ، وَكَانَ مَعَ تَقَرُّبِهِ إِلَيْنَا وَقُرْبِهِ مِنَّا لَا نُكَلِّمُهُ هَيْبَةً لَهُ ، فَإِنْ تَبَسَّمَ فَعَنْ مِثْلِ اللُّؤْلُؤِ الْمَنْظُوْمِ ، يُعَظِّمُ أَهْلَ الدِّيْنِ ، وَيُحِبُّ الْمَسَاكِيْنَ ، لَا يَطْمَعُ الْقَوِيُّ فِيْ بَاطِلِهِ ، وَلَا يَيْأَسُ الضَّعِيفُ مِنْ عَدْلِهِ ، فَأَشْهَدُ بِاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُهُ فِيْ بَعْضِ مَوَاقِفِهِ ، وَقَدْ أَرْخَى اللَّيْلُ سُدُوْلَهُ ، وَغَارَتْ نُجُوْمُهُ ، يَمِيْلُ فِيْ مِحْرَابِهِ قَابِضًا عَلَى لِحْيَتِهِ ، يَتَمَلْمَلُ تَمَلْمُلَ السَّلِيْمِ ، وَيَبْكِيْ بُكَاءَ الْحَزِيْنِ ، وَيَقُوْلُ لِلدُّنْيَا : "أَلِيْ تَعَرَّضْتِ؟ أَلِيْ تَشَوَّفْتِ؟ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ، غُرِّيْ غَيْرِيْ ، قَدْ بَايَنْتُكِ ثَلَاثًا ، فَعُمْرُكِ قَصِيْرٌ ، وَمَجْلِسُكِ حَقِيْرٌ ، وَخَطَرُكِ يَسِيْرٌ ، آهْ آهْ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ وَبُعْدِ السَّفَرِ وَوَحْشَةِ الطَّرِيْقِ" . فَوَكَفَتْ دُمُوْعُ مُعَاوِيَةَ عَلَى لِحْيَتِهِ مَا يَمْلِكُهَا ، وَجَعَلَ يُنَشِّفُهَا بِكُمِّهِ ، وَقَدِ

اخْتَنَقَ الْقَوْمُ بِالْبُكَاءِ . ثُمَّ قَالَ مُعَاوِيَةُ : رَحِمَ اللهُ تَعَالَى أَبَا الْحَسَنِ ، كَانَ وَاللهِ كَذَلِكَ ، فَكَيْفَ حُزْنُكَ عَلَيْهِ يَا ضِرَارُ ؟ فَقَالَ : حُزْنُ مَنْ ذُبِحَ وَلَدُهَا فِيْ حِجْرِهَا فَلَا تَرْقَأُ عَبْرَتُهَا وَلَا يَسْكُنُ حُزْنُهَا" . تعفيني : أي تتركني . بعيد المَدَى : بعيد الغاية أي واسع العلوم لا تدرك غايتها . شديد القُوَى : أي شديد القوة في نصرة الله ودينه . غزير العَبرة : أي كثير الدمعة . يقلب كفه : كناية عن تحسره وحزنه على ما مضى وفات من الخير . ويخاطب نفسه : أي بما يزعجها لتنقاد وتخضع . يتململ : أي يضطرب . تململ السليم : أي اضطراب الملدوغ . تشوفت : أي اطلعتِ . قد باينتُكِ ثلاثا : أي طلقتك ثلاثا . وخطرك يسير : أي قدرك ومنزلتك يسير . فوكفت : أي سالت . في حجرها : أي في حفظها وكنفتها وبين يديها . فلا ترقأ : أي فلا تنقطع . وجاء في حديث أخرجه أبوداود في باب الوضوء من الدم معناه : "أَنَّ عَبَّادَ بْنَ بِشْرٍ وَعَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا كَانَا يَحْرُسَانِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِيْنَمَا نَزَلَ مَنْزِلًا مَرْجِعَهُ مِنْ غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ ، فَاضْطَجَعَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ ، وَقَامَ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ يُصَلِّيْ ، فَرَأَى مُشْرِكٌ شَخْصَهُ فَرَمَاهُ بِسَهْمٍ مِنْ بُعْدٍ ، فَنَزَعَهُ مِنْ جَسَدِهِ حَتَّى رَمَاهُ الْمُشْرِكُ بِثَلَاثَةِ أَسْهُمٍ ، وَسَالَتْ دِمَاؤُهُ ، فَلَمْ يَقْطَعْ صَلَاتَهُ لِاشْتِغَالِهِ بِحَلَاوَتِهَا ، وَلَذَّةِ الْمُنَاجَاةِ بِرَبِّهِ عَنْ مَرَارَةِ أَلَمِ الْجُرْحِ" . وحكي عن بعض السلف وهو عروة بن الزبير رضي الله عنهما لما أصابته الآكلة في رجله ، فأرادوا أن يقطعوا القدم الذي خرجت فيه لئلا تتعدى لجميع بدنه ، فكان يأبى عليهم ذلك ، فقالت لهم زوجته : إنكم لا تقدرون على ذلك إلا أن يكون في الصلاة ، فلما أن كان في الصلاة حضروا فقطعوها له ، فلما فرغ من صلاته رآهم مُحْدِقين به ، فقال لهم : أتريدون أن تقطعوا لي غير هذه المرة إن شاء الله تعالى ، فقالوا له : هو ذا ،

فقال : واللهِ ما شعُرتُ بكم . وروي عن الإمام علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم : أنه كان في سجوده فوقع في داره حريق ، فلم ينصرف عن صلاته ، فقيل له في ذلك ، فقال : شغلَتْني النارُ الكبرى عن النار الصغرى .

✦✦✦✦✦✦✦

الحكمة التاسعة عشر

قال رضي الله عنه :

المؤُوْنَةُ فِيْ كِتْمانِ السِّرِّ أَقَلُّ مِنَ الْمؤُوْنَةِ فِيْ تَخَوُّفِ إِفْشَائِهِ ، مِمَّنْ تُطْلِعُهُ عَلَيْهِ .

(المؤونة) أي تَحَمُّلُ المشقة (في كتمان السر) الذي يشق على النفس ولا تستريح غالبا إلا بإظهاره ، قال تعالى : (فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) {طه : الآية ٧} . أي إن الله تعالى يعلم السر وهو ما أسره الرجل في نفسه ، وأخفى من السر وهو ما علم الله أن الإنسان سيفعله قبل أن يعلم الإنسان أنه فاعله . وقيل : السر ما أسره الرجل إلى غيره ، وأخفى منه هو ماحدثت به النفس . وكتمان السر محمود ومطلوب شرعا وهو مما يعين على نجاح المقصود ، قال صلى الله عليه وسلم : "اسْتَعِيْنُوْا عَلَى إِنْجَاحِ حَوَائِجِكُمْ بِالْكِتْمَانِ فَإِنَّ كُلَّ ذِيْ نِعْمَةٍ مَحْسُوْدٌ" رواه الطبراني عن معاذ بن جبل رضي الله عنه . قال في فيض القدير : ولا ينافيه الأمر بالتحدّث بالنعمة لأنه فيما بعد الحصول ، ولا أثر للحسد حينئذ إهـ . قيل لبعض الأدباء : كيف حفظك للسر ؟ قال : أنا قبره ، وقيل : قلوب الأحرار قبور الأسرار ، وقيل : السر في السر ، وقيل : إنَّ قلْبَ الأحمق في فيه ، ولسانَ العاقل في قلبه .

قال الشاعر :

السِّرُّ عِنْدِيْ فِيْ بَيْتٍ لَـهُ غَلَقٌ * ضَاعَتْ مَفَاتِحُهُ وَالْبَيْتُ مَقْفُوْلُ
وَلَيْسَ يَكْتُمُ سِرًّا غَيْرُ ذِيْ كَـرَمٍ * وَالسِّرُّ عِنْدَ لِئَامِ النَّـاسِ مَبْذُوْلُ

الغلَقُ : ما يغلق به الباب ويفتح بالمفتاح (أقل من المؤونة في تخوُّف إفشائه) أي إشاعة السر (ممَّن) أي من شخصٍ (تُطْلِعُه) أي تُظهرالسر (عليه) أي على ذلك الشخص . يعني : أن إفشاء سرك إلى غيرك أشق لك من كتمان سرك في نفسك . لأن السر الذي أَطْلَعْتَه على غيرك لا تستطيع أن تعيده إلى ماكان أولًا . وربما تقع في الندم ولا تنفعك حينئذ الندامة ، وقد مُثل للنبي صلى الله عليه وسلم في قصة إسرائه : "أَنَّهُ أَتَى عَلَى جُحْرٍ، فَجَعَلَ الثَّوْرُ يُرِيْدُ أَنْ يَرْجِعَ مِنْ حَيْثُ خَرَجَ فَلَا يَسْتَطِيْعُ ، فَقَالَ : مَا هَذَا يَا جِبْرِيْلُ ؟ قَالَ : هَذَا الرَّجُلُ يَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ الْعَظِيْمَةِ ، ثُمَّ يَنْدَمُ عَلَيْهَا فَلَا يَسْتَطِيْعُ أَنْ يَرُدَّهَا" . وقال لقمان لابنه : "يَا بُنَيَّ ! قَدْ نَدِمْتُ عَلَى الْكَلَامِ وَلَمْ أَنْدَمْ عَلَى السُّكُوْتِ" . وقال الشاعر :

الصَّمْتُ زَيْنٌ وَالسُّكُوْتُ سَلَامَةٌ * فَـإِذَا نَطَقْتَ فَـلَا تَكُـنْ مِكْـثَارَا
فَـإِذَا نَدِمْتَ عَلَى سُكُـوْتِكَ مَـرَّةً * فَلْـتَنْدَمَـنَّ عَـلَى الْـكَلَامِ مِـرَارَا

وقد يكون في إِطْلاع سرك لغيرك هلاكٌ ووبالٌ عليك أو على أهلك أو أحبائك ، ولْتَعتبِرْ بما وقع ليوسف عليه الصلاة والسلام مع إخوته ، والقصة مذكورة في القرآن . وكذلك لا تُفْشِ سر أخيك الذي أسرك به لغيرك ، فإن ذلك مذموم شرعا ، ألا ترى أن الله ذم حفصة على إظهارها سر رسول الله صلى الله عليه وسلم في تحريم جاريته مارية القبطية لعائشة وقبولها ذلك ، إلا إذا أظهره صاحبه

فلابأس عليك بإظهاره ، ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أظهر تزوجه بحفصة أعلم أبوبكر عُمَرَ بما أسر إليه . ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما "يُحَدِّثُ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ حِيْنَ تَأَيَّمَتْ حَفْصَةُ بِنْتُ عُمَرَ مِنْ خُنَيْسِ بْنِ حُذَافَةَ السَّهْمِيْ ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَتُوُفِّيَ بِالْمَدِيْنَةِ ، قَالَ عُمَرُ : فَلَقِيْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَفْصَةَ فَقُلْتُ : إِنْ شِئْتَ أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ ، قَالَ : سَأَنْظُرُ فِيْ أَمْرِيْ ، فَلَبِثْتُ لَيَالِيَ ، فَقَالَ : قَدْ بَدَا لِيْ أَنْ لَا أَتَزَوَّجَ يَوْمِيْ هَذَا ، قَالَ عُمَرُ : فَلَقِيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ : إِنْ شِئْتَ أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ ، فَصَمَتَ أَبُوْ بَكْرٍ فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا ، فَكُنْتُ عَلَيْهِ أَوْجَدَ مِنِّيْ عَلَى عُثْمَانَ ، فَلَبِثْتُ لَيَالِيَ ، ثُمَّ خَطَبَهَا رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَنْكَحْتُهَا إِيَّاهُ ، فَلَقِيَنِيْ أَبُوْ بَكْرٍ فَقَالَ : لَعَلَّكَ وَجَدْتَ عَلَيَّ حِيْنَ عَرَضْتَ عَلَيَّ حَفْصَةَ فَلَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَرْجِعَ إِلَيْكَ فِيْمَا عَرَضْتَ إِلَّا أَنِّيْ قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ ذَكَرَهَا ، فَلَمْ أَكُنْ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَوْ تَرَكَهَا لَقَبِلْتُهَا" . وكذلك فعلت فاطمة فى مرض النبي صلى الله عليه وسلم ، حين أسرَّ إليها أنها أول أهله لحوقا به ، فكتمته حتى توفي صلى الله عليه وسلم . فعن عائشة رضي الله عنها قالت : "اجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يُغَادِرْ مِنْهُنَّ امْرَأَةً ، فَجَاءَتْ فَاطِمَةُ تَمْشِيْ كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِشْيَةُ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : مَرْحَبًا بِابْنَتِيْ فَأَجْلَسَهَا عَنْ يَمِيْنِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيْثًا فَبَكَتْ فَاطِمَةُ ، ثُمَّ إِنَّهُ سَارَّهَا فَضَحِكَتْ أَيْضًا ، فَقُلْتُ لَهَا : مَا يُبْكِيْكِ ؟ فَقَالَتْ : مَا كُنْتُ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقُلْتُ : مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ فَرَحًا أَقْرَبَ مِنْ حُزْنٍ ،

فَقُلْتُ لَهَا حِيْنَ بَكَتْ : أَخَصَّكِ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَدِيْثِهِ دُوْنَنَا ؟ ثُمَّ تَبْكِيْنَ ، وَسَأَلْتُهَا عَمَّا قَالَ ، فَقَالَتْ : مَا كُنْتُ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى إِذَا قُبِضَ سَأَلْتُهَا ، فَقَالَتْ : إِنَّهُ كَانَ حَدَّثَنِيْ أَنَّ جِبْرِيْلَ كَانَ يُعَارِضُهُ بِالْقُرْآنِ كُلَّ عَامٍ مَرَّةً ، وَإِنَّهُ عَارَضَهُ بِهِ فِي الْعَامِ مَرَّتَيْنِ ، وَلَا أُرَانِيْ إِلَّا قَدْ حَضَرَ أَجَلِيْ ، وَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِيْ لُحُوْقًا بِيْ وَنِعْمَ السَلَفُ أَنَا لَكِ ، فَبَكَيْتُ لِذَلِكَ . ثُمَّ إِنَّهُ سَارَّنِيْ فَقَالَ : أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُوْنِيْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِيْنَ ، أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَضَحِكْتُ لِذَلِكَ" رواه مسلم. لم يغادر : أي لم يترك . وكان بعض الصحابة يقال له صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم كحذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، أعلمه صلى الله عليه وسلم أسرارا فيما يقع من الفتن لا يعلمها غيره . وذلك لقربه منه وثقته به ، وعلو منزلته عنده صلى الله عليه وسلم . وقال رضي الله عنه : إن الناس كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه و سلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر .



الحكمة العشرون

قال رضي الله عنه :

أَدَلُّ دَلِيْلٍ عَلَى كَمَالِ عَقْلِ الرَّجُلِ ، ثَنَاؤُهُ عَلَى أَقْرَانِهِ . وَأَدَلُّ دَلِيْلٍ عَلَى تَوَاضُعِهِ رِضَاهُ بِالتَّأْخِيْرِ فِيْ مَوْطِنٍ يَسْتَحِقُّ فِيْهِ التَّقْدِيْمَ ، وَأَدَلُّ دَلِيْلٍ عَلَى إِخْلَاصِهِ عَدَمُ الْمُبَالَاةِ بِإِسْخَاطِ الْخَلْقِ فِيْ جَنْبِ الْحَقِّ .

(أدل دليل على كمال عقل الرجل ، ثناؤه على أقرانه) فإن الرجل إنما يحب أن يمدح

شيخه أومن هو أعلى منه رتبة ، ولا يحب أن يمدح أقرانه الذين رافقوه أو عاصروه غالبا لإمكان مزاحمتهم عليه فيما له من المزايا والفضل ، فإذا كان يمدح أقرانه فضلا من هو أدنى منه مرتبة على الفضل الذي فازوا به فقد كمل عقله حيث أعطى كل ذي حق حقه ، وأنزله في منازله ، وتيقن أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء . عن عائشة رضي الله عنها قالت : "أَمَرَنَا رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ" رواه الحاكم . والأخ الصادق من يفرح لفرحه ويحزن لحزنه ، قال الغزالي رحمه الله تعالى عن وصية علقمة العطاردي لابنه لما حضرته الوفاة : يا بُني إذا أردتَ صحبةَ إنسان فاصحَبْ مَن إذا خدمتَه صانك ، وإن صحبتَه زانك ، وإن قَعدَتْ بك مؤنةٌ مَانَك . اصحب من إذا مددتَ يدَك بخيرٍ مَدَّها ، وإن رأى منك حسنة عَدَّها ، وإن رأى منك سيئة سَدَّها ، اصحب من إذا قلتَ صدَّق قولَك ، وإذا حاولتَ أمرًا أمَّرك ، وإن تنازعتما في شيء آثَرَكَ .

وقال علي رضي الله عنه رجزا :

إِنَّ أَخَاكَ الْحَقَّ مَنْ كَانَ مَعَكْ * وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكْ
وَمَنْ إِذَا رَيْبُ الزَّمَانِ صَدَّعَكْ * شَتَّتَ فِيْكَ شَمْلَهُ لِيَجْمَعَكْ

ريب الزمان : أي حوادثه . صدَّعك : أي فرَّقك (وأدل دليل على تواضعه) لله تعالى ، والتواضع هو إظهار التنزل عن مرتبته . وقيل : هو تعظيم من فوقه من أرباب الفضائل (رضاه بالتأخير) من غير تصنع بل لأجل أنه يرى نفسه أحقر من غيره (في موطن يستحق فيه التقديم) كالمجالس والمحافل ، فينبغي لك أن تتواضع لله تعالى ، وأن لاتنظر لأحد إلا وترى أنه خير منك ، وأن الفضل له على

نفسك ، وأن تتأسى بسيد المتواضعين صلى الله عليه وسلم . قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوْا ، حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ" رواه مسلم وأبو داود . وقال صلى الله عليه وسلم : "مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لله إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ" رواه مسلم . وقد رفع الله تعالى حبيبه صلى الله عليه وسلم بإكرامه وإعادته إلى مولده مكة المكرمة آمنا معظّما بعد طرد المتكبرين الكافرين وإخراجهم له صلى الله عليه وسلم ذليلا متواضعا منها إلى المدينة المنورة . وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن تخطي الرقاب . وقال موسى كليم الله ورسوله بالإجماع للخضر الذي اختلف في نبوته : (هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا) {الكهف : الآية ٦٦} . رشدا : أي علمًا يرشدني إلى الصواب فيما أقصده . وفي كل ماذكر تواضع وتذلل . ومِن تواضع رسول الله صلى الله عليه وسلم إردافه صلى الله عليه وسلم عددا من الصحابة رضي لله عنهم ، والملوك لا يُردِفون أيَّ شخصٍ ، ويروى : "أَنَّهُ قَدِمَ وَائِلُ بْنُ حُجْرٍ الْحَضْرَمِيُّ وَافِدًا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ ، وَقَالَ : جِئْتُ رَاغِبًا فِي الْإِسْلَامِ وَالْهِجْرَةِ ، فَدَعَا لَهُ وَمَسَحَ رَأْسَهُ وَنُوْدِيَ لِيَجْتَمِعَ النَّاسُ "الصَّلَاةَ جَامِعَةً" ، سُرُوْرًا بِقُدُوْمِ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ ، وَأَمَرَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِيْ سُفْيَانَ أَنْ يُنْزِلَهُ فِيْ مَنْزِلٍ بَعِيْدٍ عَنِ الْمَدِيْنَةِ ، فَمَشَى مَعَهُ وَوَائِلُ رَاكِبٌ ، فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ : أَلْقِ إِلَيَّ نَعْلَكَ ، قَالَ : لَا ، إِنِّيْ لَمْ أَكُنْ لِأَلْبَسَهَا وَقَدْ لَبِسْتَهَا ، قَالَ : فَأَرْدِفْنِيْ ، قَالَ : لَسْتَ مِنْ أَرْدَافِ الْمُلُوْكِ ، قَالَ : إِنَّ الرَّمْضَاءَ قَدْ أَحْرَقَتْ قَدَمِيْ ، قَالَ : امْشِ فِيْ ظِلِّ نَاقَتِيْ كَفَاكَ بِهِ شَرَفًا ، قَالَ مُعَاوِيَةُ : فَمَا مَرَّ بِيْ مِثْلُ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، ثُمَّ أَدْرَكَ سُلْطَانِيْ ، فَلَمْ أُؤَاخِذْهُ بِذَلِكَ ، بَلْ أَجْلَسْتُهُ عَلَى سَرِيْرِي

هَذَا ، وَقَضَيْتُ حَوَائِجَهُ" . الرمضاء : شدة حر الشمس . قال الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه : ما وصلتُ إلى الله تعالى بقيام ليل ولا صيام نهار ولكن وصلت إلى الله تعالى بالكرم والتواضع وسلامة الصدر ، وقال الشافعي رحمه الله :

كُلَّمَا أَدَّبَنِي الـدَّهْــ * ــرُ أَرَانِيْ نَقْصَ عَقْلِيْ

وَإِذَا مَا ازْدَدْتُ عِلْمًا * زَادَنِيْ عِلْـمًا بِجَـهْلِيْ

فإذا عَلم أنه ازداد جهله فلا يزال يستزيد من العلم ويتواضع لله سبحانه وتعالى ، وقال أيضا : "مَا جَادَلْتُ أَحَدًا إِلَّا وَدِدْتُ أَنْ يُظْهِرَ اللهُ الْحَقَّ عَلَى يَدَيْهِ" . ولذا يقولون : "إنَّ مِنْ أدآب الجِدَالِ والنِقاش أن لا يكونَ المقصودُ من ذلك إِظهارَ الغَلَبَةِ فيما بينهم" . (وأدل دليل على إخلاصه) في عبوديته لله تعالى (عدم المبالاة بإسخاط الخلق في جنب الحق) فمن لم ير في عبادته إلا رضا الواحد القهار ، ولم يبال فيها بسخط الأغيار ، فهو من المخلصين الأخيار ، ومن يفعل غير ذلك فهو من الممقوتين الأشرار . والإخلاص هو تخليص القلب من كل شوب يكدر صفاءه . قال الله تعالى : (وَمَا أُمِرُوْا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ) {البينة : الآية ٥} . وقال صلى الله عليه وسلم : " أَخْلِصُوْا أَعْمَالَكُمْ لله ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ إِلَّا مَاخَلُصَ لَهُ " رواه الدار قطني عن الضحاك بن قيس الفهري . وقيل : "مَنْ عَمِلَ عَمَلًا وَأَخْلَصَ نِيَّتَهُ فِيْهِ لله تَعَالَى ظَهَرَتِ الْبَرَكَةُ فِيْهِ وَفِيْ عَقِبِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ" . وذكر الدَّمِيري في حياة الحيوان : أن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض جاءته وحوش الفلاة ، تُسَلِّم عليه وتزوره ، فكان يدعو لكل جنس بما يليق به ، فجاءته طائفة من الظباء ، فدعا لهن ، ومسح على ظهورهن ، فظهر فيهن نوافِجُ المسك ، فسألتهن طائفة أخرى عن سبب ذلك ، فقلن : زرنا آدم ، فدعا لنا ، ومسح على

ظهورنا ، فَسِرْنَ إليه ، فدعا لهن ومسح على ظهورهن ، فلم يجدن شيئا ، فقلن : قد فعلنا مثلكن ، فلم نر شيئا مما حصل لكن ، فقلن لهن : نحن زرناه لله وأنتن زرتُنَّه لأجل المسك إهـ . نوافج المسك أي فأرَتُه وهي الجلدة التي يجتمع فيها المسك .

وذكر حجة الإسلام الغزالي رحمه الله تعالى في الإحياء قصة معناها : أن رجلا عابدا بلغه أن قوما يعبدون شجرة ، فخرج ليقطعها ، فقال له إبليس : إن قطعتها عبدوا غيرها فارجع إلى عبادتك ، فقال : لا بد من قطعها ، فقاتله فصرعه العابد ، فقال له : أنت رجل فقير فارجع إلى عبادتك ، وأجعل لك دينارين تحت رأسك كل ليلةٍ ، ولوشاء الله لأرسل رسولا يقطعها ، وما عليك إذا لم تعبدها أنتَ ، قال : نعم ، فرجع الفقير ، فلما أصبح وجد دينارين ، ثم في اليوم الثاني كذلك ، وفي اليوم الثالث لم يجد شيئا ، فخرج لقطعها بعد ذلك ، فعارضه إبليس وقاتله ، فصرعه إبليس ، فقال له العابد : كيف غلبتك أولا ثم غلبتني ثانيا ؟ قال : لأن غضبك أولًا كان لله تعالى ، وغضبك ثانيا كان للدينارين إهـ .



الحكمة الحادية والعشرون

قال رضي الله عنه :

الدُّنْيَا شَيْئَانِ لَا ثَالِثَ لَهُمَا ، أَحَدُهُمَا : حُبُّ الْمَالِ ، وَالْآخَرُ حُبُّ الْجَاهِ . فَمَنْ زَهِدَ فِي الْمَالِ وَالْجَاهِ ، فَهُوَ صِدِّيْقٌ . وَمَنْ زَهِدَ فِي الْمَالِ دُوْنَ الْجَاهِ ، فَهُوَ مُرَاءٍ . وَمَنْ زَهِدَ فِي الْجَاهِ وَأَحَبَّ الْمَالَ ، فَهُوَ لَئِيْمٌ . وَمَنْ أَحَبَّ الْمَالَ وَالْجَاهَ كَانَ أَصْغَرُ عُقُوْبَتِهِ حِرْمَانَهُمَا .

(الدنيا) المذمومة الملعونة في قوله صلى الله عليه وسلم : "الدُّنْيَا مَلْعُوْنَةٌ مَلْعُوْنٌ مَا فِيْهَا إِلَّاذِكْرَ اللهِ وَمَا وَالَاهُ" رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه . ملعونة : أي مبعودة عن الله تعالى . ماوالاه : أي ما أحبه الله من الدنيا من أعمال البر (شيئان لا ثالث لهما) مثلهما (أحدهما : حب المال) الذي لا يشبع منه إلامن رحمه الله تعالى ، وأكثر ما يكون في التجار ، وهو مذموم إلا إذا توصل بماله إلى أمر محمود . وفي الحديث : "هَلَكَ الْمُكْثِرُوْنَ إِلَّا مَنْ قَالَ فِيْ عِبَادِ اللهِ هَكَذَا وَهَكَذَا وَقَلِيْلٌ مَّا هُمْ" رواه أحمد والطبراني عن عبد الرحمن بن أبزى . المكثرون : أي من المال . إلا من قال إلخ : أي إلا من فرَّق المال على مَنْ عَنْ يمينه وشماله مِن الفقراء والمساكين . وقليل ما هم : أي وهم قليل جدا . (والآخر حب الجاه) وهو انتشار الصِيت والشهرة عند الناس ، وأكثر ما يوجد هذا في أرباب المناصب ، وفي الحديث الذي ذكره الغزالي في الإحياء : "حُبُّ الْمَالِ وَالشَّرَفِ يُنْبِتَانِ النِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ" . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال صلى الله عليه وسلم : "احْذَرُوا الشَّهْوَةَ الْخَفِيَّةَ ، العَالِمُ يُحِبُّ أَنْ يُجْلَسَ إِلَيْهِ" أخرجه الديلمي . قال بشر بن الحارث : "لَا يَجِدُ حَلَاوَةَ الْآخِرَةِ رَجُلٌ يُحِبُّ أَنْ يَعْرِفَهُ النَّاسُ" . وقال بعضهم : "مَا أَعْرِفُ رَجُلًا أَحَبَّ أَنْ يُعْرَفَ إِلَّا ذَهَبَ دِيْنُهُ وَافْتَضَحَ" . وفي الحكم العطائية : "ادْفِنْ وُجُوْدَكَ فِيْ أَرْضِ الْخُمُوْلِ فَمَا نَبَتَ مِمَّا لَمْ يُدْفَنْ لَا يَتِمُّ نِتَاجُهُ" . الخمول : خفاء الذكر والقدر . وهذه عقبة كئود لحملة العلم ولا يتخلص من حب الجاه إلا المخلصون (فمن زهد في المال والجاه) رغبة فيما عند الله تعالى ورهبة من عواقب حبهما (فهو صديق) وهو من صفا ظاهره وباطنه عن غير الله تعالى ، وتَعمَّرا به . قاله السندي . وليس المراد بالزهد في المال ترك الإكتساب بالحلال ،

وعدم إمساك ما رزقه الله به من الحلال ، فإن اكتساب الحلال لضرورة المطعم والملبس والمسكن واجب ، وإنما المراد أن يجتنب ما حرم الله فيه ، ويقوم بما أوجب الله عليه فيه ، وكان الليث بن سعد سخيًّا مضيافًا ، وكان من أغنياء العلماء ، ومع ذلك لم تجب عليه زكاة قط لكثرة إنفاقه ، خاصة على أهل العلم ، وكان يقول : "لَوْلَا هَذَا لَتَمَنْدَلَ بِنَا هَؤُلَاءِ" . هذا : أي المال . هؤلاء : أي الأمراء . وأخرج أبو نعيم في الحلية : "أَنَّهُ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى سُفْيَانَ الثَّوْرِيْ فَقَالَ : يَا أَبَا عَبْدِالله! تُمْسِكُ هَذِهِ الدَّنَانِيْرَ؟ فَقَالَ : اسْكُتْ ! لَوْلَا هَذِهِ الدَّنَانِيْرُ لَتَمَنْدَلَ بِنَا هَؤُلَاءِ الْمُلُوْكُ" . أي لاتخذ الملوك بنا كالمنديل في أيديهم يمسحون به أوساخهم . قال شيخنا السيد عمر الجيلاني حفظه الله تعالى : قال السيد عبد الله بن علوي الحداد رحمه الله تعالى : "يَجُوْزُ أَنْ يَكُوْنَ الْمَالُ فِيْ يَدِكَ أَوْفِيْ صُنْدُوْقِكَ ، وَلَا يَجُوْزُ أَنْ يَكُوْنَ فِيْ قَلْبِكَ" . وكذلك الجاه لابد للإنسان أن يكون له أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق ، فهو يحتاج إلى خادم يخدمه ويحب أن يكون له في قلب الخادم مكانة تدعوه إلى الخدمة ، ويحتاج إلى رفيق ويحب أن يكون له في قلبه ما يعينه على حسن مرافقته ، وكذلك يحتاج إلى أستاذ يرشده ، وسلطان يحرسه ، ويدفع عنه الأشرار ، فهذا القدر من الجاه ليس بمذموم ، وما زاد على ذلك فهو مذموم ، وكان عمرو بن العاص أقره أمير المؤمنين عمر بن الخطاب واليا على مصر ، وراقبه مراقبة شديدة ، فلما اتخذ عمرو بن العاص منبرًا كتب إليه عمر بن الخطاب : "أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ بَلَغَنِيْ أَنَّكَ اتَّخَذْتَ مِنبَرًا تَرْقَى بِهِ عَلَى رِقَابِ الْمُسْلِمِيْنَ ، أَوَمَا يَكْفِيْكَ أَنْ تَكُوْنَ قَائِمًا وَالْمُسْلِمُوْنَ تَحْتَ عَقِبِكَ فَعَزَمْتُ عَلَيْكَ إِلَّا مَا كَسَرْتَهُ" . وقال له يوما مقالته المشهورة : "مَتَى اسْتَعْبَدْتُمُ النَّاسَ وَقَدْ وَلَدَتْهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ أَحْرَارًا ؟" . (ومن زهد في المال دون الجاه ،

فهو مراء) يرائي للناس بزهده في المال لاستعطافهم وجلب قلوبهم ، فيصير ذا جاه عندهم ، ويتيسر له بذلك اكتساب المال ، ولذا قيل : "مَنْ مَلَكَ الْجَاهَ فَقَدْ مَلَكَ الْمَالَ ، وَمَنْ مَلَكَ الْمَالَ لَمْ يَمْلِكِ الْجَاهَ بِكُلِّ حَالٍ" . (ومن زهد في الجاه وأحب المال) بحيث لا يحب الشهرة لكنه يحب جمع المال (فهو لئيم) مهين حيث عبد المال وكان أسيرا له ، فخاب وصار بعيدا عن الله تعالى مطرودا عن رحمته . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لُعِنَ عَبْدُ الدِّيْنَارِ لُعِنَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ " رواه الترمذي . (ومن أحب المال والجاه كان أصغر عقوبته حرمانهما) فلايحصل المال ولا الجاه ، وذلك لأن الله هو المعطي والمانع ، وهو الرافع الخافض ، بيده الأمر كله ، فالذي يحب أن ينال فوق ما قدره الله فهو محروم ، ولا يمكن أن يفوز بها رجاه إلا بعونه تعالى ، قال الشاعر :

إِذَا صَحَّ عَوْنُ الْخَالِقِ الْمَرْءَ لَمْ يَجِدْ * عَسِيْرًا مِنَ الْآمَالِ إِلَّا مُيَسَّرَا

ومن فقده عونه تعالى فكل ما طلبه من المال والجاه مع بذل الجهد ومقاساة التعب هباء منثور ، وكان وبالا عليه . قال الشاعر :

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللهِ لِلْفَتَى * فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ

✦✦✦✦✦✦✦

الحكمة الثانية والعشرون

قال رضي الله عنه :

الْأَرَاضِيْ ثَلَاثٌ . أَرْضٌ إِذَا سُقِيَتْ أَنْبَتَتِ الْعُشْبَ وَالْكَلَأَ .

وَمَثَلُهَا مِنَ النَّاسِ الَّذِيْ يَتَعَلَّمُ وَيَفْهَمُ فِي الْعِلْمِ . فَكَمَا أَنَّ النَّبَاتَ لَيْسَ عَيْنَ الْمَاءِ ، وَلَكِنَّ الْمَاءَ سَبَبُ حُصُوْلِهِ . فَكَذَلِكَ الْفَهْمُ لَيْسَ عَيْنَ الْعِلْمِ . وَلَكِنْ عَنِ الْعِلْمِ يَكُوْنُ .

وَالْأَرْضُ الثَّانِيَةُ تُمْسِكُ الْمَاءَ وَلَا تُنْبِتُ الْكَلَأَ .

وَمَثَلُهَا مِنَ النَّاسِ مَثَلُ الَّذِيْ يَحْفَظُ الْعِلْمَ وَلَا يَفْهَمُ فِيْهِ .

وَإِذَا رَأَيْتَ الْعَالِمَ لَا يَزِيْدُ عَلَى مَا يَسْمَعُ فَهُوَ ذَاكَ .

وَإِذَا رَأَيْتَهُ يَزِيْدُ عَلَيْهِ شَيْئًا يُوَافِقُ مَا سَمِعَ مِنَ الْعِلْمِ ، فَهُوَ الْأَوَّلُ .

وَالْأَرْضُ الثَّالِثَةُ أَرْضٌ لَا تُنْبِتُ كَلَأً وَلَا تُمْسِكُ مَاءً .

وَمَثَلُهَا مِنَ النَّاسِ مَثَلُ مَنْ لَا يَحْفَظُ الْعِلْمَ ، وَلَا يَفْهَمُ فِيْهِ . فَإِلْقَاءُ الْعِلْمِ إِلَى مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ إِضَاعَةٌ لِلْعِلْمِ . فَكَمَا أَنَّ رَبَّ الْأَرْضِ الَّتِيْ هَذِهِ صِفَتُهَا لَا يَسْقِيْهَا . وَيَرَى أَنَّ سَقْيَهَا مِنَ الْإِضَاعَةِ ، كَذَلِكَ يَنْبَغِيْ أَنْ لَا يُلْقَى الْعِلْمُ إِلَى مَنْ يُضِيْعُهُ ، بَلْ أَوْلَى .

(الأراضي) في الخصوبة وعدمها (ثلاث) الأرض الأولى (أرض) طيبة خصبة (إذا سقيت) بالماء قبِلَته ، و(أنبتت العشب والكلأ) فانتفع الناس بهما ، وكذلك

المواشي . والعشب هو النبات الرطب . والكلأ النبات اليابس . وقيل : الكلأ شامل للرطب واليابس .

(ومَثلُها) أي صفة الأرض الأولى (من الناس) المتباينين في الإستعدادت (الذي يتعلم) العلم المحيي للقلوب الميتة (ويفهم في العلم) فعلِم وعلَّم وانتفع هو والناس بعلمه ، واستطاع استخراج الأحكام بفهمه ، وهذا الأول هو أعلى المراتب (فكما أن النبات ليس عين الماء) وهذا أمر بديهي يثبته العقل بمجرد التفاته إليه (ولكن الماء سبب حصوله) أي النبات (فكذلك الفهم ليس عين العلم . ولكن عن العلم يكون) الفهم ، قال السندي : والأفهام مختلفة وأعلاها الفهم فيما يقرب إليه تعالى إهـ . (والأرض الثانية تمسك الماء) وتبقيه على سطحها لصلابتها (ولا تنبت الكلأ) لخبثها ، فينتفع الناس بالماء الذي حفظته ، فشربوا وسَقوا به المواشي والأرض النقية فتنبت وتثمر ، ولكن هذه الأرض نفسها لم تنبت شيئا .

(ومثلها من الناس مثل الذي يحفظ العلم ولا يفهم فيه) فهو يقبل العلم ، ويعمل بما فتح الله به عليه ، لكنه لم يَقدِر على استخراج الأحكام ، إما لضعف فهمه أو لضعفه في معرفة القواعد التي يستخرج بها الأحكام ، وهذا الثاني له شرف وإن كان أقل من الأول ، قال شيخنا العلامة السيد عمر بن حامد الجيلاني عافاه الله تعالى : ولعله هو الذي أشارإليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : "فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ" رواه الترمذي وابن حبان عن زيد بن ثابت رضي الله عنه . (وإذا رأيت العالم لا يزيد على ما يسمع فهو ذاك) الثاني الذي يحفظ العلم ولا يفهم فيه ، إذ هويتعلم العلم ويعلمه الناس ولكنه لايستطيع أن يزيد شيئا على

ما يسمعه (وإذا رأيته يزيد عليه) أي على ما يسمعه (شيئا يوافق ما سمع من العلم ، فهو الأول) الذي يتعلم العلم ويفهم فيه حتى يستطيع بفهمه أن يزيد شيئا يوافق ما يسمعه ، قال السندي : هذا أعلى درجة من الثاني وإن كان الثاني لايخلو عن شرف إهـ . وفي هذه الحكمة إيماء إلى القاعدة المشهورة أن العمل المتعدي خير من القاصر إهـ شيخنا العلامة السيد عمر بن حامد الجيلاني حفظه الله تعالى (والأرض الثالثة أرض) سبخة (لا تنبت كلأ) لخبثها (ولا تمسك ماء) لارتفاعها ، فهي تبتلع الماء ولم تنبت شيئا ، ولم يبق الماء على سطحها حتى ينتفع الناس به (ومثلها من الناس مثل من لا يحفظ العلم) لضعف حافظته أو لإعراضه عنه (ولا يفهم فيه) لقلة فهمه أو لعدم اعتنائه به ، فهذا لم ينتفع بالعلم لنفسه ولم ينفع غيره (فإلقاء العلم إلى من) أي شخص (هذه صفته إضاعةٌ للعلم) وتضييع للوقت الذي هو إما لك وإما عليك ، والوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك ، وإلقاء العلم إلى هذا الشخص كتقليد أخسّ الحيوان بأنفَس الجواهر . قال صلى الله عليه وسلم : "طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيْضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَوَاضِعُ الْعِلْمِ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ كَمُقَلِّدِ الْخَنَازِيْرِ الْجَوْهَرَ وَاللُّؤْلُؤَ وَالذَّهَبَ" رواه ابن ماجه عن أنس رضي الله عنه .

قال الشاعر :

سَأَكْتُمُ عِلْمِيْ عَنْ ذَوِي الْجَهْلِ طَاقَتِيْ * وَلَا أَنْثُرُ الدُّرَّ النَّفِيْسَ عَلَى الْبَهَمْ
فَإِنْ قَدَّرَ اللهُ الْكَرِيْمُ بِلُطْفِهِ * وَلَاقَيْتُ أَهْلًا لِلْعُلُوْمِ وَلِلْحِكَمْ
بَذَلْتُ عُلُوْمِيْ وَاسْتَفَدْتُ عُلُوْمَهُمْ * وَإِلَّا فَمَخْزُوْنٌ لَدَيَّ وَمُكْتَتَمْ
فَمَنْ مَنَحَ الْجُهَّالَ عِلْمًا أَضَاعَهُ * وَمَنْ مَنَعَ الْمُسْتَوْجِبِيْنَ فَقَدْ ظَلَمْ

البَهَم : جمع بَهْمَة وهي أولاد الضأن والمعز والبقر . وقد قيل : "لَا تُؤْتُوا الْحِكْمَةَ غَيْرَ أَهْلِهَا فَتَظْلِمُوْهَا ، وَلَا تَمْنَعُوْهَا أَهْلَهَا فَتَظْلِمُوْهُمْ" . (فكما أن رب الأرض) أي مالكها (التي هذه صفتها لايسقيها ، ويرى أن سقيها من الإضاعة) للمال وأنفس الأوقات ، وفيه إتعاب النفس بلا فائدة (كذلك ينبغي أن لا يُلقَى العلمُ إلى من يضيعه ، بل أولى) قال السندي : لأن تضييع العلم الذي هو أنفس الأمور وأغلاها أشد من تضييع الماء الذي هو أرخص الأشياء غالبا إهـ . وهذه الحكمة منتزعة من الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيْرَ ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوْا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا ، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيْعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِيْ دِيْنِ اللهِ وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِيْ أُرْسِلْتُ بِهِ" . أجادب : جمع أجدب وهي الأرض الصلبة التي تمسك الماء فلا تشربه سريعا . قيعان : جمع قاع وهي الأرض المستوية الملساء .



الحكمة الثالثة والعشرون

قال رضي الله عنه :

لَا تَثْبُتُ الدَّعَاوِيْ بِالْأَقْوَالِ حَتَّى تَقُوْمَ بِإِثْبَاتِهَا الْبَيِّنَةُ مِنَ الْأَفْعَالِ وَالْأَعْمَالِ .

(لا تثبت الدعاوي) جمع دعوى وهي الإدعاء (بالأقوال) أي بمجرد الأقوال كقوله : أن له كذا (حتى تقوم بإثباتها) أي الدعاوي (البينة) هي اسم لكل ما أبان الحق وأظهره من الشهود وقرائن الحال (من الأفعال والأعمال) التي تميز بين الصادقين والكاذبين ، فإذا ادعى بقوله محبة الله تعالى طولب بإقامة البينة على صحة دعواه ، فإن أقام البينة عليها باتباع حبيبه صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وأحواله فهو صادق في دعواه ، وإلا فقوله مرفوض ويعد من الكاذبين . قال الله تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّوْنَ اللهَ فَاتَّبِعُوْنِيْ يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوْبَكُمْ) {آل عمران : الآية ٣١} . قال عبد الله القرشي : المحبة هي أن تهب كلك لمن أحببت ، فلا يبقى لك منك شيء إهـ . ومن ادعى أنه صوفي سالك ولم يتمسك بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولم يجتنب المعاصي ولم يؤد الحقوق فهو كاذب مفتر ، إذ الصوفي كما قاله الإمام أبو علي الروذباري رحمه الله تعالى وقد سئل عن الصوفي : من لبس الصوف على الصفا ، وأطعم الهوى ذوق الجفا ، وكانت الدنيا منه على القفا ، وسلك منهاج المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم إهـ . والتصوف هو كما قاله الجنيد رحمه الله تعالى : تصفية القلب عن موافقة البرية ، ومفارقة الأخلاق الطبيعية ، وإخماد صفات البشرية ، ومجانبة الدواعي النفسانية ، ومنازلة الصفات الروحانية ، والتعلق بالعلوم الحقيقية ،

واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة، واتباع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الشريعة إهـ . قال شيخنا العلامة السيد عبدالله بن محمد بن الصديق الغماري الإدريسي الحسني المتوفى بطنجة عام ١٤١٣ هـ رحمه الله تعالى ما معناه : أنه كان هناك مُدَّعون سفهاء اتخذوا الطريق سُلَّمًا لتحصيل أغراضهم وشهواتهم، وابتدعوا فيه بدعًا ما أنزل الله بها من سلطان، وزعموا أنهم أهل الحقيقة يجوز لهم ما يكون محرمًا في الشريعة وكذبوا، فإن الشريعة والحقيقة تتفقان ولا تتخالفان قط إلا في نظر جاهل، فمثل هؤلاء ليسوا من الصوفية في شيء، وهم أول من يبرأ منهم الصوفية، ومن الظلم البين أن يعترض بعض الناس بفعل هؤلاء الجهلة، ويجعله حجة على التصوف والصوفية، فما التصوف إلا اتباع الكتاب والسنة، وما الصوفية إلا قوم جاهدوا أنفسهم فهداهم الله إهـ . ولذا لابد للمريد السالك لاسيما المبتدئ من شيخ مرشد عارف يخرج المريد من رعونات النفس، ويحميه من كل ما يمنعه من الوصول إلى الله تعالى من أنواع الجهل والغرور، ودواعي الهوى الموقعة في ظلمة القلب وإطفاء النور . والمريد السالك قد يُبتلَى بنفسه إذا عمل وحده، فربما ظفر منه الشيطان بخيالات وأوهام وأفكار فاسدة واستدراج . وكذلك من ادعى أن له مع الله تعالى حالا من الأحوال، وكان فعله يخالف الشرع فلا ينظر إليه، ولو ظهر ت على يديه خوارق عن العادة، إذ هي تعد من الإستدراج . قال الشيخ أبو يزيد البسطامي رحمه الله تعالى : لوأن رجلا بسط مصلاه على الماء وتربَّع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه في الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة، وقيل له : إن فلانا يمشي في ليلة إلى مكة، فقال : إن الشيطان يمر

في لحظة من المشرق إلى المغرب . وقيل له : إن فلانا يمشي على الماء ، فقال : الحيتان في الماء والطير في الهواء أعجب من ذلك إهـ . قال بعضهم :

فَلَا يَغُرَّنَّكَ صَـوْمُ النَّاسِ * وَلَا صَلَاتُهُمْ بِلَا الْتِبَاسِ
بَلْ زِنْهُمُ بِالصِّدْقِ وَالْأَمَانَةْ * وَالْحِفْظِ لِلْحُدُوْدِ وَالدِّيَانَةْ

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه : خرجت في بعض سياحاتي إلى البرية ، ومكثت أيامًا لا أجد ماء ، فاشتد بي العطش ، فأظلتني سحابة ، ونزل عليَّ منها شيء يُشبِه النَّدَى ، فترَوَّيتُ به ، ثم رأيت نورًا أضاء به الأفق ، وبدت لي صورة ، ونوديتُ منها : يا عبد القادر أنا ربك ، وقد أحللتُ لك المحرماتِ ، فقلت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، اخْسَأْ يا لعين ، فإذا ذلك النور ظلام ، وتلك الصورة دخان ، ثم خاطبني ، وقال : يا عبد القادر، نجوتَ مني بعلمك بحكم ربك وفقهك في أحوال منازلاتك . ولقد أضللتُ بمثل هذه الواقعة سبعين من أهل الطريق . فقلت : لربي الفضل والمنة . فقيل له : كيف علمتَ أنه شيطان ؟ قال : بقوله : وقد أحللتُ لك المحرمات إهـ. ومن هذه الحكاية يعلم أنه لا خير في متصوف لم يتفقه ، ولا في متفقه لم يتصوف ، فالخير كل الخير فيمن جمعهما ، لأن بالفقه يصلح ظاهره وتكون عبادته موافقة لشرع الله تعالى ، وبالتصوف يصفو باطنه ، فيتوجه فيها لوجه الله تعالى ، قال الإمام مالك رحمه الله تعالى : "مَنْ تَفَقَّهَ وَلَمْ يَتَصَوَّفْ فَقَدْ تَفَسَّقَ وَمَنْ تَصَوَّفَ وَلَمْ يَتَفَقَّهْ فَقَدْ تَزَنْدَقَ وَمَنْ جَمَعَ بَيْنَهُمَا فَقَدْ تَحَقَّقَ" . أي من تفقه ولم يتصوف فقد صار فاسقا لخلو علمه عن صدق التوجه إلى الله تعالى الحاجز عن معصيته وعن الإخلاص المشروط في

الأعمال ، ومن تصوَّف ولم يتفقه فقد صار زنديقًا لأنه يقول بالجبر الموجِب لنفي الحكمة والأحكام ، ومن جمع بينهما فقد قام بالحقيقة في عين تمسُّكِه بالحق .

⁂

الحكمة الرابعة والعشرون

قال رضي الله عنه :

إِذَا ادَّعَتْ نَفْسُكَ أَنَّهَا لَاتُفَرِّقُ بَيْنَ وُجُوْدِ الشَّيْءِ وَعَدَمِهِ ، فَلَا تَقْنَعْ مِنْهَا بِذَلِكَ حَتَّى تَخْتَبِرَهَا بِالْأَمْرَيْنِ جَمِيْعًا .

(إذا ادعت نفسك أنها لا تفرق بين وجود الشيء وعدمه) كوجود متاع الدنيا وعدمه (فلا تقنع منها) أي من نفسك (بذلك) أي بادعاء عدم التفرقة بينهما (حتى تختبرها بالأمرين) أي وجود الشيء وعدمه (جميعا) فإن اطمأنت نفسك عند عدمه كما اطمأنت عند وجوده فهي صادقة في دعواها وإلا فهي كاذبة ، قال الله تعالى : (لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوْا بِمَا آتَاكُمُ اللهُ) {الحديد : الآية ٢٣} . لكيلا تأسوا أي تحزنوا حُزْنَ قنوطٍ على ما فاتكم من الدنيا ، ولا تفرحوا بما آتاكم الله من الدنيا فَرَح بطَرٍ ، أما فرح شكر فمشروع . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمَّا أُوتي بأموال كسرى : "مَا فَتَحَ اللهُ هَذَا عَلَى قَوْمٍ إِلَّا سَفَكُوْا دِمَاءَهُمْ ، وَقَطَعُوْا أَرْحَامَهُمْ . وقال : اللَّهُمَّ إِنَّا لَا نَسْتَطِيْعُ إِلَّا أَنْ نَفْرَحَ بِمَا زَيَّنْتَ لَنَا ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ مَنَعْتَ هَذَا رَسُوْلَكَ إِكْرَامًا مِنكَ لَهُ ، وَفَتَحْتَهُ عَلَيَّ لِتَبْتَلِيَنِي بِهِ ، اللَّهُمَّ سَلِّطْنِي عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ وَاعْصِمْنِيْ مِنْ فِتْنَتِـهِ" . وعن يحيى بن معاذ الرازي قال : "يَا ابْنَ آدَمَ لَا تَأْسَفْ عَلَى مَفْقُوْدٍ لَا يَرُدُّهُ عَلَيْكَ الْفَوْتُ ، وَلَا تَفْرَحْ بِمَوْجُوْدٍ لَا يَتْرُكْهُ فِيْ يَدَيْكَ

اَلْمَوْتُ" . عن ابن عباس في قوله (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) قال : "لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يَفْرَحُ وَيَحْزَنُ ، وَلَكِنْ إِذَا أَصَابَتْهُ مُصِيْبَةٌ جَعَلَهَا صَبْرًا ، وَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ جَعَلَهُ شُكْرًا" . قال السندي : ومقام عدم الفرق بين الوجود والعدم مقامٌ صعبٌ لا يفوز به إلا الكُمَّل من العارفين ، وماسواهم مدَّعون إهـ . وقال القشيري : قيمة الرجال إنما تتبين بتغيرهم ، فمن لم يتغير بما يرِد عليه مما لا يريده من جفاء أو مكروه أو محبة فهو كامل ، ومن لم يتغير بالمضار ، ولا يسره الوجْد ، كما لا يحزنه العدم ، فهو سيد وقته إهـ . وهذه صفة الأحرار عن رق الأغيار ، وعليها عكف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رضي الله عنهم . كما قال كعب بن زهير في وصفهم :

لَا يَفْرَحُوْنَ إِذَا نَالَتْ رِمَاحُهُمْ * قَوْمـًا وَلَيْسُوْا مَجَازِيْعًا إِذَا نِيْلُوْا

أي لا يفرح أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فرح بطر وتكبر إذا نالت رماحهم الأعداء وفازوا في الحرب ، ولا يجزعون إذا نالهم الأعداء برماحهم وفشلوا في الحرب . وسئل بعض العرب عن بعض صفات النبي صلى الله عليه وسلم فقال : رَأَيْتُهُ يَغْلِبُ فَلَا يَبْطَرُ وَيُغْلَبُ فَلَا يَضْجَرُ . وقال شيخنا السيد عمر الجيلاني حفظه الله تعالى ما معناه : أن بعض العارفين بالله يكون عنده شيء من الأموال ، فقال : "لَوْ ذَهَبَ هَذَا عَنِّيْ فِيْ لَحْظَةٍ مِنَ اللَّحَظَاتِ مَا تَحَرَّكَتْ لِيْ شَعْرَةٌ" إهـ .

* * * * * * * * * *

الحكمة الخامسة والعشرون

قال رضي الله عنه :

لَوْلَا الْعَلَامَاتُ لَادَّعَى كُلُّ وَاحِدٍ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ . وَلَكِنْ بِالْعَلَامَاتِ وَالْأَمَارَاتِ يُفْرَقُ بَيْنَ الصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ .

(لولا العلامات) التي بها يتميز الصادق والكاذب (لادعى كل واحد ما ليس عنده) فيدعي الإنسان أنه مؤمن كامل ، والآخر أنه متوكل على الله ، ويدعي هذا أنه عالم أومتصوف ، وإن لم يكن هو من أهل ما ادعى به ولا ممن يقرب منه (ولكن بالعلامات والأَمارات) قال في التعريفات : الأمارة لغة العلامة ، واصطلاحا هي التي يلزم من العلم بها الظن بوجود المدلول كالغيم بالنسبة إلى المطر ، فإنه يلزم من العلم به الظن بوجود المطر ، والفرق بين الأمارة والعلامة أن العلامة ما لا ينفك عن الشيء كوجود الألف واللام على الإسم ، والأمارة تنفك عن الشيء كالغيم بالنسبة للمطر إهـ . (يُفْرَق بين الصادق) في الدعوى (والكاذب) فيها ، فلا يدعي الإنسان أنه مؤمن كامل إلا إذا كانت محبته للنبي صلى الله عليه وسلم أعظم من محبة من سواه حتى من نفسه . عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُوْنَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِيْنَ" أخرجه البخاري ومسلم وأحمد . وعن عبد الله بن هشام رضي الله عنه قال : "كُنَّا مَعَ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، فَقَالَ : وَاللهِ لَأَنْتَ يَا رَسُوْلَ اللهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِيْ ، فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُوْنَ أَحَبَّ

إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ . فَقَالَ عُمَرُ: فَأَنْتَ الْآنَ وَاللهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِيْ . فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الْآنَ يَاعُمَرُ" أخرجه أحمد والبخاري وغيرهما . قوله : لا يؤمن : أي لا يكمل إيمانه . الآن : أي الآن يكمل إيمانك ياعمر . وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لحارثة بن النعمان : "كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟ قَالَ : أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا حَقًّا ، قَالَ : إِنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيْقَةً فَمَا حَقِيْقَةُ إِيْمَانِكَ؟ فَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللهِ عَزَفَتْ نَفْسِيْ عَنِ الدُّنْيَا ، فَأَسْهَرْتُ لَيْلِيْ ، وَأَظْمَأْتُ نَهَارِيْ ، وَكَأَنِّيْ أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ كَيْفَ يَتَزَاوَرُوْنَ فِيْهَا ، وَإِلَى أَهْلِ النَّارِ كَيْفَ يَتَعَاوَوْنَ فِيْهَا ، فَقَالَ : أَبْصَرْتَ فَالْزَمْ ، ثُمَّ قَالَ : عَبْدٌ نَوَّرَ اللهُ الْإِيْمَانَ فِيْ قَلْبِهِ ، فَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللهِ ادْعُ اللهَ لِيْ بِالشَّهَادَةِ ، فَدَعَا لَهُ ، قَالَ : فَنُوْدِيَ يَوْمًا : يَا خَيْلَ اللهِ ارْكَبِيْ ، فَكَانَ أَوَّلَ فَارِسٍ رَكِبَ ، وَأَوَّلَ فَارِسٍ اسْتُشْهِدَ" . وفي رواية "فَبَلَغَ أُمَّهُ ، فَجَاءَتْ إِلَى رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ : أَخْبِرْنِيْ عَنِ ابْنِيْ ، فَإِنْ يَكُ فِي الْجَنَّةِ فَلَنْ أَبْكِيَ ، وَلَنْ أَجْزَعَ ، وَإِنْ يَكُنْ غَيْرَ ذَلِكَ بَكَيْتُ مَا عِشْتُ فِي الدُّنْيَا قَالَ : أُمَّ حَارِثَةَ ! إِنَّهَا لَيْسَتْ بِجَنَّةٍ ، وَلَكِنَّهَا جَنَّةٌ فِيْ جِنَانٍ ، وَحَارِثَةُ فِي الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى ، فَرَجَعَتْ ، وَهِيَ تَضْحَكُ ، وَتَقُوْلُ : بَخٍ بَخٍ لَكَ يَا حَارِثَةُ" . عزفت نفسي : أي كرِهَتْ . أسهرتُ ليلي : أي بقيام الليل . أظمأتُ نهاري : أي عَطَّشتُه بالصوم . يتعاوون : أي يصيحون . بخ بخ : كلمة تقال للمدح والرضا وتكرر للمبالغة . وكذلك لا يدعي أحد أنه متوكل على الله حقا إلا إذا استوى عنده الأمران جميعا : إصابة حظه من الدنيا ، وفواته ، لأنه إنما توكل على ما سبق ، وهو لا يدري ماذا قضى الله تعالى له من إصابة حظه أو فواته ؟ فالمتوكل الصادق من يتوكل على الله دون ماسواه ، ويفوض أمره إلى الله ما ذا قضى له ؟ فأما من قال : توكلتُ على الله ، وهو

يفرح بحصول الأموال لذاتها ، ولا يؤدي بحقوقها ، ويحزن لفقدها ، ويتعلق توكله بالخلق بحيث يفرح بإقبالهم ويستوحش بإدبارهم ، فهذه العلامات تكذب دعواه . قال الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه : "كُنْ مَعَ الْحَقِّ بِلَا خَلْقٍ وَمَعَ الْخَلْقِ بِلَا نَفْسٍ" إهـ .

✦✦✦✦✦✦✦✦✦

الحكمة السادسة والعشرون

قال رضي الله عنه :

مَنْ تَيَسَّرَتْ لَهُ مَطَالِبُهُ الْأُخْرَوِيَّةُ ، وَتَعَسَّرَتْ عَلَيْهِ مَطَالِبُهُ الدُّنْيَوِيَّةُ ، فَهُوَ مِنْ وَرَثَةِ النَّبِيِّيْنَ .

وَمَنْ تَيَسَّرَتْ مَطَالِبُهُ الدُّنْيَوِيَّةُ وَالْأُخْرَوِيَّةُ ، فَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِيْنِ .

وَمَنْ تَيَسَّرَتْ لَهُ مَطَالِبُهُ الدُّنْيَوِيَّةُ ، وَتَعَسَّرَتْ عَلَيْهِ الْأُخْرَوِيَّةُ ، فَهُوَ مِنَ الْمُسْتَدْرَجِيْنَ .

وَمَنْ تَعَسَّرَتْ عَلَيْهِ مَطَالِبُهُ الْأُخْرَوِيَّةُ وَالدُّنْيَوِيَّةُ ، فَهُوَ مِنَ الْمَمْقُوْتِيْنَ .

(من تيسرت له مطالبه الأخروية) بأن وفقه الله تعالى لفعل الخيرات واجتناب المنكرات (وتعسرت عليه مطالبه الدنيوية) بأن أعطاه الله قليلا من الدنيا ورضي بما قسمه عليه وأدى حقوقه (فهو من ورثة النبيين) الذين سهل الله لهم أعمال الآخرة ، ولم يعطهم من الدنيا إلاما يكفيهم ويقوتهم . فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : "جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : إِنِّي مَجْهُوْدٌ ،

فَأَرْسَلَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ فَقَالَتْ : وَالَّذِيْ بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِيْ إِلَّا مَاءٌ ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُخْرَى فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ ، حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ ، لَا وَالَّذِيْ بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِيْ إِلَّا مَاءٌ ، فَقَالَ : مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللهُ ؟ فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ : أَنَا يَا رَسُوْلَ الله ، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ : هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ ؟ قَالَتْ : لَا ، إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِيْ ، قَالَ : فَعَلِّلِيهِمْ بِشَيْءٍ ، فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ وَأَرِيْهِ أَنَّا نَأْكُلُ ، فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلَ فَقُوْمِيْ إِلَى السِّرَاجِ حَتَّى تُطْفِئِيْهِ ، قَالَ ، فَقَعَدُوْا وَأَكَلَ الضَّيْفُ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : قَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيْعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ" أخرجه مسلم . وفي رواية وقال : وَأَنْزَلَ اللهُ (وَيُؤْثِرُوْنَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) {الحشر : الآية ٩} . مجهود : أي جائع . فعلليهم : أي سكّنيهم . قد عجب الله : أي رضي الله . خصاصة : أي فاقة وحاجة . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه : "أَنَّ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا جَاءَتْ بِكِسْرَةٍ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ قَالَتْ : قُرْصٌ خَبَزْتُهُ ، فَلَمْ تَطِبْ نَفْسِيْ حَتَّى آتِيَكَ بِهَذِهِ الْكِسْرَةِ ، قَالَ : أَمَا إِنَّهُ أَوَّلُ طَعَامٍ دَخَلَ فَمَ أَبِيْكِ مُنْذُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ" رواه الطبراني . كِسرةٍ : أي قطعةٍ من الخبز . قُرْصٌ : أي خُبْزٌ . وروي عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما قال : دَخَلْتُ عَلَى أُمِّيْ - أَيْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، فَقَالَتْ : أَيْ بُنَيَّ . فَقُلْتُ : لَبَّيْكَ ، قَالَتْ : "وَاللهِ إِنْ كُنَّا لَنَمْكُثُ أَرْبَعِيْنَ لَيْلَةً مَا يُوْقَدُ فِيْ بَيْتِ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَارُ مِصْبَاحٍ وَلَا غَيْرِهِ ، فَقُلْتُ : يَا أُمَّهْ ، فَبِمَ كُنْتُمْ تَعِيْشُوْنَ ؟ قَالَتْ : بِالْأَسْوَدَيْنِ الْمَاءِ وَالتَّمْرِ" . إهـ . وقال صلى الله عليه وسلم : "عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّيْ أَنْ يَجْعَلَ لِيْ بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا ، فَقُلْتُ : لَا يَا رَبِّ ، وَلَكِنْ أَجُوْعُ يَوْمًا وَأَشْبَعُ يَوْمًا ، فَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ ، وَذَكَرْتُكَ ، وَإِذَا

شَبِعْتُ حَمِدْتُكَ وَشَكَرْتُكَ" رواه البيهقي عن أبي أمامة رضي الله عنه . بطحاءَ مكةَ : أي أرضَها ورِمَالَها . وفي حاشية البردة البوصيرية للباجوري : أنه روي أن جبريل عليه السلام نزَل عليه صلى الله عليه وسلم فقال له : إِنَّ اللهَ يُقرِئُكَ السَّلَامَ وَيَقُوْلُ لَكَ : أَتُحِبُّ أَنْ تَكُوْنَ لَكَ هَذِهِ الْجِبَالُ ذَهَبًا وَفِضَّةً تَكُوْنُ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ؟ فَأَطْرَقَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ : يَاجِبْرِيْلُ إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لَا دَارَ لَهُ ، وَمَالُ مَنْ لَا مَالَ لَهُ ، يَجْمَعُهَا مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيْلُ : ثَبَّتَكَ اللهُ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ إهـ . قال البوصيري رحمه الله تعالى في بردته :

وَرَاوَدَتْهُ الْجِبَالُ الشُّمُّ مِنْ ذَهَبٍ * عَنْ نَفْسِهِ فَأَرَاهَا أَيَّمَا شَمَمِ
وَأَكَّدَتْ زُهْدَهُ فِيْهَا ضَرُوْرَتُهُ * إِنَّ الضَّرُوْرَةَ لَا تَعْدُوْ عَلَى الْعِصَمِ

راودته الجبال : أي دعته جبال مكة المكرمة . الشم : جمع أشم وهو العالي المرتفع . فأراها أيما شمم : أي أراها شمما عظيما أي إعراضا شديدا . ضرورته : أي حاجته . لا تعدو على العصم : أي لا تتعدى على ذوي العصم وهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام (ومن تيسرت) له (مطالبه الدنيوية) بأن أعطاه الله أموالا طيبة وأدى حقوقها (و) مطالبه (الأخروية) بأن وفقه الله لامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه (فهو من أصحاب اليمين) الذين جمع الله لهم مطالب الدنيا والآخرة ، قال السندي : ولكنهم على قدر تحصيلهم مطالب الدنيا تنقص درجتهم عن درجة ورثة النبيين ، إذ من أخذ من الدنيا شيئا نقص على قدره من الآخرة إهـ . قال الله تعالى : (فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِيْنَ ، فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيْمٍ ، وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِيْنِ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِيْنِ) {الواقعة : الآية ٨٨-٩١} .

فأما إن كان : أي المحتضَر . من المقربين : أي السابقين الأولين ، فروح : أي فله استراحة . ريحان : أي رزق حسن . فسلام لك : أي سلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين (ومن تيسرت له مطالبه الدنيوية) بأن أفاض الله عليه الأموال وافتتن بها (وتعسرت عليه) مطالبه (الأخروية) بأن يعسر عليه فعل الطاعات وترك السيئات (فهو من المستدرَجين) الذين أمدهم الله بالأموال والملاذ الدنيوية مع تماديهم في المعاصي والسيئات ليغتروا ويستمروا على ما كانوا عليه ، قال الله تعالى : (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ، وَأُمْلِيْ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِيْ مَتِيْنٌ) {القلم : الآية ٤٤-٤٥} . سنستدرجهم : أي سنسوق لهم النعم شيئا فشيئا ليغتروا بها . أملي لهم : أي أمهلهم . وأخرج أحمد والطبراني والبيهقي عن عقبة ابن عامر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ مُقِيْمٌ عَلَى مَعَاصِيْهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ" ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قولَه تعالى : (فَلَمَّا نَسُوْا مَا ذُكِّرُوْا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوْا بِمَا أُوْتُوْا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُوْنَ، فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ) {الأنعام : الآية ٤٤-٤٥} . مبلسون : أي آيسون من كل خير . فقطع دابر القوم الذين ظلموا : أي آخرُهم أي أُهلِكوا من أولهم إلى آخرهم (ومن تعسرت عليه مطالبه الأخروية و) مطالبه (الدنيوية) جميعا (فهو من الممقوتين) أي المبغوضين الذين جمع الله لهم عذاب الدنيا والآخرة ، فهو لا يتمتع في الدنيا بلذائذها الفانية ولا في الآخرة بنعمها الباقية ، بل يذوقون فيهما العذاب الأليم . فالحالة الأولى أعلى الأحوال وأكملها عند الله تعالى ، والثانية أقل منها ، والثالثة حالة قبيحة سيئة ، والرابعة أسوأ الأحوال . نسأل الله العافية آمين .

الحكمة السابعة والعشرون

قال رضي الله عنه :

شَرُّ الْفُقَرَاءِ مَنْ يَوَدُّ أَنَّهُ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ ، وَخَيْرُ الْأَغْنِيَاءِ مَنْ لَا يَكْرَهُ أَنْ يَكُوْنَ مِنَ الْفُقَرَاءِ .

(شر الفقراء من يود أنه من الأغنياء) الذين ألهاهم التكاثر في الأموال عن ذكر الله ، والذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم : "مَا أَخْشَى عَلَيْكُمُ الْفَقْرَ وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمُ التَّكَاثُرَ" رواه أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه . فهو كمن يود أكل لحم الميتة عن اللحم الطيب ، ويود شرب المالح عن العذب (وخير الأغنياء من لا يكره أن يكون من الفقراء) الذين طهرهم الله عن أوساخ الدنيا ، واختار لخير خلقه أن يكون منهم . عن حاتم الأصم قال : سمعت شقيقا البلخي يقول : "يافَقِيْرُ لَا تَشْتَغِلْ وَلَا تَتْعَبْ فِيْ طَلَبِ الْغِنَى ، فَإِنَّهُ إِذَا قُسِمَ لَكَ الْفَقْرُ لَا تَكُوْنُ غَنِيًّا". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حق الفقراء : "اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ ، وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ" أخرجه مسلم والترمذي وأئمة الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما . وقال ذوالنون : "عَلَامَةُ سُخْطِ الله تَعَالَى عَلَى الْعَبْدِ خَوْفُهُ مِنَ الْفَقْرِ" . وكان أبو بكر الوراق يقول : "طُوْبَى لِلْفُقَرَاءِ لَا خَرَاجَ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَلَاحِسَابَ فِي الْآخِرَةِ" . طوبى : تأنيث أطْيَب أي الحالة الطيبة . وحكي أن رجلا أتى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فردَّها وقال : "تُرِيْدُ أَنْ تَمْحُوَ اسْمِيْ مِنْ دِيْوَانِ الْفُقَرَاءِ بِهَذَا الْمِقْدَارِ ؟" . وفي هذه الحكمة تفضيل الفقر على الغنى ، وتفضيل الفقير الصابر على الغني الشاكر ، وفي المسألة أقوال ، والمختار أنه يختلف باختلاف الأشخاص ، فالشخص الذي

يستقيم أمره على الغنى ويفسد حاله بالفقر فغناه أفضل من فقره بلا خلاف ، والذي يستقيم أمره على الفقر ويفسده الغنى ففقره أفضل بالإتفاق ، والذي إذا افتقر قام بجميع وظائف الفقر كالرضا والصبر ، وإن استغنى قام بجميع وظائف الغنى من البذل والإحسان وأداء الحقوق ، فقد اختلف العلماء في أي حال هذا أفضل ؟ فإن فسر الأفضل بزيادة الثواب ، فالقياس يقتضي أن المصالح المتعدية أفضل من القاصرة ، فيترجح أن الغني الشاكر أفضل ، وعليه أكثر الفقهاء والمحدثين ، وإن فسر بالأشرف بالنسبة إلى صفات النفس فالذي يحصل لها من التطهير بسبب الفقر أشرف فيترجح أفضلية الفقير الصابر ، ولذا رجحه جمهور الصوفية منهم العارف بالله الجنيد . وحكي عن أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه أنه قال : أُسْرِيَ بروحي فرأيت كأني واقف بين الله ، فسمعت قائلا يقول : يا أبا يزيد ! إن أردت القرب منا فأتنا بما ليس عندنا ، فقلت : يامولاي وأي شيء ليس عندك ولك خزائن السموات والأرض ؟ فسمعتُ : يا أبا يزيد ليس عندي ذل ولا فقر ، فمن أتاني بهما بَلَّغتُه . وحكي أيضا : أنه كان في بني إسرائيل رجل صالح وله زوجة صالحة ، فأوحى الله إلى نبي زمانهما ، قل للعابد : إني قد قضيت أن نصف عمره يمضي في الغنى ، ونصفه في الفقر ، فإن اختار الغنى في شبابه أغنيناه ، أو في كبره فعلنا ، فاختار الغنى في كبره ، لئلا يشتغل بالكسب عن العبادة في آخرعمره ، واختارت الزوجة أن يكون الغنى في صغرها ، لأنه أقوى لها على العبادة ، والكبير لا يليق به إلا الزهد والإنقطاع إلى ربه ، فأوحى الله إلى ذلك النبي عليه السلام قل لهما : لما آثرتما طاعتي واجتهدتما على عبادتي ، قد قضيت أن جميع عمركما يكون في الغنى لتحصل لكما الدنيا والآخرة .

الحكمة الثامنة والعشرون

قال رضي الله عنه :

مَنْ أَمْسَكَ عَنْ تنَاَوُلِ فُضُوْلِ الشَّهَوَاتِ ، وَلَمْ يُنْفِقْ مَا فِيْ يَدَيْهِ مِنْ فُضُوْلِ الْأَمْوَالِ ، فَهُوَ مَحْرُوْمٌ .

وَالَّذِيْ يَتَمَتَّعُ بِمَا فِيْ يَدِهِ مِنَ الدُّنْيَا ، وَيُنْفِقُهُ فِيْ شَهَوَاتِهِ الْمُبَاحَةِ أَحْسَنُ حَالًا مِنْهُ .

(من أمسك عن تناول فضول الشهوات) بحيث يشح بها على نفسه وعلى عياله ، حتى لا يتمتع بها لا لزهد فيها ولكن لحبه لها وحرصه على جمعها (ولم ينفق ما في يديه من فضول الأموال) في الطاعات ووجوه الخيرات لبخله وحرصه (فهومحروم) أي ممنوع من خيري الدنيا والآخرة ، فهولا يتمتع في الدنيا بلذائذها التي يقصدها عبيد الشهوة ، ولا يذوق في الآخرة نعيمها الذي أعد للمقربين وأصحاب اليمين . قال الله تعالى : (وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى) {الليل : الآية ٨ - ١٠} . بخل واستغنى : أي بخل بحق الله واستغنى عن ثوابه . وكذب بالحسنى : أي بلا إله إلا الله . للعسرى : أى للنار . قال صلى الله عليه وسلّم : "يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ أَنْ تَبْذُلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ ، وَأَنْ تُمْسِكَهُ شَرٌّ لَكَ" رواه مسلم عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه . الفضل : أي الزيادة عما يحتاج إليه . وقال صلى الله عليه وسلم : "طَعَامُ السَّخِيِّ دَوَاءٌ وَطَعَامُ الشَّحِيْحِ دَاءٌ" أي لأن السخي أَعطى الطعامَ عن طيب قلب ، بخلاف البخيل . وقال بعض الأدباء : "الْبَخِيْلُ لَيْسَ لَهُ خَلِيْلٌ" . وقال الماوردي في أدب الدنيا والدين :

أنه صلى الله عليه وسلم قال للأنصار : " مَنْ سَيِّدُكُمْ ؟ قَالُوْا : الْحُرُّ بْنُ قَيْسٍ عَلَى بُخْلٍ فِيْهِ ، فَقَـالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ الْبُخْلِ ؟ قَالُوْا : وَكَيْفَ ذَلِكَ يَارَسُوْلَ اللهِ ؟ فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ قَوْمًا نَزَلُوْا بِسَاحِلِ الْبَحْرِ فَكَرِهُوْا لِبُخْلِهِمْ نُزُوْلَ الْأَضْيَافِ بِهِمْ ، فَقَالُوْا : لِيَبْعُدِ الرِّجَـالُ مِنَّا عَنِ النِّسَاءِ حَتَّى يَعْتَذِرَ الرِّجَـالُ إِلَى الْأَضْيَافِ بِبُعْدِ النِّسَاءِ ، وَتَعْتَذِرَ النِّسَاءُ بِبُعْدِ الرِّجَالِ ، فَفَعَلُوْا وَطَالَ ذَلِكَ بِهِمْ ، فَاشْتَغَلَ الرِّجَالُ بِالرِّجَالِ وَالنِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ" إهـ . أيُّ داء إلخ أيْ أَيُّ عيبٍ أقبحُ من البخل . فاشتغل الرجال إلخ أي فلاط الرجالُ بالرجال ، وسحقت النساء بالنساء .

وقال الشاعر في البخيل :

رَأَى الصَّيْفَ مَكْتُوْبًا عَلَى بَابِ دَارِهِ * فَصَحَّفَهُ ضَيْفًا فَقَامَ إِلَى السَّيْفِ
فَقُلْنَـا لَـهُ خَـيْرًا فَظَنَّ بِـأَنَّنَا * نَقُوْلُ لَـهُ خُبْزًا فَمَاتَ مِنَ الْخَوْفِ

وقال آخر :

لَوْ أَنَّ دَارَكَ أَنْبَتَتْ لَكَ وَاحْتَشَتْ * إِبَرًا يَضِيْقُ بِهَـا رَحِيْبُ الْمَنْزِلِ
وَأَتَاكَ يُوْسُفُ يَسْتَعِـيْرُكَ إِبْرَةً * لِيَخِيْطَ قَـدَّ قَمِيْصِهِ لَمْ تَفْعَـلِ

وقال آخر :

يَبْخَلُ بِالْمَـاءِ وَلَوْ أَنَّهُ * مُنْغَمِسٌ فِيْ وَسَطِ النِّيْلِ
شُحًّا فَلَا تَطْمَعْ فِيْ خَيْرِهِ * وَلَوْ تَوَسَّلْتَ بِجِبْرِيْلِ

وحكي أن بعض البخلاء اشترى إبريقا وصحنا ، فقال للفخاري : اكتب لي عليهما ، فقال له : وماذا تريد أن أكتب؟ وكان بعض الظرفاء واقفا عنده ، فقال له :

اكتب على الإبريق "فَمَنْ شَرِبَ فَلَيْسَ مِنِّيْ" ، وعلى الصحن "وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّيْ" فقال : نعم أصلحك الله تعالى (والذي يتمتع بها) كان (في يده من الدنيا ، وينفقه في شهواته المباحة أحسن حالا منه) فإن التمتع بما في يده في مباح من غير إسراف ولا مخيلة ، من شكر نعم الله تعالى . وعن عمرو بن شعيب عن أبيه شعيب عن جده عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : "كُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَتَصَدَّقُوْا فِيْ غَيْرِ سَرَفٍ وَلَا مَخِيْلَةٍ إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ" أخرجه الحاكم . مخيلة : أي تكبر . وقال صلى الله عليه وسلم : "إِذَا آتَاكَ اللهُ مَالًا فَلْيُرَ عَلَيْكَ فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَهُ عَلَى عَبْدِهِ حَسَنًا وَلَا يُحِبُّ الْبُؤْسَ وَلَا التَّبَاؤُسَ" أخرجه البخاري والطبراني والضياء عن زهير بن أبي علقمة الضبعي . البؤس : الخضوع والذلة ورثاثة الحال ، والتباؤس : إظهار البؤسِ والتمَسْكُنِ والشكاية . قال السندي : وأما ما ينفقه في شهواته المحرمة فهو أقبح الكل حيث توصل بنعمة الله تعالى إلى معصيته التي توجب نقمته إهـ .



الحكمة التاسعة والعشرون

قال رضي الله عنه :

لَا يَكْمُلُ حَالُ الدَّاعِيْ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِيْنَ ، حَتَّى يَصِيْرَ قَوْلُهُ وَفِعْلُهُ حُجَّةً عَلَى جَمِيْعِ الْمُؤْمِنِيْنَ .

(لا يكمل حال الداعي إلى رب العالمين) المبلغ شريعته والمبين معالم دينه (حتى

يصير قوله) الفصيح (وفعله) المليح (حجة على جميع المؤمنين) بأن يكون متأسيا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، عالما بمنهج الدعوة إلى دين الله ، عارفا بأسلوبها الحكيم ، مخلصا في دعوته لله تعالى ، يكون قوله مصدقا لفعله ، وفعله لقوله ، ولا يرجو فيها مدح مادح ولا يخاف فيها لومة لائم ، فهذا هو الداعي الذي بقوله وفعله ينتفع الناس ، ويقتدي به كل منصف لم يكن في قلبه رانٌ ولا باس . وقد بين الله تعالى في كتابه الكريم مناهج الدعوة إلى الله تعالى وأساليبها ، وفصَّلها العلماء في كتبهم بما يشترط في الداعي والمدعو إليه ، ومراعاة الأحوال المناسبة ، كي تكون الدعوة مقبولة نافعة ، فمِنْ أجمع أساليب الدعوة ومن أهم شروطها أن يكون قول الداعي يوافق فعله ، قال تعالى : (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا) {فصلت : الآية ٣٣ } وقال تعالى عن شعيب عليه الصلاة والسلام : (وَمَا أُرِيْدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ) {هود : الآية ٨٨} . وقال بعض الأدباء : "ادْعُ النَّاسَ بِفِعْلِكَ قَبْلَ قَوْلِكَ" . وإذا كان الداعي لا يوافق قوله فعله ، فدعوته هباء منثور ، وكانت حجة عليه . قال تعالى : (أَتَأْمُرُوْنَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ) {البقرة : الآية ٤٤} . وقال تعالى : (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُوْلُوْا مَا لَا تَفْعَلُوْنَ) {الصف : الآية ٣} . مقتا : أي غضبا . وأن تكون الدعوة بلطف ورفق ، وإلا بأن تكون بعنف وقسوة وخشونة فلا تنفع الدعوة ، بل تزيد المدعوَّ إليه نفرة وعنادا ، فلا يحصل مقصود الدعوة . قال تعالى : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيْظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوْا مِنْ حَوْلِكَ) {آل عمران : الآية ١٥٩} . فظا : أي سيئ الخُلُق . انفضوا : أي تفرقوا . وقال تعالى : (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ) {الأنعام : الآية ١٠٨} . يدعون

من دون الله : أي يعبدون غير الله تعالى . عدوا : أي ظلما . بغير علم : أي بجهلٍ بالله . وقال تعالى لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام في شأن فرعون : (فَقُوْلَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) {طه : الآية ٤٤} . وقال تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام في فرعون : (فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ، وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى) {النازعات : الآية ١٨-١٩} . وأن تكون الدعوة بالأسلوب الحكيم المناسب للمدعو إليه . قال تعالى : (ادْعُ إِلَى سَبِيْلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِيْ هِيَ أَحْسَنُ) {النحل : الآية ١٢٥} . أي ادع إلى سبيل ربك بالحكمة أي الأسلوب المناسب لهم الـذي يقرب إلى الله سبحانه وتعالى مع الرفق واللين ، وذلك بأن تدعو أهل الرياسة إلى العدل والشفقة ، وتدعو الأغنياء إلى أداء حقوق الأموال والتوسيع على الفقراء وأصحاب الحاجة ، وتدعو الفقراء إلى الصبر والقناعة ، والمتعلمين إلى الرغبة والإجتهاد والإخلاص في تحصيل العلم ، والمعلمين إلى بذل المجهود في نشره ، والنساء إلى الحياء والعفة ، وهكذا . وقد قيل : "خَاطِبُوْا النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُوْلِـهِمْ" وقيل للجنيد رضي الله عنه : يسألك الرجلان فتجيب هذا بخلاف ما تجيب به هذا ؟ فقال : "الْجَوَابُ عَلَى قَدْرِ السَّائِلِ" . والموعظة الحسنة : هي مواعظ القرآن ، وقال بعضهم : الموعظة الحسنة هي أن تختلط الرغبة بالرهبة ، والإنذار بالبشارة . وجادلهم بالتي هي أحسن : أي جادلهم بأحسن طرق المجادلة بالرفق واللين . والأمر بالمعروف له ثلاث حكم : الأولى : إقامة حجة الله على خلقه . والثانية : خروج الآمِر من عهدة التكليف بالأمر بالمعروف . والثالثة : رجاء النفع بأمره .

❖ ❖ ❖

الحكمة الثلاثون

قال رضي الله عنه :

إِذَا رَأَيْتَ الْعَالِمَ يُفِيْدُ بِقَوْلِهِ دُوْنَ فِعْلِهِ ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ نَاقِصٌ . وَإِذَا رَأَيْتَ الْمُتَعَلِّمَ تُفِيْدُهُ الْأَقْوَالُ ، وَلَا تُؤَدِّبُهُ الْأَفْعَالُ ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ عَنِ التَّحْصِيْلِ نَاكِصٌ . وَإِذَا رَأَيْتَ الطَّالِبَ يَنْتَفِعُ بِأَقْوَالِ شَيْخِهِ ، وَلَا يَنْتَفِعُ بِأَفْعَالِهِ ، فَانْظُرْ فَإِنْ لَمْ تَرَ فِيْ أَفْعَالِ الشَّيْخِ مَا تَحْصُلُ بِهِ الْفَائِدَةُ ، فَلَيْسَ بِشَيْءٍ . وَإِذَا رَأَيْتَ أَفْعَالَهُ تُفِيْدُ ، وَلَكِنْ لَا يُحْسِنُ الطَّالِبُ أَنْ يَسْتَفِيْدَ ، فَلَا تَعْتَدَّ بِهِ .

(إذا رأيت العالم يفيد بقوله دون فعله) بأن كان قوله موافقا للشرع لكنه يفعل خلاف ما يقول أو لا يفعل ما يقوله (فاعلم أنه) أي العالم (ناقص) وليس بكامل . قال الشيخ السندي : وهذا حال غالب حملة العلوم إهـ . نسأل الله العافية . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه جاءه رجل فقال له : "يَا ابْنَ عَبَّاسٍ إِنِّيْ أُرِيْدُ أَنْ آمُرَ بِالْمَعْرُوْفِ ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَوَ بَلَغْتَ ذَلِكَ؟ فَقَالَ أَرْجُوْ، قَالَ : فَإِنْ لَمْ تَخْشَ أَنْ تُفْتَضَحَ بِثَلَاثَةِ أَحْرُفٍ فِيْ كِتَابِ اللهِ فَافْعَلْ ، قَالَ : وَمَا هِيَ؟ قَالَ : قولُه تعالى : (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ) {البقرة : الآية ٤٤} ، وقولُه تعالى : (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُوْلُوْا مَا لَا تَفْعَلُوْنَ) {الصف : الآية ٣}، وقولُه تعالى عن قول شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه : (وَمَا أُرِيْدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ) {هود : الآية ٨٨} . فينبغي للمتعلم أن لا يسمع قول العالم الذي يأخذ العلم منه فقط بل ينظر إلى أحواله وأفعاله ، فإن علّمك بألفاظه وألحاظه وأفعاله التي تقربك إلى الله تعالى ، فاتخذه شيخا لك وتبرّكْ به ، فإنه عالم عارف

من أهل الكمال ، لَفْظه دواء ولَحْظه شفاء ، نوَّر اللهُ قلبَه بنوره ومعرفته ، فجرى النور على جوارحه ولسانه . وعزيزٌ مَّا هُمْ في هذا الزمان ، الذي عم فيه الفسق والطغيان . قال محمد بن سيرين رحمه الله تعالى : "إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِيْنٌ ، فَانْظُرُوْا عَمَّنْ تَأْخُذُوْنَ دِيْنَكُمْ" . وفي الإنجيل : "هَلْ يَسْتَطِيْعُ أَعْمَى أَنْ يَقُوْدَ أَعْمَى ، أَلَيْسَ يَقَعَانِ كِلَاهُمَا فِيْ بِئْرٍ" . قال أبو يزيد البسطامي رحمه الله تعالى : "وُصِفَ لِيْ عَابِدٌ ، فَقَصَدْتُ زِيَارَتَهُ ، فَرَأَيْتُهُ قَدْ بَصَقَ إِلَى جِهَةِ الْقِبْلَةِ ، فَرَجَعْتُ عَنْ زِيَارَتِهِ ، لِأَنَّهُ غَيْرُ مَأْمُوْنٍ عَلَى أَدَبٍ مِنْ آدَابِ الشَّرِيْعَةِ ، فَكَيْفَ يَكُوْنُ مَأْمُوْنًا مِنَ الْأَسْرَارِ؟".

وعن مغيرة بن إبراهيم رحمه الله تعالى قال : "كَانُوْا إِذَا أَرَادُوْا أَنْ يَأْخُذُوْا عَنِ الرَّجُلِ نَظَرُوْا إِلَى صَلَاتِهِ ، وَإِلَى هَيْئَتِهِ ، وَإِلَى سَمْتِهِ" . قال شيخنا العلامة السيد عمر الجيلاني حفظه الله تعالى ما معناه : هذا في الزمن القديم فقد كان الناس يختارون فيه الشيوخ الذين جمعوا العلم والصلاح والعمل ، وأما في هذا الزمان فقد قل العلماء العاملون ، وذهب المربون الصالحون ، فمن وجد من العلماء والمربين بصفة ولو على أدنى صفات أهل الكمال ، فاتخِذْه شيخا واستفِدْ منه ، وإلا فيضيع العلم ويزداد الجهل ، ولكن يطلب حسن الظن بالشيخ . فقد قيل : لا تستفد من أستاذك إلا إذا أحسنتَ به الظن ، وإلا فلا تحصل لك منه الفائدة إهـ .

(وإذا رأيت المتعلم تفيده الأقوال ، ولا تؤدبه الأفعال) الصادرة من الدعاة إلى الله تعالى بأقوالهم وأفعالهم (فاعلم أنه) أي المتعلم (عن التحصيل ناكص) أي راجع على عقبيه القهقرَى ، زائغ عن غاية التحصيل ، نازل عن دائرة الكمال إلى دائرة النقص ، فالمتعلم الكامل هوالذي تفيده الأقوال وتؤدبه الأفعال ، فتتحسن بذلك أحواله ، ويكون فائزا بثمرة علمه التي هي العمل على وفق علمه . قيل : "مَا أَكْثَرَ

الشَّجَرَ وَلَيْسَ كُلُّهُ بِمُثْمِرٍ ، وَمَا أَكْثَرَ الثَّمَرَ وَلَيْسَ كُلُّهُ بِحُلْوٍ ، فَاطْلُبْ مِنَ الشَّجَرِ مَا أَثْمَرَ ، وَمِنَ الثَّمَرِ مَا كَانَ حُلْوًا" . أي فاطلب من العلم ما كان نافعا لك ولغيرك .

(وإذا رأيت الطالب) للسلوك إلى الله تعالى والوصول إلى معرفته ومحبته (ينتفع بأقوال شيخه ولا ينتفع بأفعاله) قال السندي : بأن لا يقتدي به فيها (فانظر) فيما يفعله الشيخ (فإن لم تر في أفعال الشيخ ما تحصل به الفائدة) بأن تكون أفعاله غيرمقربة إلى الله تعالى (فليس) الشيخ (بشيء) يلتفت إليه ويعبأ بفعله في السلوك إلى الله ، ويكون الطالب موفقا ميسرا للخير مهيأً للكمال حيث لم يقتد بشيخه في أفعاله التي لا فائدة فيها (وإذا رأيت أفعالـه تفيد) لكونها مطابقة للشرع (ولكن لا يُحْسِن الطالبُ أن يستفيد) منها لعدم قابليته للاستفادة (فلا تعتدَّ به) أي بالطالب ، لأنه ليس أهلا للتحصيل والإستفادة ، قال السندي : إذِ الطالب الحاذق يستفيد من أفعال مرشده المتشرِّع مثل ما يستفيد من أقواله ، بل أزيد إهـ .

✦✦✦✦✦✦✦✦

الحكمة الحادية والثلاثون

قال رضي الله عنه :

مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُوْصَفَ بِمَا لَيْسَ عِنْدَهُ مِنَ الْخَـيْرِ ، وَكَرِهَ أَنْ يُذْكَرَ بِمَا فِيْهِ مِنَ الشَّرِّ ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ مُرَاءٍ .

(من أحب أن يوصف بما ليس عنده من الخير) كأن يوصف بأنه زاهد في الدنيا متقرب إلى الله تعالى لمظهره الخَدَّاع ، وهو في باطنه متلطخ بحب الدنيا وزخارفها

(وكره أن يذكر بما فيه من الشر) كالتلطخ بالدنيا الدنية (فاعلم أنه مراء) يحب أن يحمده الناس على ما لم يستحق أن يحمد به، ويزين ظاهره للناس مع خراب باطنه، فيغر غيره ويخدعه . وصفته كصفة المنافقين الذين قال الله تعالى فيهم : (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ يَفْرَحُوْنَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّوْنَ أَنْ يُحْمَدُوْا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوْا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ) {آل عمران : الآية ١٨٨} . بما أتوا : أي من إضلال الناس وتدليسهم عليك يا محمد . ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا : أي من التمسك بالحق وهم على ضلال . بمفازة : أي بمكان ينجون فيه . وقيل نزلت الآية في اليهود . وهذه الآية تتناول كلَّ من أتى بحسنة وفَرِحَ بها فَرَحَ إعجاب ، وأحب أن يحمده الناس ويثنوا عليه بما ليس فيه ، وتدل على أن تزيُّنَ الإنسان بما ليس يستحقه باطنا ، وحُبَّه أن يوصف ويمدح عليه به مذموم شرعًا . فينبغي للعاقل أن لا يدعي شيئا مما ليس هو من أهله ، ولا يحب أن يوصف بما ليس عنده ، فمن عمل عملا ليس له ، أوقال قولا أو كتب كتابا كذلك ثم ينسبه إلى نفسه ليمدحه الناس ، فهو مذموم ومغرور وضال يَضل به ويُضِل غيره . قال صلى الله عليه وسلم : "مَنِ ادَّعَى دَعْوَى كَاذِبَةً لِيَتَكَثَّرَ بِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللهُ إِلَّا قِلَّةً" أخرجه الشيخان . وقال صلى الله عليه وسلم: " اَلْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُوْرٍ " أخرجه الشيخان أيضا . والمتشبع هو الذي يُظهر الشِّبَع وليس بشبعان . والمعنى : أن المتظاهر بما ليس عنده كلابس ثوبي زور ، قال النووي في شرح مسلم : قال أبو عبيد وآخرون : هو الذي يلبس ثياب أهل الزهد والعبادة والورع ، ومقصوده أن يظهر للناس أنه متصف بتلك الصفة ، ويظهر من التخشع والزهد أكثر مما في قلبه ، فهذه ثياب زور ورياء . وقيل : هو كمن لبس ثوبين لغيره ، وأوهم أنهما له . وقيل :

هو من يلبس قميصا واحدا ويصل بكميه كمين آخرين ، فيظهر أن عليه قميصين إهـ . وكذلك من أحب أن يوصف بالعلم وهو غير متصف به ، ربما استفتاه أحد عن واقعة من الوقائع فتصدر للفتوى وأجاب بغير علم وتثبت ، فيكون بذلك ضالا ومضلا . قال الشبلي : "مَنْ تَصَدَّرَ قَبْلَ أَوَانِهِ فَقَدْ تَصَدَّى لِهَوَانِهِ" . فينبغي لنا أن نقوم على أعمالنا ولا نعتمد على أعمال غيرنا ، وليس المعنى أنه لا يجوز لنا الإعتزاز بصالح أعمال الآباء الأمجاد ، والإفتخار بمآثر الأجداد ، فإن ذلك أمر محمود إذا كان دافعا على الإقتداء بهم ، ولكن لا نتكبر بذلك ولا نتكل عليه ، فإنهم إنما فازوا بما فازوا من الخير والزهد والعلم وغيرها مما يمدحون به بعباداتهم واجتهاداتهم ورياضاتهم ، قال صلى الله عليه وسلم : "مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ إِلَيْهِ نَسَبُهُ" . وقال الشاعر:

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كرُمَتْ * يَوْمًا عَلَى الْأَحْسَابِ نَتَّكِلُ
نَبْنِيْ كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا * تَبْنِيْ وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوْا

وقال آخر :

كُنِ ابْنَ مَنْ شِئْتَ وَاكْتَسِبْ أَدَبًا * يُغْنِيْكَ مَحْمُوْدُهُ عَنِ النَّسَبِ
إِنَّ الْفَتَى مَنْ يَقُوْلُ هَا أَنَا ذَا * لَيْسَ الْفَتَى مَنْ يَقُوْلُ كَانَ أَبِيْ

وقال آخر :

لَعَمْرُكَ مَا الْإِنْسَانُ إِلَّا بِدِيْنِهِ * فَلَا تَتْرُكِ التَّقْوَى اتِّكَالًا عَلَى النَّسَبْ
فَقَدْ رَفَعَ الْإِسْلَامُ سَلْمَانَ فَارِسٍ * وَقَدْ وَضَعَ الشِّرْكُ النَّسِيْبَ أَبَا لَهَبْ

قال بعض الحكماء : علماء السوء ضربان ضربٌ مُكِبٌّ على حطام الدنيا لا يسأم ولا يمل ، قد أخذ بقلبه حبُّها وألزمَه خوف الفقر ، فهو كالهمج - أي الأرذال - يتقلب في المزابل من عذرة إلى عذرة ، ولا يتأذى بسوء رائحتها ، وإكبابه عليها كإكباب الخنازير فمسخوا في صورة الخنازير . وضرب أهل تصنعٍ ودهاءٍ ومخادعةٍ وتزينٍ للمخلوقين ، شُحًّا على رياستهم ، يتبعون الشهوات ، ويلتقطون الرخص ، ويخادعون الله بالحيل في أمور دينهم ، فاطمأنوا إلى الدنيا وأسبابها ، ورضوا من العلم بالقول دون الفعل ، فإذا حل بهم السخط مسخوا قردة ، فإن القردة جبلت على الخداع واللعب والبطالة ، وشأن الخنزير الإكباب على المزابل والعذرة .

✦ ✦ ✦ ✦ ✦ ✦ ✦ ✦ ✦

الحكمة الثانية والثلاثون

قال رضي الله عنه :

كَثِيْرًا مَّا يَلْتَبِسُ الْحَيَاءُ الْمَحْمُوْدُ بِالْجُبْنِ الْمَذْمُوْمِ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا : أَنَّ كُلَّ حَيَاءٍ حَمَلَكَ عَلَى تَرْكِ خَيْرٍ وَوَقَعْتَ بِسَبَبِهِ فِيْ شَرٍّ ، فَهُوَ الْجُبْنُ الْمَذْمُوْمُ ، وَلَيْسَ بِالْحَيَاءِ ، لِأَنَّ الْحَيَاءَ لَايَأْتِيْ إِلَّا بِخَيْرٍ . كَمَا فِي الْحَدِيْثِ

(كثيرا ما) أيْ كثيرا جِدًّا (يلتبس الحياء المحمود) شرعا وهو الحياء من فعل المناهي والمذموم (بالجبن المذموم) وهو الخوف والخجل والإنطواء عما حثه الشرع على فعله (والفرق بينهما أن كل حياء حملك) أي دعاك (على ترك خير) كدرس علم وتدريسه (ووقعتَ بسببه في شر) كترك أمر بالمعروف أونهي عن المنكر (فهو

الجبن المذموم) الذي هو ضد الشجاعة (وليس بالحياء) الشرعي المحمود (لأن الحياء) الشرعي (لايأتي إلا بخير) لأن المستحيي حقيقة يعلم أن الله يرى جميع أعماله ، فلا يضيع فريضة ، ولايفعل معصية ، أو قبيحا مما يذم به ويخرم مروءته (كما في الحديث) الذي رواه البخاري ومسلم عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الْحَيَاءُ لَا يَأْتِيْ إِلَّا بِخَيْرٍ" .
فالحياء الشرعي هي الجبلة الرادعة عن فعل القبيح ، وهو الحاجز بين فعل المعاصي وتركها ، كالسَدِّ فهو إذا انهار انهمر الماء وأغرق كل شيء أمامه ، كذلك الذي لا حياء له فَعَل كل شيء شاءه ، ولا رادع له . قال صلى الله عليه وسلم : "إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ " رواه البخاري في الأدب المفرد عن ابن مسعود رضي الله عنه . وقال الشاعر :

وَرُبَّ قَبِيْحَةٍ مَـا حَالَ بَيْنِيْ * وَبَيْنَ رُكُوْبِهَـا إِلَّا الْحَيَاءُ
فَكَانَ هُوَ الدَّوَاءَ لَهَا وَلَكِنْ * إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ فَلَا دَوَاءُ

وقال آخر :

إِذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ اللَّيَالِيْ * وَلَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَـا تَشَاءُ
فَلَا وَاللهِ مَـا فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ * وَلَا الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ
يَعِيْشُ الْمَرْءُ مَا اسْتَحْيَا بِخَيْرٍ * وَيَبْقَى الْعُوْدُ مَـا بَقِيَ اللِّحَاءُ

أي يبقى العود غضا طريا ما بقيت القشرة الخضراء .
وقال صلى الله عليه وسلم : " الْحَيَاءُ وَالْعِيُّ شُعْبَتَانِ مِنَ الْإِيْمَانِ ، وَالْبَذَاءُ وَالْبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنَ النِّفَاقِ" رواه الترمذي عن أبي أمامة رضي الله عنه . العي بكسر العين

المهملة : هو سكوت اللسان مع القدرة على النطق تحرزا عن الوقوع في البهتان . والبذاء : هو الفحش في القول . والبيان : هو التعمق والتفصح بالنطق وإظهار التقدم على الناس فيه . وقال صلى الله عليه وسلم : "الْحَيَاءُ مِنَ الإِيْمَانِ ، وَالإِيْمَانُ فِي الْجَنَّةِ ، وَالْبَذَاءُ مِنَ الْجَفَاءِ ، وَالْجَفَاءُ فِي النَّارِ" رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه . قال العلماء : الحياء في الإنسان يكون من ثلاثة أوجه : الأول الحياء من الله تعالى ويكون بامتثال الأوامر واجتناب النواهي . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اسْتَحْيُوْا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ ، مَنِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ فَلْيَحْفَظِ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى وَلْيَحْفَظِ الْبَطْنَ وَمَا حَوَى وَلْيَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالْبِلَى ، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِيْنَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ" حديث حسن رواه الترمذي وأحمد والحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه . البلى : أي تفتت الأعضاء . والثاني الحياء من الناس ويكون بكف الأذى وترك المجاهرة بالقبيح . قيل : "مَنِ اتَّقَى اللهَ اتَّقَى النَّاسَ" . وقال تعالى في زكريا عليه السلام : (إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ، قَالَ رَبِّ إِنِّيْ وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّيْ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ، وَإِنِّيْ خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِيْ وَكَانَتِ امْرَأَتِيْ عَاقِرًا فَهَبْ لِيْ مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ، يَرِثُنِيْ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوْبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا) {مريم : الآية ٣-٦} . نادى ربه نداء خفيا : أي دعا ربه دعاء سرا يسأله الولد . خفتُ الموالي : أي خشيتُ بني عمي أن يضيعوا الدين بعد موتي . عاقرا : أي لا تلد أصلا . فهب لي من لدنك وليا : أي ارزقني من عندك ولدا . قيل : إنما أخفى دعاءه استحياء من الناس أن يلوموه على طلب الولد ، في حالة لا يمكن فيها الولد عادةً لكبَرِ سنه وسن امرأته ، وكونها عاقرًا . وقيل : أخفاه لأنه طلب أمرا دنيويا ، والأظهر

أن السر في إخفائه هو أن إخفاء الدعاء أفضل من الجهر فيه . وقد يكون هذا الحياء محمودا وقد يكون مذموما . قال الحليمي رحمه الله : وإذا حافظ على الجماعة استحيا من الناس فهو على وجهين : أحدهما أن يخاف ذم الجيران إياه فلا يفارق المسجد ليحمدوه ويثنوا عليه خيرا فهذا رياء وليس بمحمود ، والآخر أن يكون حياؤه من الله عز وجل بالحقيقة ، فيخشى أنه إن فارق الجماعة كان من عاجل عقوبة الله إياه أن يبسط المسلمون فيه ألسنتهم بالذم ، وإن كان معها كان من عاجل ما يثنيه الله تعالى به أن يطلق المسلمون ألسنتهم فيه بالمدح ، فيكون خوفه ذم الناس وحبه مدحهم متعلقا بالله عز وجل لا بغيره ، فهذا محمود إهـ . ويكون الوجه الأول مذموما لحب المدح والثناء من الناس ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم : " مَنْ أَلْقَى جِلْبَابَ الْحَيَاءِ فَلَا غِيْبَةَ لَهُ " رواه البيهقي عن أنس رضي الله عنه . الجلباب : هو الثوب الذي يستتر به . ومعنى الحديث : مَن تَركَ الحياء وتجاهر في فعل القبيح فلا غيبة له إذا ذكر بما فيه فقط ليعرف فيحذر . والوجه الثاني من كمال المروءة . وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال ، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : "أَخْبِرُوْنِيْ بِشَجَرَةٍ مَثَلُهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ ، تُؤْتِيْ أُكُلَهَا كُلَّ حِيْنٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا لَا تَحُتُّ-أي لا تُسقِط- وَرَقَهَا" ، فَوَقَعَ فِيْ نَفْسِي النَّخْلَةُ ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ وَثَمَّ أَبُوْ بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فَلَمَّا لَمْ يَتَكَلَّمَا ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "هِيَ النَّخْلَةُ" ، فَلَمَّا خَرَجْتُ مَعَ أَبِيْ قُلْتُ : يَا أَبَتِ وَقَعَ فِيْ نَفْسِي النَّخْلَةُ ، قَالَ : مَا مَنَعَكَ أَنْ تَقُوْلَهَا ؟ لَوْ كُنْتَ قُلْتَهَا كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا . قَالَ : مَا مَنَعَنِيْ إِلَّا لَمْ أَرَكَ وَلَا أَبَا بَكْرٍ تَكَلَّمْتُمَا فَكَرِهْتُ . وفي رواية : أنه قال : وَوَقَعَ فِيْ نَفْسِيْ أَنَّهَا النَّخْلَةُ وَأَرَدْتُ أَنْ أَقُوْلَهَا ، فَإِذَا أَنَا أَصْغَرُ الْقَوْمِ فَاسْتَحْيَيْتُ . وهذا من كمال مروءة

ابن عمر وإنصافه وتواضعه رضي الله عنهم أجمعين . والثالث الحياء من نفسه ، ويكون بالعفة والصيانة في الخلوة . وروي : "مَا كَرِهْتَ أَنْ يَرَاهُ النَّاسُ مِنْكَ فَلَا تَفْعَلْهُ بِنَفْسِكَ إِذَا خَلَوْتَ" رواه ابن حبان عن أسامة بن شريك . وقال بعض الأدباء : "مَنْ عَمِلَ فِي السِّرِّ عَمَلًا يَسْتَحْيِي مِنْهُ فِي الْعَلَانِيَّةِ فَلَيْسَ لِنَفْسِهِ عِنْدَهُ قَدْرٌ" . أي منزلة ، فكيف يرجو ذلك عند غيره ؟ . وأما الجبن المذموم الذي هو الحياء بمعنى الخجل وعدم الشجاعة فقد تعوذ صلى الله عليه وسلم منه كثيرا . فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : "كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَعَوَّذُ مِنْ خَمْسٍ : مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَسُوْءِ الْعُمُرِ وَفِتْنَةِ الصَّدْرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ" أخرجه أبوداود . الجبن : ضد الشجاعة . البخل : ضد الكرم . سوء العمر : فساد العقل من الكبر . فتنة الصدر : هو أن يموت غير تائب كما قاله ابن الجوزي . ومن الحياء المذموم الحياء في طلب العلم والسؤال عنه والبحث عن أمر الدين . قال مجاهد رحمه الله : "لَا يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ مُسْتَحٍ وَلَا مُسْتَكْبِرٌ" . وقالت عائشة رضي الله عنها : "نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ لَمْ يَمْنَعْهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّيْنِ" رواه مسلم .

✦✦✦✦✦✦✦✦✦

الحكمة الثالثة والثلاثون

قال رضي الله عنه :

مَنْ أَهْمَلَ الصِّدْقَ حَيْثُ يَخَافُ ، اسْتَعْمَلَ الْكَذِبَ حَيْثُ يَرْجُوْ .

(من أهمل) أي ترك (الصدق حيث يخاف) الضرر من صدقه (استعمل الكذب حيث يرجو) النفع من كذبه ، والصدق في اللغة : مطابقة الحكم للواقع ، وفي

اصطلاح أهل الحقيقة : قول الحق في مواطن الهلاك ، وقيل : أن تَصْدُق في موضع لا ينجيك منه إلا الكذب . قال القشيري : الصدق أن لا يكون في أحوالك شوب، ولا في اعتقادك ريب ، ولا في أعمالك عيب . وقيل : الصدق هو ضد الكذب ، وهو الإبانة عما يخبر به على ما كان . قاله في التعريفات . والكذب هو الإخبار عن الشيء بخلاف ماهو عليه مع العلم به ، وهوضد الصدق . فينبغي للعاقل أن يتحرى الصدق في جميع أحواله ، حتى في حالة يظن أن الصدق فيها يضر نفسه ، فإن من ترك الصدق عند خوفه استعمل الكذب عند ظن النفع بكذبه ، وهذا مذموم شرعا وعادة ، وليعلم أن الصدق ينجيه من الهلكة ، قال الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُوْنُوْا مَعَ الصَّادِقِيْنَ) {التوبة : الآية ١١٩} . قال كعب بن مالك رضي الله عنه في قصة تخلفه عن غزوة تبوك ونزول توبته : يَا رَسُوْلَ اللهِ إِنَّ اللهَ إِنَّمَا أَنْجَانِيْ بِالصِّدْقِ ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِيْ أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيْتُ ، قال : فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ أَبْلَاهُ اللهُ فِيْ صِدْقِ الْحَدِيْثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى يَوْمِيْ هَذَا أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِيَ اللهُ بِهِ ، وَاللهِ مَا تَعَمَّدْتُ كَذْبَةً مُنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى يَوْمِيْ هَذَا ، وَإِنِّيْ لَأَرْجُوْ أَنْ يَحْفَظَنِيَ اللهُ فِيْمَا بَقِيَ ، قَالَ : فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ (لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِيْنَ وَالْأَنصَارِ الَّذِيْنَ اتَّبَعُوْهُ فِيْ سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيْغُ قُلُوْبُ فَرِيْقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوْفٌ رَحِيْمٌ ، وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِيْنَ خُلِّفُوْا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوْا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوْبُوْا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيْمُ ، يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُوْنُوْا مَعَ الصَّادِقِيْنَ) {التوبة : الآية ١١٧-١١٩} إلى آخر

الحديث الطويل . رواه مسلم . ساعة العسرة : هي وقت غزوة تبوك كانوا في ضيق من العيش وشدة الحر والجوع والعطش مما يدعو إلى عدم متابعة النبي للغزو ، حتى كان الرجلان يقتسمان التمرة بينهما ، والعشرة يعتقبون البعير الواحد ، وروي : أنهم عطشوا عطشا شديدا حتى نحروا الإبل وعصروا كَرِشها وشربوا ما فيها . يزيغ : يميل عن اتباع النبي لما فيهم من الشدة . خلفوا : أي أُخِّروا عن التوبة عليهم . بما رحبت : أي مع رحبها وسعتها . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "التَّاجِرُ الصَّدُوْقُ مَعَ النَّبِيِّيْنَ وَالصِّدِّيْقِيْنَ وَالشُّهَدَاءِ" أخرجه الحاكم . وعن حكيم بن حزام قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُوْرِكَ لَهُمَا فِيْ بَيْعِهِمَا وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا " رواه مسلم . وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِيْ إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِيْ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيْقًا ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِيْ إِلَى الْفُجُوْرِ ، وَإِنَّ الْفُجُوْرَ يَهْدِيْ إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا" أخرجه البخاري ومسلم . يتحرى : أي يقصد ويبالغ . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : "أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيْهِ فَقَدْ رَبِحَ : الصِّدْقُ ، وَالْحَيَاءُ ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ ، وَالشُّكْرُ " . وقال بشر بن الحارث : "مَنْ عَامَلَ اللهَ بِالصِّدْقِ اسْتَوْحَشَ مِنَ النَّاسِ" . وقال أبو سليمان الداراني : "اجْعَلِ الصِّدْقَ مَطِيَّتَكَ ، وَالْحَقَّ سَيْفَكَ ، وَاللهَ تَعَالَى غَايَةَ طَلَبِكَ" . مطيتك : أي مركوبك . وقال بعضهم : الصدق أنواع : الصدق في القول : وهو أن يكون قوله موافقا للواقع ، والصدق

في العمل : وهو أن يجتهد في أن يكون عمله في الظاهر يدل على ما كان في باطنه، والصدق في النية : وهو أن يكون عمله لله تعالى، والصدق في الوفاء : كأن يقول مثلا : إن رزقني الله مالًا تصدقت به ، والصدق في مقامات الدين كالصدق في الخوف والرجاء ، والزهد والحب ، والتوكل على الله وغيرها . إهـ . وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض ، فإن كان صادقا في جميع هذه الأمور فهو الصادق حقا ، وهذا عزيز جدا ، ولا يصل إلى هذه المرتبة إلا الكاملون من الأنبياء والمرسلين والعارفين بالله . وحكي عن سلطان الأولياء الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه أنه قال : "بنيتُ أمري من حين ما نشأتُ على الصدق ، وذلك أني خرجت من مكة إلى بغداد أطلب العلم ، فأعطتني أمي أربعين دينارا ، أستعين بها على النفقة ، وعاهدتني على الصدق ، فلما وصلنا أرض همذان خرج علينا جماعة من اللصوص ، فأخذوا القافلة ، فمرَّ واحدٌ منهم وقال لي : ما معك ؟ قلت : أربعون دينارا ، فظن أني أهزأ به فتركني ، فرآني رجل آخر ، فقال : ما معك ؟ فأخبرته بهامعي ، فأخذني إلى كبيرهم ، فسألني فأخبرته ، فقال : ما حملك على الصدق ؟ قلت : عاهدتني أمي على الصدق ، فأخاف أن أخون عهدها ! فأخذت الخشية رئيس اللصوص ، فصاح ومزق ثيابه وقال : أنت تخاف أن تخون عهد أمك ، وأنا لا أخاف أن أخون عهد الله ؟! ثم أمر برد مـا أخذوه من القافلة ، وقال : أنا تائب لله على يديك ، فقال من معه : أنت كبيرنا في قطع الطريق ، وأنت اليوم كبيرنا في التوبة ، فتابوا جميعا ببركة الصدق" . وإذا وجب الصدق في كل الأحوال ، فيحرم الكذب كذلك لا سيما الكذب على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم . قال تعالى : (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولَئِكَ

هُمُ الْكَاذِبُوْنَ) {النحل : الآية ١٠٥} وقال تعالى : (وَلَا تَقُوْلُوْا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوْا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِيْنَ يَفْتَرُوْنَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُوْنَ) {النحل : الآية ١١٦} . لما تصف ألسنتكم : أي لوصف ألسنتكم . وقال صلى الله عليه وسلم : "مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ" رواه الترمذي وابن ماجه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . فليتبوأ : أي فليتخذ لنفسه . وقد جاءت الرخصة في الكذب فيما إذا كان لجلب خير أو دفع شر . فعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَا يَحِلُّ الْكَذِبُ إِلَّا فِيْ ثَلَاثٍ ، يُحَدِّثُ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ لِيُرْضِيَهَا ، وَالْكَذِبُ فِي الْحَرْبِ ، وَالْكَذِبُ لِيُصْلِحَ بَيْنَ النَّاسِ" رواه الترمذي . قال الخطيب الشربيني في السراج المنير : روي أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : إِنِّيْ رَجُلٌ أُرِيْدُ أَنْ أُوْمِنَ بِكَ إِلَّا أَنِّيْ أُحِبُّ الْخَمْرَ وَالزِّنَا وَالسَّرِقَةَ وَالْكَذِبَ ، وَالنَّاسُ يَقُوْلُوْنَ : إِنَّكَ تُحَرِّمُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ ، وَلَا طَاقَةَ لِيْ عَلَى تَرْكِهَا ، فَإِنْ قَنِعْتَ مِنِّيْ بِتَرْكِ وَاحِدَةٍ مِنْهَا فَعَلْتُ ، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اتْرُكِ الْكَذِبَ ! فَقَبِلَ ذَلِكَ ثُمَّ أَسْلَمَ ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَرَضُوْا عَلَيْهِ الْخَمْرَ ، فَقَالَ : إِنْ شَرِبْتُ وَسَأَلَنِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَذَبْتُ فَقَدْ نَقَضْتُ الْعَهْدَ ، وَإِنْ صَدَقْتُ أَقَامَ الْحَدَّ عَلَيَّ ، فَتَرَكَهَا ، ثُمَّ عَرَضُوْا عَلَيْهِ الزِّنَا ، فَجَاءَ ذَلِكَ الْخَاطِرُ فَتَرَكَهُ ، وَكَذَا فِي السَّرِقَةِ ، فَعَادَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ : مَا أَحْسَنَ مَا فَعَلْتَ ! لَمَّا مَنَعْتَنِيْ عَنِ الْكَذِبِ انْسَدَّتْ أَبْوَابُ الْمَعَاصِيْ عَلَيَّ ، وَفَاتَ الْكُلُّ إهـ .

⁂⁂⁂

الحكمة الرابعة والثلاثون

قال رضي الله عنه :

مَنْ نَظَرَ إِلَى الدُّنْيَا بِعَيْنَيْ رَأْسِهِ ، رَأَى غُرُوْرًا وَزُوْرًا ، وَمَنْ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْ قَلْبِهِ ، رَأَى هَبَاءً مَنْثُوْرًا .

(من نظر إلى الدنيا) أي إلى جمالها وزخارفها (بعيني رأسه) اللتين تدركان المحسوسات (رأى) فيها (غرورا وزورا) أي كذبا ، يغتر بها عاشقها ويصير أسيرا عابدا لها . قال صلى الله عليه وسلم : "لَا يَزَالُ قَلْبُ الْكَبِيْرِ شَابًّا فِي اثْنَتَيْنِ فِيْ حُبِّ الدُّنْيَا وَطُوْلِ الْأَمَلِ". عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أن ثعلبة بنَ حاطب قال : يَارَسُوْلَ اللهِ ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَرْزُقَنِيْ مَالًا ، قَالَ : يَاثَعْلَبَةُ ، قَلِيْلٌ تُؤَدِّيْ شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيْرٍ لَا تُطِيْقُهُ ، قَالَ : يَارَسُوْلَ اللهِ ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَرْزُقَنِيْ مَالًا ، قَالَ : أَمَالَكَ فِيَّ أُسْوَةٌ ؟ أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُوْنَ مِثْلَ نَبِيِّ اللهِ تَعَالَى؟ أَمَا وَالَّذِيْ نَفْسِيْ بِيَدِهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ تَسِيْرَ مَعِيَ الْجِبَالُ ذَهَبًا وَفِضَّةً لَسَارَتْ ، قَالَ : وَالَّذِيْ بَعَثَكَ بِالْحَقِّ نَبِيًّا ، لَئِنْ دَعَوْتَ اللهَ أَنْ يَرْزُقَنِيْ مَالًا ، لَأُعْطِيَنَّ كُلَّ ذِيْ حَقٍّ حَقَّهُ وَلَأَفْعَلَنَّ وَلَأَفْعَلَنَّ ، قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اللَّهُمَّ ارْزُقْ ثَعْلَبَةَ مَالًا ، فَاتَّخَذَ غَنَمًا فَنَمَتْ كَمَا يَنْمُو الدُّوْدُ ، فَضَاقَتْ عَلَيْهِ الْمَدِيْنَةُ ، فَتَنَحَّى عَنْهَا ، فَنَزَلَ وَادِيًا مِنْ أَوْدِيَتِهَا حَتَّى جَعَلَ يُصَلِّي الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ فِي الْجَمَاعَةِ ، وَيَدَعُ مَا سِوَاهُمَا ، ثُمَّ نَمَتْ وَكَثُرَتْ ، فَتَنَحَّى حَتَّى تَرَكَ الْجَمَاعَةَ فِي الصَّلَوَاتِ كُلِّهَا ، فَنَمَتْ حَتَّى تَرَكَ الْجُمُعَةَ ، وَسَأَلَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْهُ فَقَالَ : مَا فَعَلَ ثَعْلَبَةُ بْنُ حَاطِبٍ ؟، فَقِيْلَ : يَا رَسُوْلَ اللهِ اتَّخَذَ غَنَمًا فَضَاقَتْ عَلَيْهِ الْمَدِيْنَةُ ، وَأُخْبِرَ بِأَمْرِهِ كُلِّهِ ، فَقَالَ : يَاوَيْحَ ثَعْلَبَةَ يَاوَيْحَ ثَعْلَبَةَ يَاوَيْحَ

ثَعْلَبَة : وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِـهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ) {التوبة : الآية ١٠٣} وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فَرَائِضَ الصَّدَقَةِ ، فَبَعَثَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا مِنْ جُهَيْنَةَ وَرَجُلًا مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ عَلَى الصَّدَقَةِ ، وَكَتَبَ لَـهُمَا كِتَابًا بِأَخْذِ الصَّدَقَةِ وَأَمَرَهُمَا أَنْ يَخْرُجَا فَيَأْخُذَا الصَّدَقَةَ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ ، وَقَالَ : مُرَّا بِثَعْلَبَةَ بْنِ حَاطِبٍ وَبِفُلَانٍ رَجُلٍ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ ، وَخُذَا صَدَقَاتِهِمَا ، فَخَرَجَا حَتَّى أَتَيَا ثَعْلَبَةَ ، فَسَأَلَاهُ الصَّدَقَةَ وَأَقْرَآهُ كِتَابَ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَقَالَ مَا هَذِهِ إِلَّا جِزْيَةٌ ، مَا هَذِهِ إِلَّا أُخْتُ الْجِزْيَةِ ، انْطَلِقَا حَتَّى تَفْرُغَا ثُمَّ تَعُوْدَا إِلَيَّ ، فَانْطَلَقَا نَحْوَ السُّلَيْمِيِّ ، فَسَمِعَ بِهِمَا ، فَقَامَ إِلَى خِيَارِ أَسْنَانِ إِبِلِهِ ، فَعَزَلَهَا لِلصَّدَقَةِ ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَهُمَا بِهَا ، فَلَمَّا رَأَوْهَا ، قَالُوْا : لَا يَجِبُ عَلَيْكَ ذَلِكَ ، وَمَا نُرِيْدُ نَأْخُذُ هَذَا مِنْكَ ، قَالَ : بَلَى خُذُوْهَا ، نَفْسِيْ بِهَا طَيِّبَةٌ ، وَإِنَّمَا هِيَ لِتَأْخُذُوْهَا ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَدَقَتِهِ ، رَجَعَا حَتَّى مَرَّا بِثَعْلَبَةَ فَسَأَلَاهُ الصَّدَقَةَ فَقَالَ : أَرُوْنِي كِتَابَكُمَا ، فَنَظَرَ فِيهِ ، فَقَالَ : هَذِهِ أُخْتُ الْجِزْيَةِ ، انْطَلِقَا حَتَّى أَرَى رَأْيِي ، فَانْطَلَقَا حَتَّى أَتَيَا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا رَآهُمَا قَالَ : يَا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ ، قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَاهُ ، وَدَعَا لِلسُّلَيْمِيِّ فَأَخْبَرَاهُ بِالَّذِيْ صَنَعَ ثَعْلَبَةُ وَبِالَّذِيْ صَنَعَ السُّلَيْمِيُّ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيْ ثَعْلَبَةَ {وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُوْنَنَّ مِنَ الصَّالِحِيْنَ ، فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوْا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُوْنَ ، فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِيْ قُلُوْبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوْا اللهَ مَا وَعَدُوْهُ وَبِمَا كَانُوْا يَكْذِبُوْنَ} {التوبة : الآية ٧٥-٧٧} . وَعِنْدَ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ مِنْ أَقَارِبِ ثَعْلَبَةَ ، فَسَمِعَ مَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى ثَعْلَبَةَ فَقَالَ : لَا أُمَّ لَكَ يَا ثَعْلَبَةُ ، قَدْ أَنْزَلَ اللهُ فِيْكَ كَذَا وَكَذَا ، فَخَرَجَ ثَعْلَبَةُ حَتَّى أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَهُ أَنْ

يَقْبَلَ مِنْهُ صَدَقَتَهُ فَقَالَ : إِنَّ اللهَ مَنَعَنِيْ أَنْ أَقْبَلَ مِنْكَ صَدَقَتَكَ ، فَجَعَلَ يَحْثُو التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهِ فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ : هَذَا عَمَلُكَ أَمَرْتُكَ فَلَمْ تُطِعْنِيْ ، فَلَمَّا أَبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا ، رَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ ، فَلَمَّا قُبِضَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاءَ بِهَا إِلَى أَبِيْ بَكْرٍ الصِّدِّيْقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا مِنْهُ ، وَجَاءَ بِهَا إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا مِنْهُ . وَهَلَكَ ثَعْلَبَةُ بَعْدُ فِيْ خِلَافَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . قوله تعالى : فأعقبهم : أي فصيَّرعاقبتهم .

(ومن نظر إليها بعيني قلبه) اللتين تدركان حقائق الأشياء (رأى هباء) هو الغبار الذي يرى من شعاع الشمس الداخل من الكوة (منثورا) أي مفرقا أي فهي كالهباء المنثور في عدم النفع بها ، لأنها تفنى فإما أن تفنى بنفسها أو تفارقها ، ولا تدوم لأحد ، فهي تمر وتذهب سريعا . وليس المعنى أن تترك التكسب بالحلال ، ولكن المعنى أنك لاتترك أعمال الآخرة لأجل طلب الدنيا الفانية . قال تعالى : (اعْلَمُوْا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِيْنَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُوْنُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيْدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُوْرِ) {الحديد: الآية ٢٠} . يهيج : أي ييبس . حطاما : أي فتاتا . قال صلى الله عليه وسلم : "مَا الدُّنْيَا إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَاذَا يَرْجِعُ؟ رواه الترمذي عن الْمُسْتَوْرِدِ بن شداد رضي الله عنه . اليم : أي البحر . قال المناوي : وهذا تمثيل تقريبي وإلا فأين المناسبة بين المتناهي وغيره ؟ والمراد أن نعيم الدنيا بالنسبة لنعيم الآخرة في المقدار كذلك ، أو ما الدنيا في قِصَر مدتها وفناء لذتها بالنسبة للآخرة في دوام نعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالأصابع إلى باقي البحر إهـ . وقال عيسى

عليه السلام : "إِنَّمَا الدُّنْيَا مَعْبَرَةٌ فَاعْبُرُوْهَا وَلَا تَعْمُرُوْهَا" . معبرة : أي محل العبور . وقال صلى الله عليه وسلم : "لَوْ تَعْلَمُوْنَ مِنَ الدُّنْيَا مَا أَعْلَمُ لَاسْتَرَاحَتْ أَنْفُسُكُمْ مِنْهَا" رواه البيهقي عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يَقُوْلُ الْعَبْدُ : مَالِيْ مَالِيْ ، إِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلَاثٌ ، مَا أَكَلَ فَأَفْنَى ، أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَى ، أَوْ أَعْطَى فَاقْتَنَى ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ" رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه . مالي مالي : أي مالي كذا مالي كذا . ثلاث : أي ثلاث منافع ، الواحدة منها وهي الأخيرة في الحقيقة باقية . فأفنى : أي فأعدمه . فأبلى : أي فأخلقه . أعطى : أي لله تعالى . فاقتنى : أي جعله ذخيرة لآخرته .

وحكي : أن يزيد بن الوليد قال لأصحابه : إنه لا يمكن أن يمر على إنسان يوم كامل بلا مكروه ولاغم ، وإني أريد أن أجعل لي يوما لا أرى فيه ذلك ، فهيأ له مجلسا للّهو ، واتخذ فيه من الرياحين وغيرها ما تفعله الملوك ، وكان له جارية أحبُّ الناس إليه اسمها حنانة ، أحسن الناس وجها ، وأحسنهم صوتا ، فجعلها خلفه تحت الستارة ، وجعل النُّدَماء أمامَه ، وصار ينظر إلى الجارية ويلعب معها تارة ، وإلى ندمائه تارة أخرى لسماع أصواتهم ، ولم يزل كذلك إلى وقت العصر ، فأحضروا له رمَّانا ، فأخذ يجعل حبه على يديه لتأخذ منه الجارية ، فأخذت وأكلت ، فوقفت حبة في حلقها ، فماتت لوقتها ، فحصل له من الغم ما لا مزيد عليه ، واستمر على ذلك أربعة أيام ، ثم مات على معاصيه ، والله أعلم . إهـ . الندماء جمع نديم : هو من جالسه على الشرب .

✦✦✦✦✦✦✦✦✦✦

الحكمة الخامسة والثلاثون

قال رضي الله عنه :

فِي الْحِرْصِ عَلَى الْمَالِ هَلَاكُ الدِّيْنِ ، وَفِي الْحِرْصِ عَلَى الْجَاهِ هَلَاكُ الدِّيْنِ وَالْمَالِ جَمِيْعًا .

(في الحرص على المال هلاك الدين) لأن الحريص لايبالي في جمع المال من أي وجه كان من حلال أو حرام ، أومن طيب نفس أوغش أوخيانة ، فيفسد بذلك دينه لأنه آثر المال على دينه . وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أَنَّه دَخلَ مسجدًا في الكوفةِ وأراد أن يُصَلِّيَ ومعه بَغلةٌ ، فرأى شابًّا فقال : احْبِسْ هذه البغلةَ حتى أُصليَ ، فأخذها بخِطامِها ، ودخل علي رضي الله عنه يصلِّيْ ، فلما دخل المسجدَ أخذ هذا الشابُ خطامَ البغلةِ ، وذَهبَ به إلى السوق فَباعَه بدرهمٍ ، فخرج عليٌّ رضي الله عنه فسأل الناسَ : أين الشابُ؟ قالوا : أَخذَ الخطامَ وذهبَ به ، فأَرْسلَ عليٌّ وراءَه فوُجِدَ يبيعُ الخطامَ ، فقال له الرجلُ الذي أَرسلَه عليٌّ : بكَم تبيعه ؟ قال : بدرهمٍ ، قال الرجل : خذ درهمًا ، فاشتَرَى الخطامَ من الشاب بدرهمٍ ، ثم أَتَى بالشاب إلى عليٍّ رضي الله عنه ، فقال علي رضي الله عنه للشاب : والذي نفسي بيده لقد هممتُ أن أُعطيَكَ درهمًا حلالًا ، وقد أخذتَه اليوم حرامًا (وفي الحرص على الجاه) وهو القدر والمنزلة عند الناس (هلاك الدين والمال جميعا) بحيث يُهلِكُ دينَه ويُفني مالَه لأجل تحصيل جاه يتمناه ، ومنزلة يطمعها ، فقد كان كثير ممن يحب الجاه والمنزلة الرفيعة أفنى أمواله الهائلة رشوة لأرباب الدولة ، أو حلوة للناس ليصير ذا جاه أومنزلة عالية عندهم ، فذلك هلاك الدين

والمال جميعا . حكي أن غنيا من الأغنياء ممن ابتلي بحرص الجاه يحب أن يكون له منصب من المناصب ومنزلة من المنازل في الأمور السياسية في بعض البلاد ، فأنفق جميع أمواله لتحصيل ذلك في الإنتخابات ، فنفدت أمواله ثم استدان من الناس ديونا كثيرة ، ولم يحصل ما أراده ، فصار فقيرا مفلسا ارتكبته الديون وهجرته زوجته ، فحزن على ذلك حزنا شديدا ، وكان آخر أمره أن صار مجنونا ومات على ذلك . نسأل الله العافية . وفي ذم الشهرة ومدح الخمول ، وهو خفاء القدر والمنزلة ، أحاديث منها : أنه صلى الله عليه وسلم قال : "إِنَّ أَغْبَطَ النَّاسِ عِنْدِيْ لَمُؤْمِنٌ خَفِيْفُ الْحَاذِ ، ذُوْ حَظٍّ مِنَ الصَّلاَةِ وَالصِّيَامِ ، أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ ، وَأَطَاعَهُ فِي السِّرِّ وَكَانَ غَامِضًا فِي النَّاسِ ، لَا يُشَارُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابعِ ، وَكَانَ رِزْقُهُ كَفَافًا فَصَبَرَ عَلَى ذَلِكَ ، عُجِّلَتْ مَنِيَّتُهُ ، وَقَلَّتْ بَوَاكِيْهِ ، وَقَلَّ تُرَاثُهُ" رواه أحمد والترمذي والطبراني عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه . أغبط الناس : أي أحقهم بتمني مثل حاله . خفيف الحاذ : قليل العيال والمال . غامضا في الناس : أي خاملا خافيا لا يعرفه الناس . عجلت منيته : أي كان قبض روحه سهلا . بواكيه : البواكي جمع باكية وهي المرأة التي تبكي على الميت . تراثه : أي ميراثه الذي تركه بعد موته . وقال إبراهيم بن أدهم : "مَا صَدَقَ اللهَ مَنْ أَحَبَّ الشُّهْرَةَ" . وقال أيوب السختياني : "وَاللهِ مَا صَدَقَ اللهَ عَبْدٌ إِلَّا سَرَّهُ أَنْ لَا يُشْعَرَ بِمَكَانِهِ" . وقال بعض الحكماء : "الْخُمُوْلُ نِعْمَةٌ وَالنَّفْسُ تَأْبَاهُ ، وَالشُّهْرَةُ نِقْمَةٌ وَالنَّفْسُ تَهْوَاهُ" . وإخفاءُ القدر والمنزلة بفعل أمور مباحة في الشرع مطلوب للمريد ، وفي ذلك حكايات كثيرة منها : ما ذكره الغزالي في الإحياء عن وهب بن منبه أنه قال : إنَّ رجلًا من السُّوَّاحِ قال لأصحابه : إنا إنما فارقْنا الأموالَ والأولادَ مخافةَ الطُّغيانِ ، فنخاف أن نكون قد دخل علينا في أمرنا

هذا من الطغيان أكثرُ مما دخلَ على أهلِ الأموالِ في أموالهم ، إن أحدَنا إذا لَقِيَ أحبَّ أن يُعظَّم لِمَكَانِ دِيْنِه ، وإن سأل حاجةً أحب أن تُقضَى له لِمَكَانِ دِيْنِه ، وإن اشتَرى شيئًا أحبَّ أن يُرَخَّصَ عليه لمكان دينه ، فبلغ ذلك مَلِكَهم ، فرَكِبَ في موكِبٍ من الناس ، فإذا السَّهْلُ والجبَلُ قد امتلأَ بالناس ، فقال السائح : ما هذا ؟ قيل : هذا الملِكُ قد أظلَّكَ ، فقال للغلام : ائتِني بطعامٍ ، فأتَاه ببَقْلٍ وزيتٍ وقلوبِ الشجر ، فجعل يَحْشُو شِدْقَه ، ويأكُلُ أكلًا عَنيفًا ، فقال الملِك : أين صاحبُكم ؟ فقالوا : هذا ، قال : كيف أنتَ ؟ قال : كالناس ، وفي حديث آخر : بخيرٍ ، فقال الملك : ما عند هذا من خيرٍ ، فانصَرفَ عنه ، فقال السائحُ : الحمد لله الذي صرفكَ عني وأنتَ لي ذامٌّ . إهـ . سائح : هو الذاهب في الأرض للتعبد . ويجمع على سُوَّاح . السهل : الأرض السهلة المستوية . أظلك : أي أراد التوجُّهَ إليك والدُّنُوَّ منك . يحشو شدقه : أي يملأ فمه .



الحكمة السادسة والثلاثون

قال رضي الله عنه :

لَيْسَ وَاضِعُ الْمَالِ فِيْ غَيْرِ حَقِّهِ بِأَقَلَّ إِثْمًا مِنْ مَاسِكِهِ عَنْ حَقِّهِ .

(ليس واضع المال في غير حقه) بأن يصرفه في مصرف محرم كالخمر أو الزنا أو مصرف مباح لكنه يتجاوز فيه الحد (بأقل إثما من ماسكه عن) أداء (حقه) كأن لا يخرج زكاته ، فهما في الإثم سواء ، بل ربما يكون واضع المال في غيرحقه أكثر إثما كمن وضعه في سبيل إعانة دعوة الكفر أو المعصية . فينبغي للإنسان الذي رزقه

الله مالا أن يصرفه في حقه ، فإنه سيسأل عن ماله يوم القيامة من جهتين ، جهة الإكتساب وجهة المصرف . قال النبي صلى الله عليه وسلم : "لَا تَزُوْلُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيْمَ أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيْمَ فَعَلَ بِهِ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيْمَ أَنْفَقَهُ ؟ " رواه الترمذي عن نَضْلة بن عبيد الأسلمي رضي الله عنه . لا تزول قدما عبد : أي من موقفه للحساب إلى جنة أو نار . فإن اكتسبه من حلال وأنفقه في حلال كان ماله سببا لرضوانه تعالى وموصلا لجنته . قال تعالى : (إِنَّ الَّذِيْنَ يَتْلُوْنَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوْا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَّةً يَرْجُوْنَ تِجَارَةً لَنْ تَبُوْرَ ، لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُوْرَهُمْ وَيَزِيْدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُوْرٌ شَكُوْرٌ) {فاطر : الآية ٢٩-٣٠} . لن تبور : أي لن تهلك بل هي باقية . وإن اكتسبه من حلال وأنفقه في حرام ، أو اكتسبه من حرام وأنفقه في حرام ، بأن استعان به على معصية الله ، أوأنفقه في تحصيل شهواته المحرمة ، أو اشتغل به عن طاعة الله ، أو لم يؤد حقوقه الواجبة ، كان سببا في غضب الله عليه واستحقاقه العقاب الأليم . قال الله تعالى : (وَالَّذِيْنَ يَكْنِزُوْنَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُوْنَهَا فِي سَبِيْلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيْمٍ) {التوبة : الآية ٣٤} . يكنزون : أي يجمعون ويدَّخرون . فبشرهم : أي أخبرهم . وقال صلى الله عليه وسلم : " الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ مَنِ اكْتَسَبَ فِيْهَا مَالًا مِنْ حِلِّهِ وَأَنْفَقَهُ فِيْ حَقِّهِ أَثَابَهُ اللهُ عَلَيْهِ وَأَوْرَدَهُ جَنَّتَهُ ، وَمَنِ اكْتَسَبَ فِيْهَا مَالًا مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ وَأَنْفَقَهُ فِيْ غَيْرِ حَقِّهِ أَحَلَّهُ اللهُ دَارَ الْهَوَانِ وَرُبَّ مُتَخَوِّضٍ فِيْ مَالِ اللهِ وَرَسُوْلِهِ لَهُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" رواه البيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما . حلوة : لذيذة الطعم . خضرة : جميلة المنظر . أورده : أي أدخله . دار الهوان : أي النار . متخوض : أي متسارع متصرف . وعن أبي ذر رضي الله

عنه قال : أَتَيتُ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِيْ ظِلِّ الْكَعْبَةِ فَقَالَ : "هُمُ الْأَخسَرُوْنَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ" قَالَهَا ثَلَاثًا ، قَالَ أَبُوْ ذَرٍّ: فَأَخَذَنِي غَمٌّ ، وَجَعَلْتُ أَتَنَفَّسُ وَقُلْتُ : هَذَا شَرٌّ حَدَثَ فِيَّ ، فَقُلْتُ : مَنْ هُمْ فِدَاكَ أَبِيْ وَأُمِّيْ ؟ قال : "الْأَكْثَرُوْنَ أَمْوَالًا، إِلَّا مَنْ قَالَ فِيْ عِبَادِ اللهِ هَكَذَا وَهَكَذَا وَقَلِيْلٌ مَّا هُمْ ، مَا مِنْ رَجُلٍ يَمُوْتُ فَيَتْرُكُ غَنَمًا أَوْ إِبِلًا أَوْ بَقَرًا لَا يُؤَدِّيْ زَكَاتَهَا إِلَّا جَاءَتْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْظَمَ مَا تَكُوْنُ وَأَسْمَنَ حَتَّى تَطَأَهُ بِأَظْلَافِهَا ، وَتَنْطَحَهُ بِقُرُوْنِهَا ، حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ بَيْنَ النَّاسِ ثُمَّ لَا تَعُوْدُ أُوْلَاهَا عَلَى أُخْرَاهَا" . أي كلما نَفِدَتْ أخراها عادت عليه أولاها . أخرجه أحمد . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ ، مُثِّلَ لَهُ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيْبَتَانِ ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ يَعْنِيْ شِدْقَيْهِ يَقُوْلُ : أَنَا مَالُكَ ، أَنَا كَنْزُكَ " أخرجه البخاري . زبيبتان : نقطتان سوداوان فوق عينيه وهو أخبث الحيات . وإن اكتسبه من حرام وأنفقه في حلال فقال بعضهم : لا يجوز ذلك . قال الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا أَنْفِقُوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُوْنَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيْهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوْا فِيْهِ وَاعْلَمُوْا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيْدٌ) {البقرة : الآية ٢٦٧} . ولستم بآخذيه : أي الخبيث لو أعطيتموه في حقوقكم . إلا أن تغمضوا فيه : أي تغضوا البصر فيه بالتسامح والتساهل فكيف تؤدون منه حق الله ؟. وقال صلى الله عليه وسلم : "وَلَا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالًا مِنْ حَرَامٍ فَيُنْفِقُ مِنْهُ فَيُبَارَكَ لَهُ فِيْهِ ، وَلَا يَتَصَدَّقُ بِهِ فَيُقْبَلَ مِنْهُ ، وَلَا يَتْرُكُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلَّا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ ، إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ ، وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ ، إِنَّ الْخَبِيْثَ لَا يَمْحُو الْخَبِيْثَ" أخرجه الحاكم ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن

مسعود رضي الله عنه . وحكي عن الفضيل بن عياض : أنه وقع في يده درهمان ، فلما علم أنهما من غير وجههما رماهما بين الحجارة ، وقال لا أتصدق إلا بالطَيِّب ، ولا أرضى لغيري مالا أرضاه لنفسي . وقال الغزالي ما حاصله : أنه إذا أخرج الحرام فله ثلاثة أحوال : إما أن يكون له مالك معين ، فيجب دفعه إليه أو إلى وارثه . وإما أن يكون لمالك غير معين ، وقع اليأس من الوقوف على عينه ، ولا يدرى أنه مات عن وارث أم لا ، فهذا لايمكن الرد فيه للمالك ، ويوقف حتى يتضح الأمر فيه . وربما لا يمكن الرد لكثرة المُلاَّك ، كغلول الغنيمة ، فإنها بعد تفرق الغزاة كيف يقدر على جمعهم ، وإن قدر فكيف يفرق دينارا واحدا مثلا على ألف أو ألفين ؟ فهذا ينبغي أن يتصدق به . وإما من مال الفيء والأموال المرصدة لمصالح المسلمين كافة، فليصرف ذلك إلى ماكان فيه مصلحة تعم المسلمين من نحو المساجد والرباطات . ودليل جواز التصدق بما هو حرامٌ أمْرُه صلى الله عليه وسلم بالتصدق بالشاة المصلِيَّة التي قدمت إليه فكلمته بأنها حرام ، فقال صلى الله عليه وسلم : "أَطْعِمُوْهَا الْأُسَارَى" . وسئل الحسن رضي الله عنه عن توبة الغالِّ ، وما يؤخذ منه بعد تفريق الجيش فقال : يتصدق به ، وقد ذهب أحمد بن حنبل والحارث المحاسبي ، وجماعة من الورعين إلى ذلك . ثم قال الغزالي : وهذا المال مُرَدَّدٌ بين أن يضيع وبين أن يصرف إلى الخير ، إذ قد وقع اليأس من مالكه . وبالضرورة يعلم أن صرفه إلى خير أولى من إلقائه في البحر ، فإنا إن رميناه في البحر فقد فوَّتْناه على أنفسنا وعلى المالك ، ولم تحصل منه فائدة ، وإذا رميناه في يد فقير يدعو لمالكه ، حصل للمالك بركة دعائه ، وحصل للفقير سد حاجته ، وحصول الأجر للمالك بغير اختياره في التصدق لاينبغي أن ينكر . فإن في الخبر

الصحيح : "إِنَّ لِلزَّارِعِ وَالْغَارِسِ أَجْرًا فِيْ كُلِّ مَا يُصِيْبُهُ النَّاسُ وَالطُّيُوْرُ مِنْ ثِمَارِهِ وَزَرْعِهِ" وذلك بغير اختياره إهـ .

والله أعلم .

⁘⁘⁘

الحكمة السابعة والثلاثون

قال رضي الله عنه :

مَنْ أَمْسَكَ شَيْئًا يَرَى أَنَّ إِنْفَاقَهُ خَيْرٌ مِنْ إِمْسَاكِهِ ، فَهُوَ مِنَ الْمُؤْثِرِيْنَ لِلدُّنْيَا .

(من أمسك شيأ يرى أن إنفاقه) إلى ما يطلب الإنفاق إليه (خير من إمساكه) وادخاره ، ولا يخفى أن المراد بالشيء المندوب إنفاقه ، وإذا كان هذا حال الممسك بما يندب إنفاقه فكيف الممسك بالواجب ؟ (فهو من المؤثرين للدنيا) الفانية على الآخرة الباقية ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم : (بَلْ تُؤْثِرُوْنَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) { الأعلى : الآية ١٦-١٧ } . فينبغي للعاقل أن يتصدق وينفق ما كان عنده مما يستحسن إنفاقه ، في سبيل الله تعالى بالمعروف ، فإن الله يُخْلِف ما أنفقه ، ويُقَيِّض له من ينفق عليه ، كما في الحديث القدسي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، قال الله تعالى : "أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ" أخرجه البخاري وأحمد وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه . ويفوز بدعاء أحد الملَكين : "اللّٰهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا" في كل صباح يمر عليه ، ولا يبخل به فيمسكه لئلا يناله التلف بدعاء الملك الآخر : "اللّٰهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا" ، فلا ينفعه في أخراه . فقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيْهِ إِلَّا

مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ فَيَقُوْلُ أَحَدُهُمَا : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا ، وَيَقُوْلُ الْآخَرُ : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا" أخرجه البخاري ومسلم . خلفا : أي عوضا عظيما في الدنيا والآخرة . تلفا : أي هلاكا . قال النووي في شرح مسلم : قال العلماء : هذا في الإنفاق في الطاعات ، ومكارم الأخلاق ، وعلى العيال والضيفان والصدقات ونحو ذلك ، بحيث لا يذم ولا يسمى سرفا ، والإمساك المذموم هو الإمساك عن هذا إهـ .

وقال صلى الله عليه وسلم : "إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِئُ عَنْ أَهْلِهَا حَرَّ الْقُبُوْرِ يَسْتَظِلُّ الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيْ ظِلِّ صَدَقَتِهِ" رواه البيهقي والطبراني عن عقبة بن عامر رضي الله عنه . وقال تعالى : (مَنْ ذَا الَّذِيْ يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيْرَةً) {البقرة : الآية ٢٤٥} . وقال زيد بن أسلم : لما نزل : "مَنْ ذَا الَّذِيْ يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا" ، قَالَ أَبُو الدَّحْدَاحِ : فِدَاكَ أَبِيْ وَأُمِّيْ يَا رَسُوْلَ اللهِ إِنَّ اللهَ يَسْتَقْرِضُنَا وَهُوَ غَنِيٌّ عَنِ الْقَرْضِ ؟ قَالَ : نَعَمْ يُرِيْدُ أَنْ يُدْخِلَكُمُ الْجَنَّةَ بِهِ . قَالَ : فَإِنِّيْ إِنْ أَقْرَضْتُ رَبِّيْ قَرْضًا يَضْمَنُ لِيْ بِهِ وَلِصِبْيَتِيْ الدَّحْدَاحَةِ مَعِيَ الْجَنَّةَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَنَاوِلْنِيْ يَدَكَ ، فَنَاوَلَهُ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ فَقَالَ : إِنَّ لِيْ حَدِيْقَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا بِالسَّافِلَةِ وَالْأُخْرَى بِالْعَالِيَةِ ، وَاللهِ لَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا ، قَدْ جَعَلْتُهُمَا قَرْضًا للهِ تَعَالَى ، قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اجْعَلْ إِحْدَاهُمَا للهِ ، وَالْأُخْرَى دَعْهَا مَعِيْشَةً لَكَ وَلِعِيَالِكَ ، قَالَ : فَأُشْهِدُكَ يَا رَسُوْلَ اللهِ أَنِّيْ قَدْ جَعَلْتُ خَيْرَهُمَا للهِ تَعَالَى ، وَهُوَ حَائِطٌ فِيْهِ سِتُّمِائَةِ نَخْلَةٍ ، قَالَ : إِذًا يَجْزِيْكَ اللهُ بِهِ الْجَنَّةَ . فَانْطَلَقَ أَبُو الدَّحْدَاحِ حَتَّى جَاءَ أُمَّ الدَّحْدَاحِ وَهِيَ مَعَ صِبْيَانِهَا فِي الْحَدِيْقَةِ تَدُوْرُ تَحْتَ النَّخْلِ ، وَفِيْ رِوَايَةٍ : فَنَادَاهَا : يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ ، قَالَتْ : لَبَّيْكَ ، قَالَ : اخْرُجِيْ ، قَدْ أَقْرَضْتُ رَبِّيْ عَزَّ وَجَلَّ هَذَا الْحَائِطَ ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ أُمُّ الدَّحْدَاحِ عَلَى صِبْيَانِهَا تُخْرِجُ

مَا فِيْ أَفْوَاهِهِمْ ، وَتَنْفُضُ مَا فِيْ أَكْمَامِهِمْ ، حَتَّى أَفْضَتْ إِلَى الْحَائِطِ الْآخَرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " كَمْ مِنْ عِذْقٍ رَدَاحٍ وَدَارٍ فَيَّاحٍ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ" . ذكره القرطبي في تفسيره . عذق : هو العرجون من النخلة . رداح : أي عظيم كثير . فياح : أي واسع . وإكثار الصدقة مما يُطوِّل العمر ، وكذلك ابتداء السلام على من لقيته ، و صلة الرحم ، و تسريح الشعر مع اللحية ، كما أفاد ذلك العلامة الشيخ محمد بن علي الشنواني الشافعي في حاشيته على مختصر أبي جمرة . وكذلك كثرة الإستغفار ، و شم الطيب بالأسحار ، والغسل بالماء الحار ، ونكاح الأبكار ، ذكر ذلك السيد العلامة العارف بالله تعالى أحمد بن حسن العطاس في تذكير الناس . وكذلك إسباغ الوضوء ، فقدروى ابن عدي عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "يَا أَنَسُ أَسْبِغِ الْوُضُوْءَ يُزَدْ فِيْ عُمْرِكَ" . وكان عمر أنس حين توفي مائةً وثلاث سنين .



الحكمة الثامنة والثلاثون

قال رضي الله عنه :

مُشَاهَدَةُ الْمُؤْثِرِيْنَ لِلدُّنْيَا تَمْحُوْ حُبَّ الْآخِرَةِ مِنَ الْقَلْبِ . فَكَيْفَ بِالْمُجَالَسَةِ وَالْمُخَالَطَةِ ؟!

(مشاهدة المؤثرين للدنيا) على الآخرة (تمحو حب الآخرة من القلب) أي قلب المشاهِد ، قال السندي : والسر في ذلك أن من آثر الدنيا على آخرته يتكدر ظاهره

وباطنه بأكدارها ، ويحصل فيه ظلماتها ، ويظهر آثارها على ظاهره ، فمن شاهده أَطفَئَتْ ظلمةُ دنياه نورَحب الآخرة من قلبه ، وجَذبتْه إلى حبها ، والرغبةِ فيها ، وهذا أمر مجرب إهـ . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي إِلَّا ضَعْفَ الْيَقِيْنِ " أخرجه الطبراني والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه . وضعف اليقين إنما يكون من رؤية أهل الغفلة عن الله تعالى وأرباب القسوة ، ومشاهدةِ المؤثرين للدنيا . وإذا كان مجرد المشاهدة كذلك (فكيف بالمجالسة والمخالطة) معهم ؟ ولاشك أنهما تؤثِّران في القلب تأثيرا بليغا أشد من المشاهدة ، فلا تجالسهم ولا تخالطهم لئلا ينطفئ نور حب الآخرة من قلبك ، وينغرس فيه حب العاجلة على الآجلة ، وتقديم ما يفنى على ما يبقى ، فإن الطباع سرَّاقة ، والصحبة مؤثرة في إصلاح الحال وإفساده ، والمرء على دين خليله . قال صلى الله عليه وسلم : "اْلَمْرءُ عَلَى دِيْنِ خَلِيْلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ" أخرجه أبوداود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه . على دين خليله : أي على عادته وطريقته . وقال صلى الله عليه وسلم : "وَمَثَلُ الْجَلِيْسِ الصَّالِحِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِنْ لَمْ يُصِبْكَ مِنْهُ شَيْءٌ أَصَابَكَ مِنْ رِيحِهِ ، وَمَثَلُ جَلِيْسِ السُّوْءِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْكِيْرِ إِنْ لَمْ يُصِبْكَ مِن سَوَادِهِ أَصَابَكَ مِن دُخَانِهِ" رواه أبوداود عن أنس رضي الله عنه . الكِيْر بكسر الكاف : كير الحدَّاد وهو المبني من الطين . وقيل : هوالزِقُّ الذي ينفخ به النار . وروي عن عيسى عليه السلام : لَا تُجَالِسُوا اْلمَوْتَى فَتَمُوْتَ قَلُوْبُكُمْ ، قِيْلَ : وَمَنِ اْلمَوْتَى ؟ قال : اْلمُحِبُّوْنُ لِلدُّنْيَا الرَّاغِبُوْنَ فِيْهَا . وفي إيقاظ الهمم لابن عجيبة : أن من فوائد العُزلة صيانةَ نفسه ودينه من التعرض للشرور والخصومات التي توجبُها الخلطةُ ، فإن للنفس تَوَلُّعـًا وتسارُعـًا للخوض في مثل هـذا إذا اجتمعَتْ

بأرباب الدنيا وزاحمتْهُمْ فيها . وللشافعي رضي الله عنه :

وَمَنْ يَذُقِ الدُّنْيَا فَإِنِّي طَعِمْتُهَا * وَسِيْقَ إِلَيَّ عَذْبُهَا وَعَذَابُهَا
فَلَمْ أَرَهَا إِلَّا غُرُوْرًا وَبَاطِلًا * كَمَا لَاحَ فِيْ ظَهْرِ الْفَلَاةِ سَرَابُهَا
وَمَا هِيَ إِلَّا جِيْفَةٌ مُسْتَحِيْلَةٌ * عَلَيْهَا كِلَابٌ هَمُّهُنَّ اجْتِذَابُهَا
فَإِنْ تَجْتَنِبْهَا عِشْتَ سِلْمًا لِأَهْلِهَا * وَإِنْ تَجْتَذِبْهَا نَاهَشَتْكَ كِلَابُهَا
فَطُوْبَى لِنَفْسٍ أَوْطَأَتْ قَعْرَ بَيْتِهَا * مُغَلَّقَةَ الْأَبْوَابِ مُرْخًى حِجَابُهَا

ناهشتك : أي عَضَّتْكَ . وقال الغزالي : مجالسة الحريص ومخالطته تحرك الحرص ، ومجالسة الزاهد ومخالطته تُزهِّد في الدنيا ، لأن الطباع مجبولة على التشبه والإقتداء ، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري إهـ .

✦✦✦✦✦✦✦

الحكمة التاسعة والثلاثون

قال رضي الله عنه :

كَفَى بِفُقْدَانِ الرَّغْبَةِ فِي الْخَيْرِ مُصِيْبَةً ! وَكَفَى بِالذُّلِّ فِيْ طَلَبِ الدُّنْيَا عُقُوْبَةً ! وَكَفَى بِالظُّلْمِ حَتْفًا لِصَاحِبِهِ ! وَكَفَى بِالذَّنْبِ عَارًا لِلْمُلِمِّ بِهِ

(كفى بفقدان الرغبة في الخير) الذي هو مدار سعادة الدارين (مصيبة) وهي كل ما ساء المؤمنَ . عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : "مَا أَصَابَ الْمُؤْمِنَ مِمَّا يُكْرَهُ فَهُوَ مُصِيْبَةٌ" أخرجه الطبراني .

فعدم ميل النفس إلى الخير والرغبة فيه تفويت للنعمة الدنيوية والأخروية ، وما

فاته لا يعود إليه مرة أخرى ، وتلك خسارة عظيمة ، والخسارة مصيبة ، وأي مصيبة أعظم من خسارة الدنيا والآخرة ؟ (وكفى بالذل في طلب الدنيا) الملعونة التي حلالها حساب وحرامها عذاب (عقوبة) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُوْلُ: "أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُوْنَةٌ مَلْعُوْنٌ مَا فِيْهَا إِلَّا ذِكْرَ الله تَعَالَى ، وَمَا وَالَاهُ وَعَالِمًا وَمُتَعَلِّمًا" رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه . ومن أحب ما لعنه الله فقد تعرض للعنه وغضبه وعقوبته . قال السندي : الدنيا أحقر من الجيفة المنتنة عند الناس وأن طلابها كالكلاب ، فمن طلبها انغمس في الذل والهوان ، وأي عقوبة فوق أن يكون طالبها كالكلب في الذل والهوان ؟ إهـ . وحكي أنه اجتمع عند رابعة العدوية علماء وزهاد وتفاوضوا في ذم الدنيا وهي ساكتة ، فلاموها ، فقالت : مَن أحب شيئا أكثر من ذكره إما بحمد أو ذم ، فإن كانت الدنيا في قلوبكم لا شيء فلِمَ تذكرون لا شيء ؟ (وكفى بالظلم) على خلق الله (حتفا) أي هلاكا (لصاحبه) قال صلى الله عليه وسلم :" اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" رواه البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما . والظالم المعتدي على غيره قد يعجل الله عقوبته في الدنيا بدعوة المظلوم المستجابة . قال صلى الله عليه وسلم : "وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُوْمِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله حِجَابٌ" رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما . وقد يمهلها له زيادةً في استدراجه ليطول عمره ، ويكثر ظلمه ، فيزداد عقابه في الآخرة . قال صلى الله عليه وسلم "إِنَّ اللهَ لَيُمْلِيْ لِلظَّالِمِ فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ" رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه . يملي : أي يمهل . لم يفلته : أي لم يخلِّصْه بل يهلكه . وفي الحديث القدسي : قال النبي صلى الله عليه وسلم : يقول الله

عز وجل: "وَعِزَّتِيْ وَجَلَالِيْ لَأَنْتَقِمَنَّ مِنَ الظَّالِمِ فِيْ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ ، وَلَأَنْتَقِمَنَّ مِمَّنْ رَأَى مَظْلُوْمًا فَقَدَرَ أَنْ يَنْصُرَهُ فَلَمْ يَنْصُرْهُ " أخرجه الحاكم والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما . وقال الشافعي رحمه الله تعالى : "بِئْسَ الزَّادُ إِلَى الْمَعَادِ الْعُدْوَانُ عَلَى الْعِبَادِ" . قال شيخنا العلامة السيد عمر الجيلاني : فالظالم إنما ينعي نفسه وينعي حتفه ، وحتفه هلاكه إهـ . (وكفى بالذنب) صغيرا كان أو كبيرا (عارا) أي عيبا (للملِمِّ به) أي لفاعله ، لأن الذنب خصومة بين العاصي وربه ، وجفاء من خالقه ، وأيُّ عار فوق خصومة الخالق الرازق وجفائه ؟ . عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيْئَةً نُكِتَتْ فِيْ قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، فَإِنْ هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ ، وَإِنْ عَادَ زِيْدَ فِيْهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِيْ ذَكَرَ اللهُ (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوْبِهِمْ مَا كَانُوْا يَكْسِبُوْنَ) {المطففين : الآية ١٤} . أخرجه أحمد والترمذي والنسائي . صقل بالبناء للمفعول : أي محا الله تلك النكتة فينجلي القلبُ . بل ران : أي غَلَب وغَطَّى تغطيةَ الغيمِ السماءَ .



الحكمة الأربعون

قال رضي الله عنه :

مَنْ تَرَكَ اْلحَزْمَ لِلْوَهْمِ فَهُوَ أَحْمَقُ ! وَمَنْ أَقَامَ عَلَى الشَّكِّ مَعَ إِمْكَانِ اْلمَصِيْرِ عَلَى اليَقِيْنِ فَهُوَ أَخْرَقُ !

(من ترك الحزم) أي الحزم في الأمور وهو أن يكون متقنا فيها واثقا بحصول نتائجها (للوهم) وهو التردد في أمر مع ترجيح عدم وقوعه ، والمراد به هنا ما لايوثق حصوله (فهو أحمق) أي قليل العقل ، حيث يتركُ طلبَ ما هو في حصوله جازمٌ ويطلب ماهو في حصوله واهِمٌ ، فينبغي للعاقل أن يبني أموره على حزم وإتقان ، ولا يبنيها على وهم فيقع في حسرة وخسران ، وأن لا يعمل عملا غايته موهومة وغير محققة ، وإلا فعمله كسرابٍ بِقيْعةٍ يحسبه الظمآنُ ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، وعليه أن يتصرف في أمرٍ غايتُه محكمة مبينة بمعالم الدين التي بينها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتناقلها الأئمة والأسلاف الصالحون ووصلت إلينا محررة محققة . فعَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ صَلَّى بِنَا رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيْغَةً ، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُوْنُ ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوْبُ ، فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُوْلَ اللهِ كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ : "أُوْصِيْكُمْ بِتَقْوَى اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِيْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيْرًا ، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِيْ وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّيْنَ الرَّاشِدِيْنَ ، تَمَسَّكُوْا بِهَا وَعَضُّوْا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُوْرِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ" رواه أبو داود والترمذي . ذرفت :

أي سالت . وجلت : أي خافت . وإن عبدا حبشيا : أي وإن كان الأميرعبدا من الحبشة . النواجذ : أي الأضراس . (ومن أقام على الشك) وهو التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاك ، وقيل : الشك ما استوى طرفاه وهو الوقوف بين الشيئين لا يميل القلب إلى أحدهما ، فإذا ترجح أحدهما ولم يطرح الآخر فهو ظن ، فإذا طرحه فهو غالب الظن ، وهو بمنزلة اليقين . قاله في التعريفات (مع إمكان المصير على اليقين) واليقين في اللغة : العلم الذي لا شك معه ، وفي الإصطلاح : اعتقاد الشيء بأنه كذا مع اعتقاد أنه لا يمكن إلا كذا مطابقا للواقع غير ممكن الزوال . وعلم اليقين ما أعطى الدليل بتصور الأمور على ما هي عليه . وحق اليقين عبارة عن فناء العبد في الحق والبقاء به علما وشهودا وحالا. وعين اليقين ما أعطته المشاهدة والكشف . فعلم كل عاقل الموت علم اليقين ، فإذا عاين الملائكة فهو عين اليقين ، فإذا ذاق الموت فهو حق اليقين ، وقيل : علم اليقين ظاهر الشريعة ، وعين اليقين الإخلاص فيها ، وحق اليقين المشاهدة فيها . كما في التعريفات (فهو أخرق) وهو السفيه الضعيف الذي لا يهتدي شيئا ، فمن تردد في حكم من الأحكام وأقام فيه على تردده مع إمكانه على اليقين بمراجعة كتب الفقهاء أو سؤال العلماء فهو أخرق . وأما العاقل فيبادر بطرح الشك والأخذ باليقين ما أمكن بمراجعة الكتب المعتبرة أو سؤال من له أهلية وخبرة من العلماء العاملين الذين كانت ألفاظهم شفاء وألحاظهم دواء ، يحتاطون في الدين ، ولا يتكلمون عن هوى الأنفس والحظوظ الدنيوية ، وإنما يتكلمون بما ينفع في الدنيا والآخرة ، كما قال رضي الله عنه .

* * *

الحكمة الحادية والأربعون

قال رضي الله عنه :

يَنْبَغِيْ أَنْ يَدُوْرَ كَلَامُ الْعَالِمِ بِالله مَعَ عَامَّةِ الْمُؤْمِنِيْنَ ، عَلَى ثَلَاثَةِ أُمُوْرٍ : الْأَوَّلُ : التَّذْكِيْرُ بِالنِّعَمِ . وَالثَّانِيْ : إِلْزَامُ الطَّاعَةِ . وَالثَّالِثُ : اجْتِنَابُ الْمَعْصِيَةِ .

فَكُلُّ عَالِمٍ أَخَذَ يَتَكَلَّمُ مَعَ الْعَامَّةِ بِغَيْرِ مَا يَدْخُلُ تَحْتَ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ ، فَهُوَ فَتَّانٌ

(ينبغي أن يدور كلام العالم بالله) وبشرعه (مع عامة المؤمنين) الذين لم يعرفوا ما عرفه العلماء (على ثلاثة أمور) لأن خلاصة الدعوة إلى الله الربط بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وهو لا يخرج عن هذه الثلاثة (الأول : التذكير بالنعم) التي أنعم بها الله تعالى على عباده وهي لا تحصى ، والتذكير بها له أثر كبير في شكرها والطاعة لمعطيها الكريم سبحانه وتعالى والوصول إليه (والثاني : إلزام الطاعة) لما أمرهم الله به ليلتزموها ويواظبوها (والثالث : اجتناب المعصية) والمخالفة ليحذروا من وبالها . قال صلى الله عليه وسلم : "خِيَارُ أُمَّتِي مَنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَحَبَّبَ عِبَادَهُ إِلَيْهِ ، وَشِرَارُ أُمَّتِي التُّجَّارُ مَنْ كَثُرَتْ أَيْمَانُهُ وَإِنْ كَانَ صَادِقًا" رواه ابن النجار عن أبي هريرة رضي الله عنه . (فكل عالم أخذ) أي شرع (يتكلم مع العامة) أي عوام الناس (بغير ما يدخل تحت هذه الثلاثة) المذكورة (فهو فتان) يفتن الناس ، وينفرهم عن الخير ، ويوقعهم في الشبهات والأباطيل لعدم فهمهم ، ويصير بذلك ضالا مضلا ، فينبغي للواعظ أو المدرس أن يكلم كل من خاطبه على قدر فهمه وعقله بما يحتمله حاله . قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه :

"حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُوْنَ أَتُرِيْدُوْنَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُوْلُهُ" . فمن اشتغل بعمارة أو تجارة أو مهنة ، فحقه أن يقتصر به من العلم على قدر ما يحتاج إليه من هو في رتبته من العامة ، ولا يولد له الشُبَه ، وأن يرغِّبه ويرهِّبه بالرغبة والرهبة الوارد بهما القرآن والسنة مع الوضوح وتمام الفائدة ، لئلا يتولد من كلامه الأوهام ، فيقع الناس بسبب كلامه في الحيرة والضلال ، ولهذا قيل : نعوذ بالله من نصف فقيه ونصف متكلم . وقد عم الإبتلاء في عصرنا الحاضر خصوصا في بلدتنا المحبوبة بأمثال هذا ، فهناك من ليس له علم بالدين وبأحكامه من كاتب أو متكلم أمام الناس وعبر الأجهزة الحديثة التي توصل الكلام أوالكتابة إلى أقصى البلاد ، لا يعرف من هو ؟ وممن أخذ العلم ؟ ضل بكلامه وبكتابته كثيرٌ من الناس . فينبغي التنبه وتنبيه العوام وتحذيرهم من ذلك ، قال الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى : "مِنْ أَنْفَعِ طُرُقِ الْعِلْمِ ٱلْمُوْصِلَةِ إِلَى غَايَةِ التَّحَقُّقِ بِهِ ، أَخْذُهُ عَنْ أَهْلِهِ ٱلْمُتَحَقِّقِيْنَ بِهِ عَلَى الْكَمَالِ وَالتَّمَامِ" إهـ . وقد تقدم في الحكمة الخامسة والعشرين "لو لا العلامات لادعى كل واحد ما ليس عنده إلخ ، فللعالم المتحقق الذي ينبغي أن يقتدى به في قوله وفعله علامات وأمارات منها : أن يكون ممن رباه الشيوخ العاملون المتأهلون في ذلك العلم تربية حسنة . وأن يكون عاملا بعلمه حتى يكون قوله مطابقا لفعله . ومنها غير ذلك . وعموم هذا الإبتلاء من علامة اقتراب قيام الساعة . قال صلى الله عليه وسلم : "مِنِ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ كَثْرَةُ الْقَطْرِ ، وَقِلَّةُ النَّبَاتِ ، وَكَثْرَةُ الْقُرَّاءِ ، وَقِلَّةُ الْفُقَهَاءِ ، وَكَثْرَةُ الْأُمَرَاءِ ، وَقِلَّةُ الْأُمَنَاءِ" رواه الطبراني عن عبدالرحمن بن عمرو الأنصاري رضي الله عنه بإسناد ضعيف . وقال صلى الله عليه وسلم : "لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا أَتَاهُمُ الْعِلْمُ مِنْ عُلَمَائِهِمْ وَكُبَرَائِهِمْ وَذَوِي

أَسْنَانِهِمْ ، فَإِذَا أَتَاهُمُ الْعِلْمُ عَنْ صِغَارِهِمْ وَسُفَهَائِهِمْ ، فَقَدْ هَلَكُوْا " رواه الخطيب عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . وفي رواية للطبراني : "لَا يَزَالُ النَّاسُ مُشْتَمِلِيْنَ بِخَيْرٍ مَا أَتَاهُمُ الْعِلْمُ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْ أَكَابِرِهِمْ ، فَإِذَا أَتَاهُمُ الْعِلْمُ مِنْ قِبَلِ أَصَاغِرِهِمْ ، وَتَفَرَّقَتْ أَهْوَاؤُهُمْ ، هَلَكُوْا". وعن الضحاك : أنه قال : "يَأْتِيْ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ تَكْثُرُ فِيْهِ الْأَحَادِيْثُ ، حَتَّى يَبْقَى الْمُصْحَفُ عَلَيْهِ الْغُبَارُ لَا يُنْظَرُ فِيْهِ" رواه عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل . وفي الحديث القدسي قال الله تعالى : "أَبُثُّ الْعِلْمَ فِيْ آخِرِ الزَّمَانِ حَتَّى يَعْلَمَهُ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ ، وَالْعَبْدُ وَالْحُرُّ ، وَالصَّغِيْرُ وَالْكَبِيْرُ ، فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ بِهِمْ ، أَخَذْتُهُمْ بِحَقِّيْ عَلَيْهِمْ" رواه الدارمي وأبو نعيم في الحلية .

✦ ✦ ✦ ✦ ✦ ✦ ✦ ✦ ✦

الحكمة الثانية والأربعون

قال رضي الله عنه :

رَحْمَةٌ تَطْلُبُكَ ، وَرَحْمَةٌ تَطْلُبُهَا . فَالَّتِيْ تَطْلُبُكَ : رَحْمَةُ الْهِدَايَةِ بِالْبَيَانِ . وَلِأَجْلِهَا كَانَ إِرْسَالُ الرُّسُلِ ، وَإِنْزَالُ الْكُتُبِ . وَالَّتِيْ تَطْلُبُهَا : هِيَ الْجَنَّةُ ، تَسْعَى لَهَا بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، عَلَى قَانُوْنِ الْعِلْمِ النَّافِعِ .

(رحمة تطلبك) والرحمة هي إفاضة الخير والإحسان (ورحمة) أخرى (تطلبها) وتسعى في حصولها (فالتي تطلبك) هي (رحمة الهداية) والتوفيق (بالبيان) فالهداية رحمة من الله على عباده ، بينها في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ،

تطلبك بأن تهتدي بها حتى تكون عبدا لله تعالى قائما بطاعته ، ومجيبا لدعوته ، قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اسْتَجِيْبُوْا للهِ وَلِلرَّسُوْلِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيْكُمْ) {الأنفال : الآية ٢٤} . لما يحييكم : أي من أمر الدين لأنه سبب الحياة الأبدية . والذي يقبل دعوته ويهتدي بهدايته فهو الذي تناله رحمة الله تعالى ويفوز بها في الدارين ، والذي لا يهتدي بها فهو الذي يجني على نفسه ويشقى بضلاله ويدخل النار ، قال تعالى : (مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِيْ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا) {الإسراء : الآية ١٥} . (ولأجلها) أي رحمة الهداية (كان إرسال الرسل) إلى عباده ، قال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِيْنَ) {الأنبياء : الآية ١٠٧} . (وإنزال الكتب) على رسله عليهم الصلاة والسلام ، قال تعالى : (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيْمِ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِيْنَ) {لقمان : الآية ٢-٣} . وقال تعالى : (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِيْ ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُوْنَ) {العنكبوت : الآية ٥١} . (و) الرحمة (التي تطلبها هي الجنة) التي أعدت وأزلفت للمتقين ، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . قال تعالى : (وَأَمَّا الَّذِيْنَ ابْيَضَّتْ وُجُوْهُهُمْ فَفِيْ رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ) {آل عمران : الآية ١٠٧} . الذين ابيضت وجوههم : هم المؤمنون . ففي رحمة الله : أي جنته . (تسعى) أنت (لها) أي لحصول الجنة (بالعمل الصالح) قال تعالى : (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِيْ نُوْرِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا) {مريم : الآية ٦٣} . فالعمل الصالح سبب الحصول لدخول الجنة ، وطلب الجنة بغير العمل الصالح تغرير وتسويل من الشيطان ، قال الشاعر :

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا * إِنَّ السَّفِيْنَةَ لَا تَجْرِيْ عَلَى الْيَبَسِ

روي أن الله عز وجل أوحى إلى موسى عليه السلام : "مَا أَقَلَّ حَيَاءَ مَنْ يَطْمَعُ فِيْ جَنَّتِيْ بِغَيْرِ عَمَلٍ كَيْفَ أَجُوْدُ بِرَحْمَتِيْ عَلَى مَنْ يَبْخَلُ بِطَاعَتِيْ" . وعن شهر بن حوشب أنه قال : "طَلَبُ الْجَنَّةِ بِلَا عَمَلٍ ذَنْبٌ مِنَ الذُّنُوْبِ ، وَانْتِظَارُ الشَّفَاعَةِ بِلَا سَبَبٍ نَوْعٌ مِنَ الْغُرُوْرِ ، وَارْتِجَاءُ الرَّحْمَةِ مِمَّنْ لَا يُطَاعُ حُمْقٌ وَجَهَالَةٌ" . وعن الحسن رضي الله عنه : "يَقُوْلُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ : جُوْزُوا الصِّرَاطَ بِعَفْوِيْ ، وَادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِيْ ، وَاقْتَسِمُوْهَا بِأَعْمَالِكُمْ" . والعمل الصالح هو ما استكمل ثلاثة أمور : الأول : موافقته لما جاء به النَّبي صلى الله عليه وسلم ، والثاني : أن يكون خالصًا لله تعالى ، والثالث : أن يكون مبنيًا على أساس العقيدة الصحيحة . ولا بد أن يكون ذلك العمل الصالح (على قانون العلم النافع) وقواعد الشرع الحنيف ، إذ العمل الذي لايوافق شرع الله مردود غير مقبول ، قال ابن رسلان في زبده :

وَكُلُّ مَنْ بِغَيْرِ عِلْمٍ يَعْمَلُ * أَعْمَالُـهُ مَرْدُوْدَةٌ لَا تُقْبَلُ

والعلم النافع : هو الذي يحمل صاحبه على اكتساب الأعمال الصالحة ، التي ترضي الله عز وجل ، ويورثه الخشية ، والتقوى ، والأخلاق الفاضلة .

✦✦✦✦✦✦✦✦✦

الحكمة الثالثة والأربعون

قال رضي الله عنه :

دَوَاعِي الْحِرْصِ عَلَى الدُّنْيَا ثَلَاثَةٌ :

أَحَدُهَا النَّظَرُ إِلَيْهَا بِعَيْنِ الْإِسْتِحْسَانِ .وَعَنْهُ يَكُوْنُ حُبُّ الْبَقَاءِ لِلتَّمَتُّعِ .

وَالثَّانِي : تَعْظِيمُ النَّاسِ لِأَرْبَابِهَا ، وَمِنْهُ يَكُونُ التَّفَاخُرُ وَالتَّكَاثُرُ .

وَالثَّالِثُ : تَوَهُّمُ أَنْ لَا قِوَامَ بِدُونِهَا . وَعَنْهُ يَنْشَأُ الْبُخْلُ وَخَوْفُ الْفَقْرِ .

(دواعي الحرص) أي الأسباب التي تدعو إلى الحرص والتكالب (على الدنيا) الملعونة (ثلاثة) من الأمور (أحدها : النظر إليها بعين الإستحسان) الذي ينسيه عن الآخرة ، ويؤديه إلى الفساد والطغيان ، بأن يرى الدنيا مستحسنة ويتأملها تأمل العاشق بها ، قال ابن السَّمَّاكِ : "مَنْ جَرَّعَتْهُ الدُّنْيَا حَلَاوَتَهَا بِمَيْلِهِ إِلَيْهَا جَرَّعَتْهُ الْآخِرَةُ مَرَارَتَهَا لِتُجَافِيهِ عَنْهَا" . جَرَّعَتْهُ : أي أبلَعَتْهُ وسَقَتْه (وعنه) أي وعن النظر إليها بعين الاستحسان (يكون حب البقاء للتمتع) بها الذي هو فِطْرِيٌّ في الإنسان ، وهذا حب الشيء المحال إذ لا يبقى فيها أحد ، وطلب المحال ضلال ، قال بعض الحكماء : "قَدْ مَلَكَ الدُّنْيَا غَيْرُ وَاحِدٍ ، مِنْ رَاغِبٍ وَزَاهِدٍ ، فَلَا الرَّاغِبُ فِيْهَا اسْتَبْقَتْ ، وَلَا الزَّاهِدُ فِيْهَا كَفَّتْ" . (والثاني : تعظيم الناس لأربابها) أي أصحاب الدنيا ، وهذه آفة عظيمة بها ذهاب الدين وتعرُّضٌ لسخط رب العالمين . قال صلى الله عليه وسلم : "لَعَنَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَقِيْرًا تَوَاضَعَ لِغَنِيٍّ مِنْ أَجْلِ مَالِهِ مَنْ فَعَلَ ذَاكَ مِنْهُمْ فَقَدْ ذَهَبَ ثُلُثَا دِيْنِهِ" رواه الديلمي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه . وعن ابن مسعود قال ، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : "مَنْ أَصْبَحَ مَحْزُوْنًا عَلَى الدُّنْيَا أَصْبَحَ سَاخِطًا عَلَى رَبِّهِ وَمَنْ أَصْبَحَ يَشْكُوْ مُصِيْبَتَهُ فَإِنَّمَا يَشْكُوْ رَبَّهُ ، وَمَنْ دَخَلَ عَلَى غَنِيٍّ فَتَضَعْضَعَ لَهُ ذَهَبَ ثُلُثَا دِيْنِهِ ، وَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَدَخَلَ النَّارَ فَهُوَ مِمَّنِ اتَّخَذَ آيَاتِ اللهِ هُزُوًا" رواه البيهقي . تضعضع : أي خضع . فمهما عظم أهل الدنيا في قلبك فقد سقطتَ من عين محبة الله تعالى ، وتعرضتَ لمقته وسخطه ، لأنها

ملعونة حقيرة ما تزن عند الله جناح بعوضة ، وأنها عدوة لله ولأوليائه (ومنه) أي ومن تعظيم أربابها (يكون التفاخر والتكاثر) اللذان هما من صفات اليهود والنصارى ، فعند البيهقي عن وهب بن منبه قال : قرأت في الذيل "هَنِيْئًا لِلْمُتَحَابِّيْنَ فِي اللهِ جَنَّاتُ عَدْنٍ ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُرَافِقَنِيْ فِيْهَا فَلْيُنْصِفْ مِنْ نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَصْبَحَ وَأَمْسَى وَهَمُّهُ الدُّنْيَا وَالدَّرَاهِمُ مُكَاثِرًا حُشِرَ مَعَ الْيَهُوْدِ وَالنَّصَارَى الَّذِيْنَ قَالُوْا : وَمَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوْتُ وَنَحْيَا" . هنيئا : أي فرحا وسرورا . فلينصف من نفسه : أي بأن لايدنس نفسه بحب الدنيا وملاذها . قال بعضهم : طلب الدنيا لازم وهو أربعة أنواع : فرض وهو كسب أقل الكفاية لنفسه وعياله . ومستحب وهو الزائد على ذلك ليواسي به فقيرا ، أو يصل به رحما ، وهو أفضل من نوافل العبادة . ومباح وهو كسب الزائد على ذلك للتنعم والتجمل . وحرام وهو كسب ما أمكن للتكاثر والتفاخر إهـ . (والثالث : توهم أن لا قوام) بكسر القاف أي لا قوت يقوم به العيش (بدونها) مع أن الله تعالى متكفل بما تقوم به حياة كل حيوان طول عمره سواء كان عاقلا أوغير عاقل ، تفضلا منه وإحسانا . قال تعالى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا) {هود : الآية ٦}. وقال عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام : "تَعْمَلُوْنَ لِلدُّنْيَا وَأَنْتُمْ تُرْزَقُوْنَ فِيْهَا بِغَيْرِ عَمَلٍ ، وَلَا تَعْمَلُوْنَ لِلْأَخِرَةِ وَأَنْتُمْ لَا تُرْزَقُوْنَ فِيْهَا إِلَّا بِعَمَلٍ" . ومن عجائب قدرة الله ولطفه بخلقه ، ماشاهدناه أن بطة تقسم الطعام من فوق الصخرة على الأسماك التي تطلبه في الماء (وعنه) أي عن ذلك التوهم (ينشأ البخل) الذي أقسم الله تعالى أنه لا يجاوره صاحبه كما في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه قال : "خَلَقَ اللهُ جَنَّةَ عَدْنٍ بِيَدِهِ ، وَدَلَّى فِيْهَا ثِمَارَهَا ، وَشَقَّ فِيْهَا أَنْهَارَهَا ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهَا

فَقَالَ : قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُوْنَ ، قَالَ : وَعِزَّتِيْ لَا يُجَاوِرُنِيْ فِيْكِ بَخِيْلٌ" رواه الطبراني . (وخوف الفقر) الذي لا يكون إلامن لايثق بضمانة الله تعالى . قال الله تعالى : (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ يَبْخَلُوْنَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُوْنَ مَا بَخِلُوْا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) { آل عمران : الآية ١٨٠} . سيطوقون ما بخلوا به : أي سيُكَلَّفون ويؤمرون بأداء ما بخلوا به توبيخا لهم . قال صلى الله عليه وسلم : "البَخِيْلُ بَعِيْدٌ مِنَ اللهِ بَعِيْدٌ مِنَ الْجَنَّةِ قَرِيْبٌ مِنَ النَّارِ" . وحكي أن قطب العارفين إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى خرج يوما من الأيام للصيد ، فنزل منزلا ، وبسط السُّفْرة ليأكل الطعام ، فبينما هو كذلك ، جاء غراب وأخذ من السفرة خبزا بمنقاره ، وطار في الهواء ، فتعجب إبراهيم من ذلك ، وركب فرسه ، وذهب إلى خلف الطير ، حتى صعد الغراب إلى الجبل ، وغاب عن عين إبراهيم فصعد إبراهيم أيضا الجبل لطلب الغراب ، فرأى من بعيد ذلك الغراب ، فلما دنا إبراهيم طار الغراب ، فرأى إبراهيم رجلا مشدودا بالحبل ، مضطجعا على قفاه ، فلما رأى إبراهيم ذلك الرجل على هذه الحالة ، نزل عن فرسه وحل شداده ، وسأل عن حاله وقصته ، فقال الرجل : إني كنت تاجرا فأخذني قطاع الطريق ، وأخذوا ما كان معي من المال ، وقتلوني وشدوني وطرحوني في هذا الموضع ، وصار لي سبعة أيام ، كل يوم يجيء الغراب بالخبز ، ويجلس على صدري ، ويكسر الخبز بمنقاره ، ويضعه في فمي ، وما تركني الله تعالى جائعا .

⁂⁂

الحكمة الرابعة والأربعون

قال رضي الله عنه :

أَجْهَلُ الجَاهِلِيْنَ مَنْ تَزِيْدُهُ الْمَعْرِفَةُ بِسَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ جُرْأَةً عَلَى مَعَاصِيْهِ .

(أجهل الجاهلين من تزيده المعرفة بسعة رحمة الله جُرْأَةً) أي شجاعة (على معاصيه) لأنه من شدة جهله وغباوته يسترسل في معصية الله ، ويتجرأ على مخالفته ومحارمه ، معتمدا على سعة رحمته وعموم لطفه بعباده ، فإذا قيل له : لم أذنبتَ ؟ قال : إن الله غفور رحيم ، ورحمته واسعة ، فسيغفر ذنبي بسعة رحمته ، ويعفو عن خطيئتي بقطرة من ماء الوضوء مثلا ، فهذا من الحمقى المغرورين ، ومن أجهل الجاهلين ، لأنه ينسى انتقامه وعذابه ، فكما كان الله رحيما بعباده الصالحين كان منتقما لعباده العاصين المتجرئين . قال الله تعالى : (عَذَابِيْ أُصِيْبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِيْ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِيْنَ يَتَّقُوْنَ وَيُؤْتُوْنَ الزَّكَاةَ وَالَّذِيْنَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُوْنَ) {الأعراف : الآية ١٥٦} . وقال تعالى : (إِنَّ رَبَّكَ سَرِيْعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُوْرٌ رَحِيْمٌ) { الأنعام : الآية ١٦٥} . والأمن من مكر الله غرور وتسويل من الشيطان الرجيم ، وهو كبيرة من الكبائر ، فلا يغتر العاقل بعبادته ، وبما أمد الله عليه من النعم ، ووعده من العفو والمغفرة حتى يكون بذلك متجرئا على مخالفته مسترسلا في معاصيه ، فإن الأعمال بالخواتيم ، ولا يدري بم خُتِم له ؟ قال الله تعالى : (فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُوْنَ) {الأعراف : الآية ٩٩} . وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إِنَّ الْعَبْدَ لَيُوْلَدُ مُؤْمِنًا وَيَعِيْشُ مُؤْمِنًا وَيَمُوْتُ كَافِرًا ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيُوْلَدُ كَافِرًا وَيَعِيْشُ كَافِرًا وَيَمُوْتُ مُؤْمِنًا ،

وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ بُرْهَةً مِنْ دَهْرِهِ بِالسَّعَادَةِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ مَا كُتِبَ لَهُ فَيَمُوْتُ شَقِيًّا ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ بُرْهَةً مِنْ دَهْرِهِ بِالشَّقَاءِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ مَا كُتِبَ لَهُ فَيَمُوْتُ سَعِيْدًا" رواه الطبراني . برهة : بضم الموحدة وقد تفتح أي مدة من الزمـان . وعن أنس رضي الله عنه قـال ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :"يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوْبِ ثَبِّتْ قَلْبِيْ عَلَى دِيْنِكَ . فَقَالُوْا : يَا رَسُوْلَ الله أَتَخْشَى عَلَيْنَا وَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَأَيْقَنَّا بِمَا جِئْتَنَا بِهِ ؟ فَقَالَ : وَمَا تَدْرِيْ أَنَّ قُلُوْبَ الْخَلَائِقِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الله" رواه الدارقطني . وليعتبر العاقل بقصة بَلْعَم بن باعُوْراء من علماء بني إسرائيل ، وبَرْصيصا وابن السَقَّاء ففيها عظةٌ لمن اتعظ وعبرةٌ لمن اعتبر .

* قصة بلعم بن باعوراء . قال الله تعالى : (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيْ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِيْنَ ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ) {الأعراف : الآية ١٧٥-١٧٦} . فانسلخ منها : أي خرج من الآيات بكفره . لرفعناه بها : أي إلى منازل العلماء . أخلد إلى الأرض : أي مال إلى الدنيا . يلهث : أي يدلع لسانه . وذكر الخطيب في تفسيره السراج المنير عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : أنّ موسى عليه السلام لما قصد حرب الجبارين ، ونزل أرض بني كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعم ، وكان عنده اسم الله الأعظم ، فقالوا : إنّ موسى رجل حَديدٌ ومعه جند كثير ، وإنه قد جاء يخرجنا من بلادنا ، ويقتلنا ويُحِلُّها بني إسرائيل ، وأنت رجل مجاب الدعوة ، فاخرج فادع الله تعالى أن يردّهم عنا ، فقال : ويلكم نبيّ الله ومعه الملائكة والمؤمنون ، فكيف أدعو عليهم وأنا أعلم من

الله ما لا تعلمون ؟ وأني إن فعلت هذا ذهبت دنياي وآخرتي ، فراجعوه وألحوا عليه ، فقال : حتى أؤامر ربي ، وكان لا يدعو حتى ينظر ما يؤمر به في المنام ، فآمر في الدعاء عليهم ، فقيل له في المنام : لا تدع عليهم ، فقال لقومه : إني قد آمرت ربي ، وإني نُهيت أن أدعو عليهم ، فأهدوا إليه هدية ، فقبلها وراجعوه ، فقال : حتى أؤامر ربي ، فآمر فلم يؤمَر بشيء ، فقال : قد آمرت ربي فلم يأمرني بشيء ، فقالوا : لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك في المرّة الأولى ، فلم يزالوا يتضرّعون إليه حتى فتنوه ، فافتتن ، فركب أتانًا له متوجهًا إلى جبل يطلعه على عسكر بني إسرائيل ، يقال له : حسبان ، فلما سار على أتانه غير بعيد ربَضَتْ ، فنزل عنها وضربها فقامت ، فركبها فلم تسر به كثيرًا حتى ربضت ، فضربها ، فأذن الله تعالى لها في الكلام ، وأنطقها له فكلمته حجةً عليه ، فقالت : ويحك ! يا بلعم أين تذهب ؟ أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي؟ ويحك ! أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين فتدعو عليهم ؟ فلم ينزجر ، فخلى الله تعالى سبيل الأتان ، فانطلقت به حتى أشرف على جبل حسبان ، فجعل يدعو عليهم ، فلا يدعو بشر إلا صرف الله تعالى به لسانه إلى قومه ، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف الله تعالى به لسانه إلى بني إسرائيل ، فقال له قومه : يا بلعم أتدري ما تصنع؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا ، فقال : هـذا مـا لا أملكه ، هذا شيء قد غلب الله عليه ، فاندلع لسانه فوقع على صدره ، فقال لهم : قد ذهب الآن مني الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكر والحيلة ، فسأمكر لكم وأحتال ، احملوا النساء وزينوهنّ وأعطوهنّ السِّلَع ، ثم أرسلوهنّ إلى عسكر بني إسرائيل يبعنها فيه ، ومروهنّ أن لا تمنع امرأةٌ نفسَها من رجل أرادها ، فإنه إن زنا رجل بواحدة كُفِيتموهم ، ففعلوا ، فلما دخل النساء العسكر

مرّت امرأة من الكنعانيين على رجل من عظماء بني إسرائيل ، وكان رأس سبط شمعون بن يعقوب ، فقام إلى المرأة وأخذ بيدها حتى أعجبه جمالها ، ثم أقبل بها حتى وقف على موسى ، وقال : إني لأظنك أن تقول : هذه حرام عليك ، قال : أجل ! هي حرام عليك لا تقربها ، قال : فو الله لا نطيعك ، ثم دخل بها قبته ، فوقع عليها ، فأرسل الله تعالى عليهم الطاعون في الوقت ، فهلك منهم سبعون ألفًا في ساعة من النهار إهـ .

* قصة برصيصا : روى عطاء وغيره عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : كان راهب يقال له برصيصا تعبد في صومعة له سبعين سنة لم يعص الله تعالى فيها طرفة عين ، وإن إبليس أعياه في أمره الحِيَلُ ، فجمع ذات يوم مَرَدَةَ الشياطين ، فقال : ألا أجد فيكم من يكفيني برصيصا ؟ فجاء الأبيض وهو صاحب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهو الذي تصدى للنبيّ صلى الله عليه وسلم وجاءه في صورة جبريل عليه السلام ليوسوس إليه على وجه الوحي ، فدفعه جبريل عليه السلام إلى أقصى أرض الهند ، وقال الأبيض لإبليس: أنا أكفيك أمره ، فانطلق فتزيا بزيّ الرهبان ، وحلق وسط رأسه ، وأتى صومعة برصيصا فناداه فلم يجبه ، وكان برصيصا لا ينفتل عن صلاته إلا في كل عشرة أيام مرّة ، ولا يفطر في كل عشرة أيام إلا مرة ، فلما رآه الأبيض أنه لا يجيبه أقبل على العبادة في أصل صومعته ، فلما انفتل برصيصا اطلع من صومعته ، فرأى الأبيض قائمًا يصلي في هيئة حسنة من هيئة الرهبان ، فلما رأى ذلك من حاله ندم على نفسه حين لم يجبه ، فقال له : إنك حين ناديتني كنت مشتغلًا عنك فما حاجتك؟ قال : حاجتي أني أحببت أن أكون

معك فأتأدب بأدبك ، وأقتبس من علمك ، ونجتمع على العبادة ، وتدعو لي ، وأدعو لك ، فقال برصيصا : إني لفي شغل عنك ، فإن كنت مؤمنًا فإن الله سيجعل لك فيما أدعو للمؤمنين نصيبًا إن استجاب الله لي ، ثم أقبل على صلاته وترك الأبيضَ ، فأقبل الأبيض يصلي ، فلم يلتفت إليه برصيصا أربعين يومًا ، فلما التفت بعدها رآه قائمًا يصلي ، فلما رأى برصيصا شدة اجتهاد الأبيض ، قال له : ما حاجتك ؟ قال : حاجتي أن تأذن لي أن أرتفع إليك ، فأذن له فارتفع إليه في صومعته ، فأقام حولًا يتعبد فلا يفطر إلا في كل أربعين يومًا مرة ، ولا ينفتل من صلاته إلا كذلك ، وربما مد إلى الثمانين ، فلما رأى برصيصا اجتهاده تقاصرت إليه نفسه ، وأعجبه شأن الأبيض ، فلما حال الحول قال الأبيض لبرصيصا : إني منطلقٌ فإن لي صاحبًا غيرَك ظننتُ أنك أشد اجتهادًا مما رأيتُ ، وكان يُبلِّغُنا عنك أنك غير الذي رأيتُ ، فدخل من ذلك على برصيصا أمر شديد ، وكره مفارقته للذي رآه من شدة اجتهاده ، فلما ودعه الأبيض قال له : إن عندي دعواتٍ أعلمكها ، تدعو بهن فهن خير مما أنت فيه ، يشفي الله تعالى بها المريض ، ويعافي بها المبتلَى والمجنون ، قال برصيصا : إني أكره هذه المنزلة لأن في نفسي شغلًا ، وإني أخاف إن عَلِم به الناس شغلوني عن عبادة ربي عز وجل ، فلم يزل به الأبيض حتى علَّمه ، ثم انطلق حتى أتى إبليس فقال : واللهِ قد أهلكتُ الرجل . فانطلق الأبيض ، فتعرض لرجل فجنَّنه ، ثم جاءه في صورة رجل متطبِّب ، فقال لأهله : إن بصاحبكم جنونًا أفأعالجُه؟ قالوا : نعم ، فقال : إني لا أقوى على جِنِّيَته ، ولكن سأرشدكم إلى من يدعو الله تعالى فيعافيه . انطلِقوا إلى برصيصا فإن عنده الإسم الذي إذا دعا به أجيب ، فانطلَقوا به إليه فسألوه ، فدعا بتلك الكلمات ، فذهب

عنه الشيطان ، فكان الأبيض يفعل ذلك بالناس ، ويرشدهم إلى برصيصا ، فيدعو لهم فيُعافَوْن . فانطلق الأبيض فتعرَّض لجارية من بنات ملوك بني إسرائيل، وكان لها ثلاثة إخوة ، وكان أبوهم هو الملك ، فلما مات استخلف أخاه ، فكان عمها ملك بني إسرائيل . قَصد لها وخنقها ، ثم جاء إليهم في صورة رجل متطبب ، فقال أفأعالجها ؟ قالوا : نعم ، قال : إن الذي عَرض لها ماردٌ لا يُطاق ، ولكن سأرشدكم إلى رجل تثقون به ، تَدعونها عنده ، إذا جاءها شيطانها دعا لها حتى تعلموا أنها قد عوفيَتْ فتردونها صحيحة ، قالوا : ومن هو؟ قال: برصيصًا ، قالوا : كيف لنا أن يجيبنا إلى هذا وهو أعظم شأنًا من ذلك ، قال : ابنوا صومعة إلى جنب صومعته ، ولتكُنْ لَزِيْقَ صومعته حتى يُشْرِف عليها ، فإن قَبِلها وإلا فتضعونها في صومعتها ، ثم قولوا له : هي أمانة عندك فاحتسب أمانتك . فانطلقوا إليه فسألوه ذلك فأبى ، فبنوا صومعة على ما أمرهم به الأبيض ، ووضعوا الجارية في صومعتها ، وقالوا : يا برصيصا هذه أختنا أمانة عندك فاحتسِبْ فيها ، ثم انصرفوا . فلما انفتل برصيصا من صلاته عاين الجارية ، وما هي عليه من الجمال ، فوقعت في قلبه ، ودخل عليه أمر عظيم ، فجاءها الشيطان فخنقها ، فكانت تكشف عن نفسها ، وتتعرض لبرصيصا ، فجاء الشيطان وقال : ويحك واقِعْها فلم تجد مثلها ، وستتوبُ بعد ذلك ، ويتم لك ما تريد من الأمر ، فلم يزل به حتى واقعها ، فلم يزل على ذلك يأتيها حتى حملت وظهر حملها ، فقال له الشيطان : ويحك يا برصيصا قد افتضحتَ ، فهل لك أن تقتلها وتتوب؟ فإن سألوك فقل : ذهب بها شيطانها ولم أقْوَ عليه ، فدخل فقتلها ، ثم انطلق بها فدفنها إلى جانب الجبل ، فجاء الشيطان وهو يدفنها ليلًا ، فأخذ بطرف إزارها فبقي خارجًا من التراب ، ثم

رجع برصيصا إلى صومعته وأقبل على صلاته ، إذ جاء إخوتها يتعهدون أختهم ، وكانوا يجيئون في بعض الأيام يسألون عنها ويوصونه بها ، فلما لم يجدوها قالوا : يا برصيصا ما فعلتْ أختنا؟ قال : قد جاء شيطانها فذهب بها ولم أطقه ، فصدقوه وانصرفوا ، فلما أمسوا مكروبين جاء الشيطان إلى أكبرهم في منامه ، فقال : ويحك! إن برصيصا فعل بأختك كذا وكذا ، وإنه دفنها في موضع كذا وكذا ، فقال الأخ : هذا حُلْمٌ وهو من عمل الشيطان ، برصيصا خير من ذلك ، فتابع عليه ثلاث ليال ، فلم يكترث فانطلق إلى الأوسط بمثل ذلك ، فقال الأوسط له ما قال الأكبر ولم يخبر به أحدًا ، فانطلق إلى أصغرهم بمثل ذلك ، فقال الأصغر لأخويه : والله لقد رأيت كذا وكذا ، فقال الأوسط : أنا والله رأيت مثله ، وقال الأكبر: أنا والله رأيت مثله . فانطلقوا إلى برصيصا وقالوا له : ما فعلتَ بأختنا ؟ فقال : أليس قد أعلمتكم بحالها ؟ فكأنكم قد اتهمتموني؟ فقالوا : والله لا نتهمك ، واستحيوا منه وانصرفوا ، فجاءهم الشيطان ، وقال : ويحكم إنها مدفونة في موضع كذا وكذا ، وإن طرف إزارها خارج من التراب . فانطلقوا فرأوا أختهم على ما رأوا في النوم فذهبوا إليه ومعهم غلمانهم ومواليهم بالفؤوس والمساحي ، فهدموا صومعة برصيصا ، وأنزلوه منها وكتَّفوه ، ثم أتوا به إلى الملك فأقرّ على نفسه ، وذلك أنّ الشيطان أتاه . فقال : تقتلها ، ثم تكابر ، فيجتمع عليك أمران قتلٌ ومكابرةٌ ، اعترِفْ ! فلما اعترَفَ أمَر الملكُ بقتله وصلبه على خشبة ، فلما صُلِب أتاه الأبيض فقال : يا برصيصًا تعرفني ؟ قال: لا، قال : أنا صاحبك الذي علمك الدعواتِ فاستجيبَ لك ، ويحك! أما اتقيتَ الله تعالى في الأمانة خُنْتَ أهلَها ، وإنك زعمت أنك أعبدُ بني إسرائيل ، أمـا استحييتَ ؟ فلم يزل يُعيِّره ، ثم قال :

ألم يكفك ما صنعت حتى أقررت على نفسك وفضحت نفسك وأشباهك من الناس ، فإن مُتَّ على هذه الحالة فلم يُفلِح أحدٌ من نظائرك ، قال : فكيف أصنع ؟ قال : تطيعني في خصلة واحدة حتى أنجيك مما أنت فيه ، فآخُذَ بأعينهم وأُخرِجَك من مكانك ، قال : وما هي ؟ قال : تسجد لي ، قال : أفعَلُ ، فسجد له فقال : يا برصيصا هذا الذي أردتُ منك صارت عاقبة أمرك إلى أن كفرتَ بربك ، إني برئ منك إني أخاف الله رب العالمين إهـ .

* قصة ابن السقاء كما ذكر في المشرَع الروي : أنه حكى إمام الشافعية في زمنه أبو سعيد عبد الله بن أبي عصرون قال : دخلت بغداد في طلب العلم فرافقت ابن السقاء بالنظامية ، وكنا نزور الصالحين ، وكان ببغداد رجل يقال له الغوث يظهر إذا شاء ، فقصدنا زيارته ومعنا الشيخ عبد القادر الجيلاني وهو يومئذ شاب ، فقال ابن السقاء لأسأله مسألة لا يدري جوابها ! وقلتُ لأسأله مسألة وأنظر ما يقول ، وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني : معاذَ الله أن أسأله شيئا وأنا بين يديه أنتظر بركته ، فدخلنا عليه فلم نره إلا بعد ساعة ، فنظر إلى ابن السقاء مغضبا وقال : ويحك ! ابن السقاء تسألني مسألة لا أدري جوابها ؟ وهي هكذا وجوابها كذا ، إني لأرى نار الكفر تتلهب فيك ، ثم نظر إليَّ وقال : يا عبد الله ! تسألني مسألة لتنظر ما أقول فيها ؟ وهي كذا وجوابها كذا ، لَتَخِرَّن عليك الدنيا إلى شحمة أذنك بإساءة أدبك ، ثم نظر إلى الشيخ عبد القادر وأدناه منه وأكرمه ، وقال له : يا عبد القادر لقد أرضيتَ الله ورسوله بأدبك ، كأني أراك ببغداد وقد صعدتَ الكرسي متكلما على الملأ ، وقلتَ : قدمي "هذه على رقبة كل ولي" ، وكأني أرى الأولياء في وقتك

وقد حَنَّوْا رقابهم إجلالا لك ، ثم غاب عنا فلم نره بعدُ ، قال : فأما الشيخ عبد القادر فقد ظهرت أمارات قربه من الله ، وأجمع عليه الخاص والعام ، وقال : قدمي هذه على رقبة كل ولي ، فأجابه في تلك الساعة أولياء الدنيا ، قال جماعة : وأولياء الجن ، وطأطؤا رؤسهم وخضعوا إلا رجلا بأصبهان فسُلِب حاله ، وممن طأطأ رأسه أبو النجيب السهروردي ، وأحمد الرفاعي ، وأبو مَدْين ، والشيخ عبد الرحيم القناوي . قال ابن أبي عصرون -الراوي الحاكي- : وأما ابن السقاء فإنه اشتغل بالعلوم حتى فاق أهل زمنه ، واشتهر بقطع من يناظره في جميع العلوم ، وكان ذا لسان فصيح ، وسمت مليح ، فأدناه الخليفة وبعثه رسولا إلى ملك الروم فأعجب به ، وجمع له القسيسين وناظرهم فأفحمهم ، وعظم - أي هذا الأمر - عند الملك ، فأراد فتنته ، فتراءت بنت الملك فافتتن بها ، فسأله أن يزوجها له ، فقال : لا ! إلا أن تنصَّر ، فتنصر والعياذ بالله وتزوجها ، ثم مرض فألقوه بالسوق يسأل القوت ، فمر عليه من يعرفه ، فقال له : ما هذا ؟ فقال : فتنة حلَّ بي بسببها ما ترى ، فقال : هل تحفظ القرآن ؟ فقال : لا ، إلا قوله تعالى : "رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِيْنَ" {الحجر : الآية ٢} . ثم جاز عليه وهو في النزع ، فقلبه إلى القبلة ، فاستدبر عنها ، فخرجت روحه لغير القبلة ، وكان يذكر كلام الغوث ويعلم أنه أصيب بسببه ، قال ابن أبي عصرون : وأما أنا فجئت إلى دمشق فأحضرني السلطان نور الدين الشهيد ، وأكرهني على ولاية الأوقاف ، فوُلِّيتُها وأقبلتْ عليَّ الدنيا إقبالا كثيرا ، فقد صدق الغوث فينا كلِّنا إهـ .

⁂

الحكمة الخامسة والأربعون

قال رضي الله عنه :

مَنْ حَدَّثَ نَفْسَهُ بِالتَّوْبَةِ مِنَ الذَّنْبِ قَبْلَ الْوُقُوْعِ فِيْهِ ، دَعَاهُ ذَلِكَ إِلَى فِعْلِهِ .

(من حدث نفسه بالتوبة من الذنب قبل الوقوع فيه) أي في الذنب (دعاه ذلك) التحديث (إلى فعله) أي الذنب . فينبغي للإنسان أن لا يحدث نفسه بالتوبة من المعصية حتى لا يفعلها ، فإن التحديث في التوبة من ذنب سيفعله كيف يتوب ؟ وكيف يستغفر الله منه ؟ يدعوه إلى فعل ذلك الذنب ، فيقول : أنا أُذْنِبُ ثم أتوب ، فهل يكون هذا على ثقة من الحياة والقرار في هذه الدار إلى أن يتوب من ذلك الذنب ؟ لا . فإن كل نفس ذائقة الموت ، ولا يعلم وقته إلا الله ، وإذا جاء أجله المحدد فلا يقدم عنه ولا يؤخر ، والتوبة إنما تقبل إذا لم يعاين الموت ، أما إذا عاينه فلا تقبل ، لأن من شروطها الندم وقد فات حينئذ . قال الله تعالى : (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِيْنَ يَعْمَلُوْنَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ) {النساء : الآية ١٨} . كما وقع لفرعون لما أيقن الموت ولا منقذ له قال : آمنتُ أنه لا إله إلا الله الذي آمنت به بنو إسرائيل . قال تعالى : (حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِيْ آمَنَتْ بِهِ بَنُوْ إِسْرَائِيْلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ ، آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِيْنَ) {يونس : الآية ٩٠-٩١} . آلآن : أي الآن تؤمن بالله ؟ . وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ" رواه الترمذي وقال : حديث حسن . ما لم يغرغر : أي ما لم تصل روحه حلقومه . والتوبة إنما

كانت عما وقع من الخطيئة التي قد ندم على فعلها ، أما التوبة التي تهيأ قبل ارتكاب الخطيئة لإزالة معالمها فليست من التوبة . قال الله تعالى : (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِيْنَ يَعْمَلُوْنَ السُّوْءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوْبُوْنَ مِنْ قَرِيْبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوْبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيْمًا حَكِيْمًا) {النساء : الآية ١٧} . وكل من عمل سوءا لا يعمله إلا من جهالة أو غفلة أو قلة تعظيم لأمر الله وإن كان عالما ، وكل من تاب قبل أن يعاين الموت ويغرغر فقد تاب من قريب . والتحدث بالتوبة عن معصية يريد فعلها إغراء للنفس على ارتكابها وتغرير من الشيطان اللعين ، فهو كالذي فعله إخوة يوسف عليه الصلاة والسلام عند إرادتهم قتله . قال الله تعالى : (اقْتُلُوْا يُوْسُفَ أَوِ اطْرَحُوْهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيْكُمْ وَتَكُوْنُوْا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِيْنَ) {يوسف : الآية ٩} . يخل لكم وجه أبيكم : أي يَخْلُصْ لكم إقبال أبيكم . قوما صالحين : يريدون أنهم سيتوبون بعد قتلهم يوسف ، فسيكونون بتوبتهم من قتله من بعد هلاك يوسف قوما صالحين ، وهؤلاء نسوا أن الموت يخفى على كل أحد ، وأنه لا يقدم ولا يؤخر ، فهم لا يدرون هل سيعيشون حتى يتوبوا ؟

⁘ ⁘ ⁘

الحكمة السادسة والأربعون

قال رضي الله عنه :

مَثَلُ الَّذِيْ يُذْنِبُ لِيَتُوْبَ ، مَثَلُ الَّذِيْ يُدَنِّسُ بَدَنَهُ وَثِيَابَهُ لِيَغْتَسِلَ . وَمَا هَكَذَا يَنْبَغِيْ . إِنَّمَا يَنْبَغِيْ أَنْ يَتَحَرَّزَ مِنَ الدَّنَسِ مَا اسْتَطَاعَ ، ثُمَّ إِنْ وَقَعَ بِحُكْمِ الْغَفْلَةِ وَالسَّهْوِ ، كَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ التَنَظُّفَ فِي الْحَالِ .

(مثل الذي يذنب ليتوب ، مثل الذي يدنس بدنه) النظيف (وثيابه) النقية (ليغتسل) ويغسل ثيابه ، فقد لا يقدر على غسل بدنه وثيابه لمانع من الموانع فيدوم دنسهما ، كذلك ربما عاقه عائق عن التوبة باخترام المنية التي لايعرف وقتها إلا الله تعالى (وما هكذا ينبغي) أي وليس مثل هذا ينبغي أن يفعل ، ومثل هذا الأحمق مثل من مزق ثيابه ليخيطها بعد ، ومن ألدغ نفسه العقرب ليرقيها بالترياق ، فإن هذا من فعل المجانين وليس من فعل العقلاء ، فرب ملسوع يموت قبل أن يصل الى الترياق ، فأكل السم على ظن أن الترياق يدفع ضرره ليس من ديدن أهل القلب السليم والعقل المستقيم ، كذلك ارتكاب المعصية على ظن أن التوبة تمحوها بعد فعلها من حبائل الشيطان وتسويلاته ، ولا يفعل ذلك إلا الحمقى المغرورون (إنما ينبغي أن يتحرز من الدنس ما استطاع) ولا يترك أي شيء من الأدناس ولو قليلا يدنس بدنه وثوبه (ثم إن وقع) الدنس (بحكم الغفلة والسهو ، كان الواجب عليه التنظف في الحال) حتى لا يتدنس بدنس آخر فيتراكم عليه الأدناس ويعسر عليه إزالتها ، كذلك الكيس العاقل إذا وقع في معصية فإنه يسرع إلى التوبة منها ، ولا يؤخرها فيخشى بذلك تراكم الظلمة على قلبه من المعاصي

حتى يصير رينًا وطبعا ، ويخشى عليه معاجلة المرض فلا يجد وقتا للاشتغال بالتوبة ، ولا يسوف فيها ، فإن التسويف من أكبر جنود إبليس . قال الله تعالى : (وَالَّذِيْنَ إِذَا فَعَلُوْا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوْا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوْا لِذُنُوْبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوْبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوْا عَلَى مَا فَعَلُوْا وَهُمْ يَعْلَمُوْنَ) {آل عمران : الآية ١٣٥} . والتوبة من الذنب واجبة ومطلوبة فورا . قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا تُوْبُوْا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوْحًا) {التحريم : الآية ٨} . والتوبة النصوح هي الخالصة لله الخالية عن الشوائب ، المستوفرة لشروط التوبة الثلاثة : الأول الندم على ما فرط منه من معصية سواء كانت ترك مأمور أوفعل محظور ، وهو يتعلق بالماضي ، وهو روح التوبة حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم : " النَّدَمُ تَوْبَةٌ " أي هو أعظم أركان التوبة . والثاني العزم على أن لا يعود إلى المعصية التي تاب منها أبدا ، بأن ينوي في قلبه أنه لايعود إلى تلك المعصية كما لا يعود اللبن إلى الضرع إذا خرج منه ، وإن حدثت بعد ذلك زلة أخرى وعاد إلى المعصية فإنه لا يضر بالتوبة . والثالث الإقلاع بالفعل عن المعصية ، وهذا معنى التوبة ، وإلا فلا فائدة للتوبة من ذنب مع إقامته على ذلك الذنب . هذا في المعصية التي بينك وبين الله ، وأما المعصية التي بينك وبين عباد الله فلا بد من شرط آخر وهو استحلالهم واسترضاؤهم وأجرهم على الله ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أَتَدْرُوْنَ مَنِ الْمُفْلِسُ" ؟ قَالُوْا : الْمُفْلِسُ فِيْنَا يَا رَسُوْلَ اللهِ مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ لَهُ ، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِيْ يَأْتِيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِيْ قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ

قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ" رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه . حكي أنه كان في زمن أبي يزيد البسطامي رحمه الله تعالى امرأة جميلة في دار مزوَّقة ، وكانت لا تمنع أحدا من نفسها ، فجلس أبو يزيد يوما على بابها ، فلم يدخل إليها أحد ، فسألتْ جاريتَها عن ذلك ، فقالت : بالباب رجل صالح ، فقالت : دعيه يدخلْ ، فلما دخل قالت : ما حاجتك ؟ قال : تنامين عندي ليلة واحدة ، قالت : ليلتي بمائة دينار ، فأخرج من جيبه مائة دينار ، ولم يكن في جيبه الدينار ولا الدرهم الواحد ، فلما أخذت مائة دينار قالت : ما تريد؟ قال : تلبسين ثيابي وتمشين أربع خطوات أمامي ، فلما فعلتْ ذلك رفع طرفه إلى السماء ، وقال : ياإلهي قد أصلحتَ ظاهرها فأصلِحْ أنت باطنَها ، ثم قال : انزعي ثيابي قالت : معاذ الله قد تبتُ إلى الله ! وقد حصل الصفاء بعد الجفاء ، والأنس بعد الوحشة ، والإتصال بعد الإنفصال ، والرضا بعد الغضب . ثم تركها ، ثم بعدَ مدةٍ وَجَدَها حول الكعبة طائفةً ، فأطعَمَتْه الفواكهَ في غير أوانِها ، ثم غابت رضي الله عنها .



الحكمة السابعة والأربعون

قال رضي الله عنه :

مَثَلُ الْأُخُوَّةِ فِي اللهِ مَثَلُ الشَّجَرَةِ ، تُسْقَى بِمَاءِ التَّزَاوُرِ ، وتُثْمِرُ التَّعَاوُنَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى . فَإِذَا لَمْ تُسْقَ الشَّجَرَةُ يَبِسَتْ ، وَإِذَا لَمْ تُثْمِرْ قُطِعَتْ .

(مثل الأخوة في الله مثل الشجرة) التي تبقى بالماء (تُسقَى) الأخوة في الله (بماء التزاور) والتواصل (وتثمر) الأخوة في الله (التعاون على البر) وهو اسم جامع لخصال الخير (والتقوى) وهي كلمة جامعة لسعادة الدنيا والآخرة . قال الله تعالى: (وَتَعَاوَنُوْا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى) {المائدة : الآية ٢} . قال بعضهم : الفرق بين البر والتقوى أن البر عام في فعل الواجبات والمندوبات وترك المحرمات ، وفي كل ما يقرب إلى الله ، والتقوى في الواجبات وترك المحرمات دون فعل المندوبات ، فالبر أعم من التقوى (فإذا لم تسق الشجرة يبست) وماتت (وإذا لم تثمر) الشجرة (قطعت) إذ لا نفع فيها غير ما كان في أخشابها ، كذلك الأُخُوَّةُ في الله إذا لم تسق بماء التزاور يبست ، وإذا لم تُثْمِرِ التعاون على البر والتقوى ينبغي قطعها ، لا خير في أخوة لا تعين على القرب من الرحمن والبعد من سخطه . أفاده السندي رحمه الله تعالى . ثم زيارة الإخوان لله تعالى مطلوبة ومرغوبة . فعن معاذ رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قال الله تعالى: وَجَبَتْ محَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّيْنَ فِيَّ ، وَالْمتَجالِسِيْنَ فِيَّ ، وَالْمُتَبَاذِلِيْنَ فِيَّ ، وَالْمُتَزاوِرِيْنَ فِيَّ" رواه الطبراني . وفي رواية : "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يُرَى ظَوَاهِرُهَا مِنْ بَوَاطِنِهَا ، وَبَوَاطِنُهَا مِنْ ظَوَاهِرِهَا ، أَعدَّهَا اللهُ لِلْمُتَحَابِّيْنَ فِي اللهِ ، وَالْمُتَزَاوِرِيْنَ فِيْهِ ، وَالْمُتَباذِلِيْنَ فِيْهِ" .

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إِنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِيْ قَرْيَةٍ فَأَرْصَدَ اللهُ تَعَالَى عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا ، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ : أَيْنَ تُرِيْدُ؟ قَالَ : أُرِيْدُ أَخًا لِيْ فِيْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ . قَالَ : هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ : لَا، غَيْرَ أَنِّيْ أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ . قَالَ : فَإِنِّيْ رَسُوْلُ اللهِ إِلَيْكَ ، بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيْهِ" . فأرصد الله تعالى : أي هيأ له . مدرجته : أي طريقه . تربها : أي تحفظها وتراعيها . وإنما تطلب الزيارة إذا كانت متوسطة لا في إقلال ولا في إكثار ، فإن تقليل الزيارة داعية الهجران والمقاطعة ، وتكثيرها سبب الملل والسآمة . قال صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة رضي الله عنه : "زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا" رواه الطبراني والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه . غِبًّا : أي وقتا بعد وقت .
وقال لَبِيد من الوافر :

تَوَقَّفْ عَنْ زِيَارَةِ كُلِّ يَوْمٍ * إِذَا أَكْثَرْتَ مَلَّكَ مَنْ تَزُوْرُ

وقد كان أسلافنا الصالحون يتزاورون لله تعالى ويتذاكرون بينهم ، وكان أحمد بن حنبل يعظم الشافعي رضي الله تعالى عنهما ويذكره كثيرًا ، وكانت له ابنة صالحة قوامة صوامة تحب أخبار الصالحين ، وتود أن تراهم وترى الشافعي لتعظيم أبيها إياه ، فاتفق مبيت الشافعي عند أحمد في وقت ، ففرحت البنت بذلك طمعًا أن ترى أفعاله وتسمع مقاله ، فلما كان الليل قام الإمام أحمد إلى وظيفة صلاته وذِكْرِه ، والإمام الشافعي مُلْقًى على ظهره ، والبنت ترقبه إلى الفجر ، ثم قالت لأبيها : يا أبت تعظم الشافعي وما رأيته يصلي في هذه الليلة ولا يذكر ، فبينما هما في الحديث إذ قام الإمام الشافعي فقال له أحمد : كيف كانت ليلتك ؟ فقال : ما بت بليلة

أطيب منها ولا أبرك . فقال : كيف ذلك ؟ فقال : لأني استنبطت في هذه الليلة مائة مسألة وأنا مستلق على ظهري في منافع المسلمين ، ثم ودعه ومضى ، فقال أحمد بن حنبل لابنته : هذا الذي عمله الليلة أفضل من الذي عملته وأنا قائم . وفي رواية : أنها قالت لأبيها : عجبتُ لضيفك هذا الذي يشار إليه ، فإنه أكل كثيرًا ، ونام كثيرًا ، وصلى بغير وضوء ، فتعجب أحمدُ من ذلك ، فسأله فقال : أما أني أكلت كثيرًا فقد سمعت أن من طوى بطنه عن طعام أخيه وهو يشتهيه لم يحسن أدبه معه ، وأما أني نمت كثيرًا فلم أنم ، وإنما سمعت حديثًا فأعملت ذهني في الإستنباط منه ، وأما أني صليتُ بغير وضوء فما انتقض وضوئي حتى أذن المؤذن ، فالوضوء الذي صليت به العشاء هو الذي صليت به الفجر . وكان الإمام أحمد يدعو كثيرا للشافعي في السحر قبل صلاة الفجر يقول : اللهم اغفر للشافعي ، اللهم ارحم الشافعي ، اللهم ارض عن الشافعي ، فيقول ابنه صالح : يا أبتاه أراك تدعو للشافعي كثيرًا ! قال : يا بني! أتدري ما مثل الشافعي؟ قال : لا. قال : مثل الشافعي كالشمس للأرض وكالعافية للأبدان ، فإذا ذهبا هل لهما من خلَفٍ ؟ وحكى شيخنا العلامة السيد عمر بن حامد الجيلاني ما معناه : أن بعض تلاميذ الشافعي قال للشافعي : كيف تزور أحمد وتكثر من زيارته وهو تلميذك و أصغر منك ؟ فرد عليه الشافعي ببيتين :

قَالُوْا يَزُوْرُكَ أَحْمَدٌ وَتَزُوْرُهُ * قُلْتُ الْفَضَائِلُ لَا تُفَارِقُ مَنْزِلَهْ
إِنْ زُرْتُهُ فَلِفَضْلِهِ أَوْ زَارَنِيْ * فَلِفَضْلِهِ فَالْفَضْلُ فِي الْحَالَيْنِ لَهْ

وخرج الشافعي من بغداد وهو يعانق أحمد وهو يبكي ، ويقول الشافعي : خرجت

من بغداد وما خلَّفتُ أفقهَ ولا أزْهدَ ولا أوْرعَ ولا أعْلَمَ ولا أخشى من الإمام أحمد . رضي الله عنهما ونفعنا بعلومهما آمين .

⁂⁂⁂

الحكمة الثامنة والأربعون

قال رضي الله عنه :

إذَا عَمِلْتَ الطَّاعَةَ ، فَانْظُرْ إِنْ شِئْتَ فِيْ بِدَايَتِهَا الَّتِيْ كَانَتْ بِحَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ وَحُسْنِ تَوْفِيْقِهِ ، وَبِذَلِكَ يَنْتَفِي الْإِعْجَابُ ، وَيَبْقَى شُهُوْدُ الْمِنَّةِ لله تَعَالَى . وَإِنْ شِئْتَ نَظَرْتَ فِيْ نِهَايَتِهَا الَّتِيْ هِيَ جَزِيْلُ الثَّوَابِ ، وَحُسْنُ الْمَآبِ ، وَعِنْدَهُ تَعْظُمُ الرَّغْبَةُ وَتَخِفُّ الْمُدَاوَمَةُ . وَالْأَوَّلُ أَتَمُّ .

وَإِذَا وَقَعَتْ مِنْكَ الْمَعْصِيَةُ ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى بِدَايَتِهَا الَّتِيْ هِيَ التَّقْدِيْرُ ، فَيَدْعُوْكَ ذَلِكَ إِلَى الْإِحْتِجَاجِ عَلَى اللهِ ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ . وَلَكِنْ يَنْبَغِيْ أَنْ تَنْظُرَ فِيْ نِهَايَتِهَا الَّتِيْ هِيَ أَلِيْمُ الْعِقَابِ وَشَدِيْدُ الْعَذَابِ ، وَعِنْدَهُ تُبَادِرُ إِلَى التَّوْبَةِ وَتَعْظُمُ الرَّهْبَةُ .

(إذا عملت الطاعة) التي قد يعجب بها العبد الضعيف السخيف (فانظر إن شئت في بدايتها التي كانت بحول الله) أي تصريفه تعالى (وقوته وحسن توفيقه) لك ، ولولا ذلك لما قدرتَ على شيء قليل من أعمال الطاعة فضلا عن كثيرها (وبذلك) أي بالنظر إلى بدايتها (ينتفي الإعجاب) بعملك ، وهو مذموم من المهلكات . فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "المُهلِكَاتُ

ثَلَاثٌ : إِعْجَابُ ٱلْمَرْءِ بِنَفْسِهِ ، وَشُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ" رواه البزار . إعجاب المرء بنفسه : أي ملاحظته إياها بعين الكمال مع نسيان نعمة الله تعالى . شح مطاع : أي بخل يطيعه الإنسان فلا يؤدي ما عليه من الحقوق ، أما لو كان الشح موجودا في النفس غير مطاع فلا يكون من المهلكات لأنه من لوازم النفس . هوى متبع : بأن يتبع ما يأمره به هواه (ويبقى شهود المنة لله تعالى) إذ لولاها لَمَاَ وجدت منك الطاعة ، والله تعالى هو الذي مَنَّ عليك بالطاعة ، وهو الذي أقدرك وجعل فيك القوة عليها ، قال تعالى : (يَمُنُّوْنَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوْا قُلْ لَا تَمُنُّوْا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ) { الحجرات : الآية ١٧} . يمنون عليك أن أسلموا : أي يعتدون إسلامهم من غير قتالٍ مِنَّةً عليك ، بخلاف غيرهم ممن أسلم بعد قتال منهم . (وإن شئت نظرت في نهايتها التي هي جزيل الثواب ، وحسن المآب ، وعنده) أي عند النظر في نهايتها (تعظم الرغبة) في الطاعة (وتخف المداومة) والمواظبة عليها (والأول) أي النظر إلى بداية الطاعة التي تكون بحول الله تعالى (أتم) وأفضل ، لأنك بالأول لا ترى قدرتك على الطاعة إلا بتوفيق الله وإعانته لك ، ولا تشتغل بها إلا لأجل خدمة الله تعالى وعبادته ، لا طمعا في جنته ، ولا خوفا من ناره ، فكنت في الطاعة في غاية الكمال والإخلاص ، بخلاف الثاني وهو النظر إلى نهاية الطاعة ، فإنك إنما اشتغلت بها لأجل شيء مرغوب وهو جزيل الثواب وحسن المآب .

قال ابن عجيبة : الإخلاص على ثلاث درجات : درجة العوام ، والخواص ، وخواص الخواص .

فإخلاص العوام : هو إخراج الخلق من معاملة الحق مع طلب الحظوظ الدنيوية

والأخروية كحفظ البدن والمال وسعة الرزق والقصور والحور .

وإخلاص الخواص : طلب الحظوظ الأخروية دون الدنيوية .

وإخلاص خواص الخواص : إخراج الحظوظ بالكلية ، فعبادتهم تحقيق العبودية ، والقيام بوظائف الربوبية ، أو محبةً وشوقا إلى رؤيته كما قال ابن الفارض :

لَيْسَ سُؤَالِيْ مِنَ الْجِنَانِ نَعِيمًا * غَيْرَ أَنِّيْ أُحِبُّهَا لِأَرَاكَا

وقال آخر :

كُلُّهُمْ يَعْبُدُوْنَ مِنْ خَوْفِ نَارٍ * وَيَرَوْنَ النَّجَاةَ حَظًّا جَزِيْلًا

أَوْ بِأَنْ يَسْكُنُوا الْجِنَانَ فَيُضْحُوْا * فِيْ رِيَاضٍ وَيَشْرَبُوْا السَّلْسَبِيْلَا

لَيْسَ لِيْ فِي الْجِنَانِ وَالنَّارِ رَأْيٌ * أَنَا لَا أَبْتَغِيْ بِحِبِّيْ بَدِيْلَا

(وإذا وقعتْ منك المعصية ، فإياك أن تنظر إلى بدايتها التي هي التقدير) من الله تعالى ، وذلك شأن بعض المغرورين الذي قال بتسويل الشيطان عليه : إن الأمور كلها مقدَّرة ، وأن المعصية التي ارتكبها مِن قَدَر الله تعالى (فيدعوك ذلك) أي النظر إلى بدايتها التي كانت بحوله تعالى إلى التمادي في المعصية وفعل المخالفات والمنكرات ، ويدعوك ذلك أيضا (إلى الإحتجاج) أي الإعتراض (على الله) في وقوعك في المعصية (وهو) أي الإحتجاج على الله (أعظم من المعصية) إذ الإحتجاج عليه تعالى عصيان وخصومة واعتراض عليه في فعله وحكمته ، وإسخاط له بمعارضته حيث لا ترى قضاء الله تعالى في ذلك عدلا ، وذلك من صفات الكفار والمنافقين ، ولا اعتراض في جميع أفعال الله تعالى ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . قال شيخنا العلامة السيد عمر الجيلاني حفظه الله تعالى ما

معناه : وقعت مناظرة بين أبي إسحاق الإسفرائيني وبين عبد الجبار المعتزلي في مسألة خلق أفعال العباد ، وذلك أن القاضي عبد الجبار الهمذاني المعتزلي دخل على الصاحب بن عباد وكان معتزليا أيضا ، وكان عنده الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائيني ، فقال عبد الجبار على الفور : سبحان من تنزه عن الفحشاء ! وقصدُه أنَّ المعاصي كالسرقة والزنا بمشيئة العبد دون مشيئة الله ، لأنَّ الله أعلى وأجَلُّ من أن يشاء القبائح في زعمهم ، فقال أبو إسحاق : كلمة حقٍّ أُريد بها باطل ، ثم قال فورا : سبحان مَن لا يقع في ملكه إلاَّ ما يشاء ، فقال عبد الجبار وفهم أنه قد عرف مراده : أيريد ربنا أن يُعصَى؟ فقال أبو إسحاق : أيُعصى ربنا قهرا ؟ فقال له عبد الجبار : أرأيت إن منعني الهدى وقضى علي بالرَّدَى ، أحسن إلي أم أساء ؟ فقال له أبو إسحاق : إن كان منَعك ما هو لك فقد أساء ، وإن كان منَعك ما هو له فيختص برحمته من يشاء . فانصرف الحاضرون وهم يقولون : واللهِ ليس عن هذا جوابٌ . (ولكن ينبغي) لك (أن تنظر في نهايتها) أي المعصية (التي هي أليم العقاب وشديد العذاب) من نار وحيات وعقارب وغيرها (وعنده) أي عند النظر إلى النهاية (تبادر) أنت (الى التوبة) من معصيتك (وتعظم الرهبة) من أليم العقاب الذي ستذوقه بسبب معصيتك إن لم يداركك عفو الله تعالى ولطفه .

⁘⁘⁘

الحكمة التاسعة والأربعون

قال رضي الله عنه :

مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ : التَّوَاضُعُ فِي الرِّفْعَةِ ، وَالتَّجَمُّلُ فِي الْقِلَّةِ ، وَالْإِقْتِصَادُ فِي الثَّرْوَةِ .

(من مكارم الأخلاق) التي يتحلى بها العقلاء (التواضع) وهو خفض الجناح ولين الجانب مع بقاء عزة الدين (في الرفعة) والمراد بذلك التواضع من ذي الرفعة أي المكانة العالية سواء كانت علمية ، أواجتماعية ، أودنيوية ، مما يكون الإنسان متميزا بها عن الآخرين . وفي الحديث : " إِنَّ مِنَ التَّوَاضُعِ لله الرِّضَا بِالدُّوْنِ مِنْ شَرَفِ اَلْمَجَالِسِ" رواه الطبراني عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه . بالدون : أي الأقل . قال المناوي : فمن هذب نفسه حتى رضِيَتْ منه بأن يجلس حيث انتهى به المجلس ، كما كانت عادة المصطفى صلى الله عليه وسلم سمي متواضعا لله حقا ، فالفضيلة إنما هي بالإتصاف بالكمالات العلمية والعملية ، لا برفعه المواضع ، ولا بالخِلَع ، ولا بالمناصب ، فلو جلس ذو الفضيلة عند النعال لصار موضعه صدرًا وعكسه ، فليحذر من هذا التنافس المذموم شرعا ، فإنه سم قاتل . وفي ضمن هذا الحديث الأخذ بمدحة التواضع ، والأمر به . قال بعض العارفين : احذر أن تريد علوا في الأرض ، والزم الخمول ، وإن أعلى اللهُ كلِمتَك فما أعلاها إلا الحقُّ ، وإن رزقك الرفعة في قلوب الخلق فذلك إليه تعالى ، والذي عليك التواضع والذلة والإنكسار ، فإنك إنما أنشأك الله من الأرض فلا تعلو عليها ، فإنها أمك ، ومن تكبر على أمه فقد عقها ، وعقوق الوالدين محرم مذموم إهـ . وقال رسول الله

صلى الله عليه و سلم : "طُوْبَى لِمَنْ تَوَاضَعَ مِنْ غَيْرِ مَنْقَصَةٍ ، وَذَلَّ فِيْ نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ مَسْكَنَةٍ ، وَأَنْفَقَ مَالًا جَمَعَهُ مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ ، وَرَحِمَ الْمَسَاكِيْنَ أَهْلَ الْمَسْكَنَةِ ، وَخَالَطَ أَهْلَ الْفِقْهِ وَالْحِكْمَةِ ، طُوْبَى لِمَنْ ذَلَّ فِيْ نَفْسِهِ ، وَطَابَ كَسْبُهُ ، وَأَصْلَحَ سَرِيْرَتَهُ وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ ، طُوْبَى لِمَنْ عَمِلَ بِعِلْمِهِ ، وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ" رواه الطبراني والبيهقي وابن عساكر عن ركب المصري . طوبى : أي فرح وقرة عين . من غير منقصة : أي من غير أن يؤدي التواضع إلى نقص في الدين كأن يضع نفسه في مكان يستهان به . من غير مسكنة : أي من غير تذلل بإظهار المسكنة . وكان من تواضع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجيب دعوة الحر والعبد ، والغني والمسكين ، ويقبل الهدية ولو جرعة لبن أوفخذ أرنب ، ويكافئ عليها ، ويأكلها ، ولا يستكبر عن إجابة العبدِ والمسكين ، وأيُّ خَلْقٍ أفضل من رسول الله صلى الله عليه وسلم شرفا وعلما وجاها وهو سيد المتواضعين ؟ وفي بغية المسترشدين : وعن السمهودي قال : من فضل التواضع ما ذكر أن الله تعالى أتحف آدم عليه السلام بخاتم ، فقال الإبهام : أنا أحق به منكن لكوني منفرداً ، وقالت السبابة : أنا أحق به لكوني مسبحة ، وقالت الوسطى : أنا أحق به لكوني أطولكن ، وقالت البنصر : أنا أحق به لكوني طرفاً ، فيئست الخنصر منه لانكسارها وصغرها ، فخصها الله به ، ورفعها بتواضعها لكونها لم تر نفسها مستحقة اهـ . قال الفقهاء : يسن للرجل وضع خاتمه في خنصريمينه ، لأنه أبعد من الإمتهان فيما يتعاطى باليد ، لكونه طرفا ، ولأنه لا يشغل اليد عما تتناوله من أشغالها ، بخلاف غير الخنصر أ فيكره وضعه فيه ، وقيل : يحرم ، والمعتمد الكراهة . (و) من مكارم

الأخلاق (التجمل) في البدن والثياب (في القلة) أي قلة المال ، وليقصد العاقل بتجمله السلامة من إيذاء الناس والتوصل إلى حقوقه ، ولذا قال بعضهم : إسقاط الجاه ليس مطلوبا لذاته ، بل لما يتبعه من غلظ النفس إهـ . أي فلا بد للإنسان من جاهٍ مَّا لئلا تبخس حقوقه وتنتهك حرمته لأن الناس إنما يعتبرون ظاهر الصور . فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : "قُلْتُ : يَا رَسُوْلَ اللهِ أَمِنَ الْكِبْرِ أَنْ أَلْبَسَ الْحُلَّةَ الْحَسَنَةَ ؟ قال : إِنَّ اللهَ جَمِيْلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ" أخرجه الحاكم. وعن أبي الأحوص عن أبيه قال : "أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيْ ثَوْبٍ دُوْنٍ ، فَقَالَ : أَلَكَ مَالٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟ قَالَ : قَدْ آتَانِيَ اللهُ مِنَ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ وَالْخَيْلِ وَالرَّقِيْقِ ، قَالَ : فَإِذَا آتَاكَ اللهُ مَالًا فَلْيُرَ أَثَرُ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْكَ وَكَرَامَتِهِ" أخرجه أبو داود . وقد كان مالك رضي الله عنه يتجمل في ملبسه ولا يتبذَّل . ولذا قيل : ينبغي للعالم أن يطهِّر مروءته في ثيابه إجلالا للعلم وصيانة لعِرضه ودينه . قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِيْنَ يُدْنِيْنَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيْبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ) { الأحزاب : الآية ٥٩} . وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه : "مَنْ نَظُفَ ثَوْبُهُ قَلَّ هَمُّهُ، وَمَنْ طَابَ رِيْحُهُ زَادَ عَقْلُهُ" . ومما يُعْزَى للإمام الشافعي رضي الله عنه :

حَسِّنْ ثِيَابَكَ مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّهَا * زَيْنُ الرِّجَالِ بِهَا تُعَزُّ وَتُكْرَمُ
وَدَعِ التَّخَشُّنَ فِي الثِّيَابِ تَوَاضُعًا * فَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّ وَتَكْتُمُ
فَجَدِيْدُ ثَوْبِكَ لَا يَضُرُّكَ بَعْدَ أَنْ * تَخْشَى الْإِلَهَ وَتَتَّقِي مَا يَحْرُمُ
وَرَثِيْثُ ثَوْبِكَ لَا يَزِيْدُكَ رِفْعَةً * عِنْدَ الْإِلَهِ وَأَنْتَ عَبْدٌ مُجْرِمُ

وكان بعض الأولياء يتجمل بالثياب الجميلة الفاخرة كالشيخ السيد عبد القادر الجيلاني ، والسيد علي وفا ، وغيرهما . وكان سلطان الأولياء الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه يلبس كل ذراع من الخام بدينار، فاعتَرَض عليه بعض الناس ، فقال : العبد إذا مات كُفِّن مرةً ، وأنا قَدْ مُتُّ أكثرَ من مائة موتةٍ في مخالفة نفسي ، فلي أن ألبس كل بدلة ثمن مائة كفنٍ .

(و) من مكارم الأخلاق (الإقتصاد) أي التوسط بين الإسراف والإقتار (في الثروة) أي الغنى ، فينبغي للغني أن يكون متوسطا فلا يسرف ولا يقتر ، وقد أمر صلى الله عليه وسلم صاحب الثروة أحد المبشرين بالجنة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بالتوسط في الصدقة كما في الحديث الآتي . قال تعالى : (وَالَّذِيْنَ إِذَا أَنْفَقُوْا لَمْ يُسْرِفُوْا وَلَمْ يَقْتُرُوْا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) { الفرقان : الآية ٦٧ } . قواما : أي عدلا وسطا . وقال صلى الله عليه وسلم : "مَا عَالَ مَنِ اقْتَصَدَ" رواه أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه . ما عال : أي ما افتقر . قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : جَاءَنِيْ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُوْدُنِيْ عَامَ حِجَّةِ الْوَدَاعِ مِنْ وَجَعٍ اشْتَدَّ بِيْ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُوْلَ اللهِ إِنِّيْ قَدْ بَلَغَ بِيْ مِنَ الْوَجَعِ مَا تَرَى ، وَأَنَا ذُوْ مَالٍ ، وَلَا يَرِثُنِيْ إِلَّا ابْنَةٌ لِيْ ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِيْ ؟ قَالَ : لَا . قَالَ قُلْتُ : فَالشَّطْرُ يَا رَسُوْلَ اللهِ ؟ قَالَ : لَا . قُلْتُ : فَالثُّلُثُ ؟ قَالَ : الثُّلُثُ ، وَالثُّلُثُ كَثِيْرٌ أَوْ كَبِيْرٌ ، إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُوْنَ النَّاسَ ، وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِيْ بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا ، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِيْ فِيْ امْرَأَتِكَ ، قال فَقُلْتُ : يَا رَسُوْلَ اللهِ أُخَلَّفُ بَعْدَ أَصْحَابِيْ ؟ قَالَ : إِنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ فَتَعْمَلَ عَمَلًا تَبْتَغِيْ بِهِ وَجْهَ اللهِ إِلَّا ازْدَدْتَ بِهِ

دَرَجَةً وَرِفْعَةً ، وَلَعَلَّكَ تُخَلَّفُ حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُوْنَ" أخرجه الشيخان . الشطر : أي النصف . تذر : أي تترك . عالة : أي فقراء ، جمع عائل . يتكففون الناس : أي يسألون الناس بأكُفِّهِمْ . في في امرأتك : أي في فم امرأتك . أُخَلَّف بعد أصحابي : أي أُتْرَكُ في مكة بعد انصرافهم عنها . إنك لن تُخَلَّف فتعمل عملا إلخ : أي لن يؤخَّر في أجلك فتعمل عملا صالحا . ولعلك تُخَلَّف : أي يؤخَّرُ أجلُك ويطول عمرك . وقال المأمون رحمه الله تعالى : "لَا خَيْرَ فِي السَّرَفِ وَلَا سَرَفَ فِي الْخَيْرِ" . وقال بعض الحكماء : "صَدِيْقُ الرَّجُلِ قَصْدُهُ وَعَدُوُّهُ سَرَفُهُ" . قصده : أي اقتصاده وتوسطه . وقال بعضهم : "الْفَضِيْلَةُ وَسَطٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ" أي طرفي الإفراط والتفريط ، فالشجاعة مثلا وسط بين التهور والجبن ، والكرم وسط بين التبذير والتقتير ، وهكذا . ومما جاء في الإفراط في الصدقة : ما روي عن ثابت ابن قيس أنه قطع خمسمائة نخلة ، ففرق ثمرها كله ، ولم يدخل منه شيئا إلى منزله .

✦✦✦✦✦✦✦✦✦

الحكمة الخمسون

قال رضي الله عنه :

الْعَاقِلُ الَّذِيْ لَا عِلْمَ لَهُ ، كَالرَّشِيْدِ الَّذِيْ لَا مَالَ لَهُ . وَالْعَالِمُ الَّذِيْ لَا عَقْلَ لَهُ ، كَصَاحِبِ الْمَالِ الَّذِيْ لَا رُشْدَ لَهُ .

(العاقل) الذي يميز بعقله بين الحسن والقبيح (الذي لا علم له) في أمور الدين (كالرشيد) وهو من يحسن التصرف في ماله (الذي لا مال له) فلا ينفع رشده شيئا لأنه لم يكن له مال يستعمل رشده فيه ، كذلك العاقل الذي لم يأخذ حظا كافيا من

علم الشرع الذي يرشده إلى ما كان فيه صلاح دينه ودنياه وآخرته لا ينفع عقله شيئا لا لنفسه ولا لغيره ، فالعاقل الذي لا علم عنده كمن يكون مؤهلا ماهرا لصنعة من الصنائع ولكن ليس عنده آلة لتلك الصنعة (والعالم الذي لا عقل له كصاحب المال الذي لا رشد له) أي كصاحب المال الذي لا يحسن التصرف فيه ، فيتلفه ويضيعه ، كذلك العالم الذي لا ينتفع بعقله الذي يزن الأمور ويميز بين الحسن والقبيح منها ، لايحسن التصرف في علمه ، فلا ينتفع به ولا ينفع غيره ، بل يضيعه ويتلفه ، حيث يضع علمه في غير محله ، ولايعمل بعلمه فيما ينفع له . فهو كمن تكون عنده آلة للصنعة ولكنه لا يعرف العمل بها . فالسعيد كل السعادة هو من رُزق جملةً صالحة من علم الشرع ، وعقلا صحيحا يميز بين الصحيح والباطل والحسن والقبيح ، فيضع علمه بسبب عقله الصحيح في محله ، ويُؤْثِر ما ينبغي إيثاره على ماسواه . والذي يعلم ولكنه لا يميز بين حسن الأشياء وقبيحها فليس من ذوي العقول الصحيحة ، أو الذي يميز لكن غلبت شهوته عقله ، فبقي عقله تابعا لشهوته فلم يُؤْثِرِ الأحسنَ ، كان ناقصَ العقل . قال الله تعالى : (الَّذِيْنَ يَسْتَمِعُوْنَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُوْنَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِيْنَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ) { الزمر : الآية ١٨} . أولو الألباب : أي العقول الزكية . وقيل للجنيد رضي الله عنه : متى يكون الرجل موصوفًا بالعقل؟ فقال : إذا كان للأمور متميزًا ، ولها متصفحًا ، وعما يوجبه عليه العقل باحثًا ، فيتخيرُ بذلك طلب الذي هو أولى ، ليعمل به ، ويُؤْثِرَهُ على ما سواه . عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : "يَا ابْنَ آدَمَ اتَّقِ رَبَّكَ وَبِرَّ وَالِدَيْكَ وَصِلْ رَحِمَكَ يُزَدْ لَكَ فِيْ عُمْرِكَ وَيُيَسَّرْ لَكَ يُسْرُكَ وَتُجَنَّبْ عُسْرَكَ وَيُبْسَطْ لَكَ فِيْ رِزْقِكَ ، يَا ابْنَ

آدَمَ أَطِعْ رَبَّكَ تُسَمَّى عَاقِلًا ، وَلَا تَعْصِ رَبَّكَ فَتُسَمَّى جَاهِلًا" . وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : "يَا عُوَيْمِرُ ازْدَدْ عَقْلًا تَزْدَدْ مِنْ رَبِّكَ قُرْبًا ، قَالَ قلتُ : بِأَبِيْ أَنْتَ وَأُمِّيْ وَكَيْفَ لِيْ بِذَلِكَ - أي بالعقل- ؟ قال : اجْتَنِبْ مَحَارِمَ اللهِ وَأَدِّ فَرَائِضَ اللهِ تَكُنْ عَاقِلًا ، وَتَنَفَّلْ بِالصَّالِحَاتِ مِنَ الْأَعْمَالِ تَزْدَدْ بِهَا فِيْ عَاجِلِ الدُّنْيَا رِفْعَةً وَكَرَامَةً ، وَتَنَلْ بِهَا مِنْ رَبِّكَ الْقُرْبَ وَالْعِزَّةَ" رواه الحارث والترمذي الحكيم في النوادر . وقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : "إِنَّمَا الْعَاقِلُ مَنْ آمَنَ بِاللهِ ، وَصَدَّقَ رُسُلَهُ ، وَعَمِلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ" أخرجه ابن المحبر عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه .

✦✦✦✦✦✦✦✦✦

الحكمة الحادية والخمسون

قال رضي الله عنه :

سَخِّرْ عَقْلَكَ لِعِلْمِكَ ، وَسَخِّرْ نَفْسَكَ لِعَقْلِكَ .

(سخر عقلك) الذي يضبطك ويعقِلك عن الوقوع فيما يشينك (لعلمك) فيكون علمك بتسخير عقلك لخدمته موزونا بميزان العقل المميز بين الحسن وغيره ، ويضبط عقلك ما علمتَه فتعمل بما ينبغي وتكف عما لا ينبغي (وسخر) أنت (نفسك لعقلك) فيكون عقلك يزكي نفسك ، ويربيها بتربية حسنة ، ويحسن تصرفاتها ، فالذي فعل ما ذكر هو الذي يسعى للفضل والكمال . قال السندي رحمه الله تعالى : فمن فعل عكس ما ذكر فقد ضيع علمه وعقله إهـ . قال شيخنا

العلامة السيد عمر الجيلاني حفظه الله تعالى : من اللطائف أنه ينبغي أن يكون العلم في مؤخر الذاكرة ، ويكون العقل في مقدمها ، فلا يمر علم إلا على عقل حتى يوزن بميزان العقل ، ولايوضع إلا في محله إهـ . والعقل كما عرفه بعضهم : صفة غريزية يتبعها العلم بالضروريات عند سلامة الحواس الخمس . وقال بعضهم : إنه صفة يميز بها بين الحسن والقبيح ، وفي ذلك أقوال . قال الغزالي رحمه الله تعالى : العقل منبع العلم ومطلعه وأساسه ، والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة ، والنور من الشمس ، والرؤية من العين إهـ . عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : "لِكُلِّ شَيْءٍ دِعَامَةٌ ، وَدِعَامَةُ الْمُؤْمِنِ عَقْلُهُ ، فَبِقَدْرِ عَقْلِهِ تَكُوْنُ عِبَادَةُ رَبِّهِ ، أَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ الْفَاجِرِ عِنْدَ نَدَامَتِهِ : (لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ ، أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيْ أَصْحَابِ السَّعِيْرِ)" { الملك : الآية ١٠} رواه الحارث ابن محمد . دعامة : ما يسند به ليمنعه من السقوط . وقال بعض الأدباء : "صَدِيْقُ كُلِّ امْرِيءٍ عَقْلُهُ ، وَعَدُوُّهُ جَهْلُهُ" . وقال بعضهم : "خَيْرُ الْمَوَاهِبِ الْعَقْلُ وَشَرُّ الْمَصَائِبِ الْجَهْلُ" . قال الشاعر :

يَزِيْنُ الْفَتَى فِي النَّاسِ صِحَّةُ عَقْلِهِ * وَإِنْ كَانَ مَحْظُوْرًا عَلَيْهِ مَكَاسِبُهْ

يَشِيْنُ الْفَتَى فِي النَّاسِ قِلَّةُ عَقْلِهِ * وَإِنْ كَرُمَتْ أَعْرَاقُهُ وَمَنَاسِبُهْ

يَعِيْشُ الْفَتَى بِالْعَقْلِ فِي النَّاسِ إِنَّهُ * عَلَى الْعَقْلِ يَجْرِيْ عِلْمُهُ وَتَجَارِبُهْ

وَأَفْضَلُ قَسْمِ اللهِ لِلْمَرْءِ عَقْلُهُ * فَلَيْسَ مِنَ الْأَشْيَاءِ شَيْءٌ يُقَارِبُهْ

إِذَا أَكْمَلَ الرَّحْمَنُ لِلْمَرْءِ عَقْلَهُ * فَقَدْ كَمُلَتْ أَخْلَاقُهُ وَمَآرِبُهْ

وإن كان محظورا عليه مكاسبه : يعني : وإن كان فقيرا . أعراقه : أي أصوله . مناسبه : أي نسبه . يجري علمه وتجاربه : يعني : أن الفتى يكون عالما مُجَرَّبا بقدر عقله . قسم الله : أي ما قسمه الله لعباده . يقاربه : أي يقارب العقل ويماثله . مآربه : أي مقاصده وحوائجه . واختلف في الأفضل بين العقل والعلم ، فقال ابن حجر : بأفضلية الأول لأنه منبع العلم وأساسه . وقال الرملي : بالثاني لأن العلم يوصف به الله تعالى . وهذا الخلاف مما لا طائل تحته ، كما قاله الباجوري رحمه الله تعالى .



الحكمة الثانية والخمسون

قال رضي الله عنه :

مَا الشَّأْنُ شُهُوْدُ التَّقْصِيْرِ فِي التَّقْصِيْرِ ، إِنَّمَا الشَّأْنُ شُهُوْدُ التَّقْصِيْرِ فِي التَّشْمِيْرِ .

(ما الشأن شهود التقصير في التقصير) أي ليس الشأن العظيم في كمال العبودية لله تعالى أن ترى التقصير في تقصيرك بترك الطاعة وارتكاب الذنب . قال السندي رحمه الله تعالى : لأنه يشهده كل عاقل ويقبحه كل جاهل إهـ . وهذا من الأمور التي لا تنبغي وهو غير محمود ، لأنك إذا رأيت التقصير مع تقصيرك وادعيت ذلك ، ربما تكون بذلك موهما غيرك أنك من المشمرين في العبادة لكنك تعتذر بحكم التواضع ، وهذا شأن الكاذبين المزوِّرين . قال صلى الله عليه وسلم :

"الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُوْرٍ" أخرجه الشيخان . (إنما الشأن) العظيم في كمال العبودية (شهود التقصير في التشمير) في طاعة الله ، والتشمير في الطاعة هو الإجتهاد والمبالغة فيها . قال السندي : بأن ترى أن لو أتيت بعبادة العوالم كلها لم تساو شيئا ولم تكن شيئا لأن حق الله أعلى وأجل ، بل ربما تستحي هل مثلك الذليل أهلٌ أن يَخدُم ذلك الجليل؟ إهـ . فشهود التقصير في التشمير أمر محمود ، وهو من شأن أهل الكمال ولايزال السالك بذلك يزيد في طاعة الله والتقرب إليه ، ويسعى في طريق الوصول إليه ، ويترقى في الكمالات . قال بعضهم : "الْعَمَلُ الَّذِيْ يُبَلِّغُ إِلَى الْغَايَاتِ هُوَ رُؤْيَةُ التَّقْصِيْرِ وَالْعَجْزِ وَالضَّعْفِ" . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال صلى الله عليه وسلم : "مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الْجَنَّةُ" أخرجه الترمذي والحاكم والبيهقي . من خاف : أي خاف إغارةَ العدُوِّ في السحر . أَدْلَج : أي سار أول الليل . بلغ المنزل : أي وصل إلى المطلب . غالية : أي رفيعة القدر . وقال الله تعالى : (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُوْنَ فِيْ دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) { النصر : الآية ١-٣} . وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم : "رَبِّ اغْفِرْ لِيْ خَطِيْئَتِيْ وَجَهْلِيْ ، وَإِسْرَافِيْ فِيْ أَمْرِيْ كُلِّهِ ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّيْ . اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِيْ خَطَئِيْ وَعَمْدِيْ ، وَجَهْلِيْ وَهَزْلِيْ ، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِيْ . اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِيْ مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ ، وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ" . فهذا الإستغفار منه صلى الله عليه وسلم مع أنه لم يكن عليه ذنب ليس إلا لرؤية التقصير في القيام بحقوق مقامه الأعلى عند الله تعالى ، فيرى التقصير في القيام بذلك ذنوبا ، وعلى هذا سنة العارفين بربهم

يستقصرون أنفسهم ولا يرون لأنفسهم عملا ، لعظم ما أنعم الله به عليهم ، فكل مقام عندهم له ذنوب ، وهي رؤية التقصير في القيام بحقوق ذلك المقام ، فحسنات الأبرار سيئات المقربين . كما قال السيد البكري : إِلَهِيْ إِنِّيْ أَخَافُ أَنْ تُعَذِّبَنِيْ بِأَفْضَلِ أَعْمَالِيْ . وما أحسن ما قاله الشاعر :

يَتَقَـرَّبُـوْنَ إِلَى الْمَلِيْكِ بِفِعْـلِهِمْ * طَـاعَـاتِـهِ وَالـتَّرْكِ لِلْعِـصْـيَـانِ

فِعْلُ الْفَـرَائِضِ وَالنَّـوَافِلِ دَأْبُهُمْ * مَعَ رُؤْيَةِ التَّقْصِـيْرِ وَالنُّـقْصَـانِ

صَبَرُوا النُّفُوْسَ عَلَى الْمَكَارِهِ كُلِّهَا * شَوْقـًا إِلَى مَـا فِيْهِ مِـنْ إِحْسَـانِ

وكان صلى الله عليه وسلم إذا صلى استغفر ثلاثًا أي قال : أستغفر الله ثلاث مرات تعليماً للأمة في شهود التقصير في التشمير ، وإلا فلا استغفار من طاعةٍ ولا ذنبَ على النبي المختار صلى الله عليه وسلم . قال الملا علي القاري في مرقاة المفاتيح : ولعل استغفاره صلى الله عليه وسلم لرؤية تقصيره في طاعة ربه ، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ولذا قالت رابعة : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كبير إهـ .

* * * * * * * * *

الحكمة الثالثة والخمسون

قال رضي الله عنه :

يَكُوْنُ الْخَيْرُ فِي الْأَكْثَرِ شَاقًّا فِي الْحَالِ ، حُلْوًا فِي الْمَآلِ ، ومَثَلُ فَاعِلِهِ مَثَلُ الَّذِيْ يَصْعَدُ فِي الْعَقَبَةِ الْكَئُوْدِ ، لَا يَجِدُ الرَّاحَةَ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى أَعْلَاهَا .

وَالشَّرُّ يَكُوْنُ فِي الْأَكْثَرِ حُلْوًا فِي الْحَالِ ، وَشَاقًّا فِي الْإِسْتِقْبَالِ ، وَمَثَلُ فَاعِلِهِ مَثَلُ الَّذِيْ يَقَعُ مِنْ ذِرْوَةِ جَبَلٍ أَوْ بَيْتٍ لَا يَجِدُ الْأَلَمَ حَتَّى يَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ .

(يكون الخير) الذي يحبه كل أحد (في الأكثر شاقا في الحال ، حلوا في المآل) أي يكون الخير في الغالب يشق فعله في الحال لكنه يحلو في المستقبل (ومثل فاعله مثل الذي يصعد في العقبة الكئود) أي الطريق الشاقة المَصْعَد (لا يجد الراحة) في وقت صعودها بل يشعر بالتعب والمشقة (حتى ينتهي إلى أعلاها) أي العقبة (والشر) الذي يكرهه كل أحد (يكون في الأكثر حلوا في الحال ، وشاقا في الإستقبال) أي يكون الشر غالبا يحلو ويلتذ به في الحال ويشق في المستقبل (ومثل فاعله مثل الذي يقع) أي يسقط (من ذروة جبل) أي أعلاه (أو) ذروة (بيتٍ لا يجد الألم) حالة الوقوع والسقوط (حتى يقع على الأرض) فيحس حينئذ بالألم ، فينبغي للعاقل أن يكون في أموره مراعيا للمآل لا للحال ، فالخير وإن كان شاقا في الحال بتعب الطاعة فإنه يكون حلوا في المآل بنعيم الجنة ، والشر وإن كان حلوا في الحال بالملاذ المحظورة فإنه شاق في المآل بعذاب النار ، فمن فعل الخير فقد أفلح ونجا ، ومن فعل الشر فقد خاب وكان من الهالكين . ولذا قال صلى الله عليه وسلم : "حُفَّتِ

الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ " رواه مسلم وأحمد والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه . أي أحيطت الجنة بالمكاره والشدائد فلا تكون الطريق إليها سهلة يسلكها كل إنسان ، ولا يصل إليها أحد إلا بتخطي تلك المشاق والشدائد ، وارتكاب متاعب العبادة والصبر على مشاقها وصعوبتها . وأحيطت النار بالشهوات فلا يصل إلى النار إلا بتخطي تلك الشهوات المحرمة و التنعم بالملاذ الممنوعة . وعلم مما ذكر أن ما يتنعم به العبد في الدنيا من المستلذات قد يكون محمود العاقبة ومذمومها ، فاللذة التي تحمد عاقبتها هي النعمة بكسر النون كلذة الوقاع للزوجين ، والتي تذم عاقبتها هي النعمة بفتحها كلذة الوقاع للزاني والزانية ، ولذا قال الله تعالى في حق فرعون وقومه : (وَنَعْمَةٍ كَانُوْا فِيْهَا فَاكِهِيْنَ) {الدخان : الآية ٢٧} . وقال تعالى : (وَذَرْنِيْ وَالْمُكَذِّبِيْنَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيْلًا) {المزمل : الآية ١١} . وذرني والمكذبين : أي اتركني والمكذبين وهم كفار قريش أي أنا أكفيكَهم يامحمد . ومهلهم قليلا : أي من الزمن فقُتلوا بعد يسير منه ببدر . فالذي يؤثر النعمة التي تبقى على النعمة التي تفنى هو العاقل والعكس بالعكس ، فلوقال لك رجل : اختر واحدا من هذين الثوبين : الغالي الفاخر ساعةً ثم رُدَّه إلي ، أو هذا الثوبَ المتوسِّطَ ثم تملَّكْه . فالعاقل إنما يختار ما يبقى له وهو الثوب المتوسط دون الثوب الغالي . وكذلك ينبغي لطالب العلم أن يجتهد في طلبه ، ويتحمل مشاق تحصيله ، ويهجر الملاذ الدنيوية ، والشهوات النفسانية التي تكدر القلب وتشوشه ، ليحصل مقصوده ، ويفوز في الدنيا والآخرة . قال شيخنا العلامة إسماعيل عثمان اليمني المكي رحمه الله تعالى : "لَا يُنَالُ الْعِلْمُ إِلَّا بِالْجُلُوْسِ عَلَى الْمَدَرِ وَالْإِسْتِنَادِ عَلَى الْحَجَرِ " . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : "ذَلَلْتُ طَالِبًا

فَعَزَزْتُ مَطْلُوْبًا" . أي من صبر على ذل التعلم ومشقته ، آل أمره إلى عز الدنيا والآخرة . وقال الشافعي رضي الله عنه :

بِقَـدْرِ الْكَـدِّ تُكْتَسَبُ الْمَعَـالِيْ * وَمَـنْ طَلَبَ الْعُـلَا سَهِرَ اللَّيَـالِيْ

وَمَـنْ رَامَ الْعُـلَا مِـنْ غَـيْرِ كَدٍّ * أَضَـاعَ الْعُمْرَ فِيْ طَلَبِ الْمُحَـالِ

وقال آخر :

تَمَنَّيْتَ أَنْ تُمْسِيْ فَقِيْهًـا مُنَـاظِـرًا * بِغَـيْرِ عَنَـاءٍ فَـالْجُنُوْنُ فُنُوْنُ

وَلَيْسَ اكْتِسَابُ الْمَالِ دُوْنَ مَشَقَّةٍ * تَحَمَّـلَهَـا فَـالْعِـلْمُ كَيْفَ يَكُـوْنُ

✦✦✦✦✦✦

الحكمة الرابعة والخمسون

قال رضي الله عنه :

لَا يَنْبَغِيْ أَنْ تَعْتَدَّ بِأُخُوَّةِ أَخٍ يَسْتَطِيْعُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَلَا يَفْعَلُ .

(لا ينبغي أن تعتد) وتعتبر (بأُخُوَّة أخٍ يستطيع أن ينفعك) في أمر الدين ، وما ينبغي من أمر الدنيا (فلا يفعل) لأنه لا فائدة حينئذ في أخوته معك ، إذ السعي في نفع الإخوان ، من أخلاق الأنبياء وذوي العرفان ، والأخ الصادق هو الذي ينفعك في أمور الدين والدنيا ، ويقف معك في حالة السرور والحزن . قال صلى الله عليه وسلم : " مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَنْفَعْهُ " رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه . أما الذي يصادقك في حال الرخاء ويبعد عنك في حال الشدة فلا تعتبره صديقا لك . قال الشاعر :

فَلَا تَعْدُدِ الْمَوْلَى شَرِيْكَكَ فِي الْغِنَى * وَلَكِنَّمَا الْمَوْلَى شَرِيْكُكَ فِي الْعُدْمِ

قال عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى : "لما حججتُ سنة كذا جعلتُ دعائي حول البيت وفي البيت وفي مواضع الإجابة كلها لإخواني" . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَثَلُ الْأَخَوَيْنِ إِذَا الْتَقَيَا مَثَلُ الْيَدَيْنِ تَغْسِلُ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى" . قال العراقي : رواه السلمي في آداب الصحبة ، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس ، وفيه أحمد بن محمد بن غالب الباهلي كذاب ، وهو من قول سلمان الفارسي رضي الله عنه إهـ . وإنما شبههما باليدين لا باليد والرجل لأنهما يتعاونان على غرض واحد فكذا الأخوان إنما تتم أخوتهما إذا ترافقا في مقصد واحد فهما كالشخص الواحد . وهذا يقتضي المساهمة في السراء والضراء والمشاركة في الحال والمآل . قال الشاعر :

هُمُوْمُ رِجَالٍ فِيْ أُمُوْرٍ كَثِيْرَةٍ * وَهَمِّيْ مِنَ الدُّنْيَا صَدِيْقٌ مُسَاعِدُ
نَكُوْنُ كَرُوْحٍ بَيْنَ جِسْمَيْنِ قُسِّمَتْ * فَجِسْمَاهُمَا جِسْمَانِ وَالرُّوْحُ وَاحِدُ

وقال أبو أحمد القلانسي من مشايخ الجنيد : صحبتُ أقواما فأكرموني ، فقلتُ لبعضهم مرة : أين إزاري ؟ فسقَطْتُ من أعينهم . وقال إبراهيم بن شيبان : "كنا لا نصحب من قال : نعلي" . والمعنى أن الصحبة إذا حصلت ، لم يبق بينهما شيء يختص به أحدهما حتى يضيفه إلى نفسه . وإذا علم الرجل من حال أخيه أنه يرضى ويفرح بالإنبساط إليه في التصرف في شيء من طعامه فلا حرج أن يأكل من طعامه بغير إذنه ، قيل : دخل قوم على سفيان الثوري رحمه الله فلم يجدوه ، ففتحوا الباب ، وأنزلوا السفرة وأكلوا ، فدخل سفيان ففرح وقال : "ذَكَّرْتُمُوْنِيْ

أَخْلَاقَ السَّلَفِ" . وهذا محمول على ما إذا علم رضا المالك ، أما إذا لم يعلم رضاه فلا يجوز التصرف في شيء من أمواله . ولما كانت معرفة أحوال أخيك هل يستطيع أن ينفعك فيفعل أولا يفعل ؟ تحتاج إلى امتحانه أولًا ، قال رضي الله عنه :

⁘⁘⁘

الحكمة الخامسة والخمسون

قال رضي الله عنه :

إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَصْطَفِيَ إِنْسَانًا لِنَفْسِكَ ، فَلَا بَأْسَ أَنْ تَمْتَحِنَهُ بِمَا لَا يَصِحُّ الْإِصْطِفَاءُ بِدُوْنِهِ .

(إذا أردت أن تصطفي) أي تختار (إنسانا) ليكون صاحبا أو خادما أو غير ذلك ، أو تعتمد على أحد في أمر من الأمور (لنفسك) أو لعيالك (فلا بأس أن تمتحنه) أي تختبره (بما لا يصح الإصطفاء) أي الإختيار (بدونه) فتختبره بما يحقق القصد لاتخاذه صفياً نافعا لك أو لعيالك ، وتحتاط في اتخاذه أشد الإحتياط ، وإلا فلا يبعد أن تقع في الندامة وربما تقع بسببه في ورطة يصعب الخروج عنها . وقد علمنا وأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإحتياط والأخذ بالحزم في الأمور ، كأمره صلى الله عليه وسلم رجلا بعقل ناقته احتياطا لئلا تشرد وتضل . فعن أنس ابن مالك رضي الله عنه أنه قال : "قَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُوْلَ اللهِ أَعْقِلُهَا - أي ناقتي - وَأَتَوَكَّلُ أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتوَكَّلُ؟ قال : اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ" أخرجه الترمذي . وقال بعض الحكماء : "مَنْ لَمْ يُقَدِّمِ الْإِمْتِحَانَ قَبْلَ الثِّقَةِ ، وَالثِّقَةَ قَبْلَ الْأُنْسِ أَثْمَرَتْ مَوَدَّتُهُ

نَدَمًا" . وقال بعض الأدباء : " لَا تَثِقْ بِالصَّدِيْقِ قَبْلَ الْخِبْرَةِ ، وَلَا تَقَعْ بِالْعَدُوِّ قَبْلَ الْقُدْرَةِ " . قال الشاعر :

لَا تَمْدَحَنَّ امْـرَأً حَتَّى تُجَـرِّبَهُ * وَلَا تَذُمَّنَّهُ مِـنْ غَـيْرِ تَجْرِيْبِ

فَحَمْدُكَ الْمَرْءَ مَا لَمْ تَبْلُهُ خَطَأٌ * وَذَمُّـهُ بَعْـدَ حَمْدٍ شَرُّ تَكْذِيْبِ

والإمتحان قد يكون بالمجاورة أو المعاملة أو المسافرة أو غير ذلك مما يُعْرِب ويبين لك أنه يصلح لأن يكون صاحبا لك نافعا في دنياك وأخراك . فقد روي عن عمر ابن الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ حِيْنَ جَاءَ شَاهِدٌ يَشْهَدُ عِنْدَهُ ، قَالَ لَهُ عُمَرُ: ائْتِ بِمَنْ يَعْرِفُكَ . فَجَاءَ بِرَجُلٍ ، فَقَالَ لَهُ : هَلْ تُزَكِّيْهِ؟ هَلْ عَرَفْتَهُ؟. قَالَ : نَعَمْ . فَقَالَ عُمَرُ: وَكَيْفَ عَرَفْتَهُ ؟ هَلْ جَاوَرْتَهُ الْمُجَاوَرَةَ الَّتِيْ تَعْرِفُ بِهَا مَدْخَلَهُ وَمَخْرَجَهُ؟ قَالَ : لَا. قَالَ عُمَرُ : هَلْ عَامَلْتَهُ بِالدِّيْنَارِ وَالدِّرْهَمِ اللَّذَيْنِ تَعْرِفُ بِهِمَا أَمَانَةَ الرِّجَالِ؟ قَالَ : لَا . فَقَالَ : هَلْ سَافَرْتَ مَعَهُ السَّفَرَ الَّذِيْ يَكْشِفُ عَنْ أَخْلَاقِ الرِّجَالِ؟ قَالَ : لَا. فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : فَلَعَلَّكَ رَأَيْتَهُ فِي الْمَسْجِدِ رَاكِعًا سَاجِدًا ، فَجِئْتَ تُزَكِّيْهِ؟! قَالَ : نَعَمْ ، يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ . فَقَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: اذْهَبْ ، فَأَنْتَ لَا تَعْرِفُهُ ، وَيَا رَجُلُ ائْتِنِيْ بِرَجُلٍ يَعْرِفُكَ ، فَهَذَا لَا يَعْرِفُكَ .

قال سفيان الثوري رضي الله عنه : إذا أردت أن تواخي رجـلا فـأغضِبْه ، ثم دُسَّ من يسأله عنك وعن أسرارك ، فإن قال خيرا أو كتم سرا فاصحبه . وقال جعفر الصادق رضي الله عنه : لا تصحب خمسة : الكذاب فإنك منه على غرور ، وهو مثل السراب يقرب منك البعيد ويبعد منك القريب . والأحمق فإنك لست منه على شيء تريد أن ينفعك فيضرك . والبخيل فإنه يقطع منك أحوج ما تكون إليه .

والجبان فإنه يسلمك ويفر عند الشدة . والفاسق فإنه يبيعك بأكلة أو أقل منها . فقيل : وما أقل منها ؟ قال : الطمع فيها ولا ينالها إهـ . ثم إن ظهر لك ما في أخيك من الأحوال والصفات بعد الإمتحان فعليك أن تصحب من تستطيع القيام بحقوقه وإياك أن تصحب غيره ، كما قال رضي الله عنه .

⁘⁘⁘

الحكمة السادسة والخمسون

قال رضي الله عنه :

لَا تَصْحَبْ إِلَّا مَنْ تَسْتَطِيْعُ الْقِيَامَ بِحُقُوْقِهِ وَلَا يُحْوِجُكَ لِطَلَبِ حُقُوْقِكَ ، لِكَمَالِ قِيَامِهِ بِهَا .

(لا تصحب) أنت (إلا من تستطيع القيام بحقوقه) بحيث لا يعسر عليك القيام بحقوق صحبته التي تلزم عليك لمساواة مكانتك ومكانته مثلا (ولا يحوجك لطلب حقوقك) التي تلزمه (لكمال قيامه بها) أي بحقوقك ، بأن يقوم لك بحقوق الصحبة التي تلزم عليه من غير أن تطلبها منه ، فإذا كان هناك مَنْ هذه حالته فاصحبه ، فهو الصاحب النافع والمنتفع ، ولا خير في صحبة من لا تستطيع أن تقوم بحقه ولا تقدر أن تنفعه ، ولايرى لك من الحق مثل ماترى له . حكي عن القاضي يحيى بن أكثم : كنتُ مع المأمون في بستان مشينا فيه من أوله إلى آخره، وكنت مما يلي الشمس ، والمأمون مما يلي الظل ، فكان يجذبني أن أتحول في الظل وهو في الشمس ، فأَمتنِع من ذلك ، فلما رجعنا قال لي : والله يا يحيى لتكونن في

مكاني ولأكونن في مكانك ، حتى آخذ نصيبي من الشمس كما أخذت نصيبك منها . فقلت : والله يا أمير المؤمنين لو قَدرتُ أن أقِيَكَ مِن هَوْلِ المُطَّلَع لفعلتُ . ولم يزل بي حتى تحوَّلتُ إلى الظل وتحوَّل هو إلى الشمس ، ووضع يده على عاتقي ، وقال : بحياتي عليك إلا ما وضعتَ يدك على عاتقي مثل ما فعلتُ ، فإنه لا خير في صحبة من لا يُنصِف ، رضي الله عنهما . هول المُطَّلَع : هو ما يُشْرَفُ عليه مِنْ أمر الآخرة بعد الموت شُبِّهَ بالمطلع الذي يشرف عليه من موضع عال .

وقال العلماء : من شرط المرافقة الموافقة ، والموافقة متفاوتة بحسب الإئتلاف بين المتصاحبين قوة وضعفا ، والإئتلاف يتفاوت بحسب قوة التجانس وضعفه ، فإن قوي التجانس قوي الإئتلاف وإن ضعف كان الإئتلاف ضعيفا . قال صلى الله عليه وسلم : "الْأَرْوَاحُ جُنُوْدٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ" رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه . قال الغزالي رحمه الله تعالى في الإحياء : وكان مالك بن دينار يقول : لا يتفق اثنان في عِشْرة إلا وفي أحدهما وصف من الآخر ، وإن أجناس الناس كأجناس الطير ، ولا يتفق نوعان من الطير في الطيران إلا وبينهما مناسبة ، قال : فرأى يوما غرابا مع حمامة ، فعجب من ذلك ، فقال : اتفقا وليسا من شكل واحد ! ثم طارا ، فإذا هما أعرجان ، فقال : مِن ههنا اتفقا إهـ . وقد وقعت في بعض أنحاء بلاد روسيا تربية السباع لبعض الأطفال المنبوذين في المسبعة حتى يكبر ، ويكون له حالة وصفة كصفة السباع في سمته ومشيته ، وله أظفار وأسنان كأسنانها ، فأخرجه بعض أهله من المسبعة ، فلم يطمئن قلبه مع الناس ، فهرب وعاد إلى المسبعة . ووقع في أرض أشيه من بلادنا أن هرة ولدت ومات أولادها ، فأرضعت بعض أولاد الأسد حتى يكبر

فهي تلاعبه وتلاطفه كما يلاعبها ويلاطفها ولا يضرها . قال الغزالي : وقال بعض الحكماء : كل إنسان يأنس إلى شكله ، كما أن كل طير يطير مع جنسه ، وإذا اصطحب اثنان برهة من زمان ، ولم يتشاكلا في الحال ، فلابد أن يفترقا ، وهذا معنى خفي تفطن له الشعراء حتى قال قائلهم :

وَقَــائِلٍ كَيْفَ فَــارَقْتَــهَا * فَقُلْتُ قَوْلًا فِيهِ إِنْصَافُ
لَمْ يَكُ مِنْ شَكْلِيْ فَفَارَقْتُهُ * وَالنَّاسُ أَشْكَالٌ وَأُلَّافُ

وقال بعضهم : أقرب المودة مودة القلوب وإن تباعدت الأجسام ، وأبعد البعد تنافرها وإن تدانى الأجسام . وقيل : لما اجتمع هَرَمُ بنُ حيّان العَبدي بأُوَيْسٍ ، ولم يكن لقيه من قبل ، خاطبه أويس باسمه ، فقال له هرم بن حيان : من أين عرفت اسمي واسم أبي ؟ فو الله ما رأيتك وما رأيتني ، قال : عرفت روحي روحك حين كلمت نفسي نفسك ، وإن المؤمنين يتعارفون بروح الله وإن نأت الدار إهـ .



الحكمة السابعة والخمسون

قال رضي الله عنه :

مَنْ عَوَّلَ فِيْ إِسْقَاطِ حُقُوْقِ إِخْوَانِهِ عَلَى قَبُوْلِ الْعُذْرِ ، كَانَ أَقَلَّ مَا يَلْقَاهُمْ بِهِ الْغِشُّ وَالْمَكْرُ .

(من عول) أي اعتمد (في إسقاط حقوق إخوانه على قبول العذر) من تقصيره في حقوقهم (كان أقل ما يلقاهم به) أي بإسقاط حقوق إخوانه (الغش والمكر)

فعليك أيها العاقل أن تحفظ حقوق صاحبك وتؤديها له على الوجه المشروع ، وإذا وقع منك تقصير بدون قصد في إسقاط حقوقه ، فعليك الإعتذار إليه ، ولا بأس بتقصيرك ولا حرج فيه ، لكن إذا اعتمدت في إسقاط حقوقه على الإعتذار إليه وقبوله من غير أن يكون لك عذر ، فقد أتيت له بالغش والمكر والكذب ، وتلك صفة المنافقين ، نسأل الله العافية . وإذا حدث من صاحبك تقصير بحقوقك ، فلا تلجئه إلى الإعتذار إليك ، بل قابل تقصيره بالحلم والعفو منك ، وهذه صفة الصادقين المخلصين . وإذا اعتذر إليك أخوك كاذبا كان أوصادقا فاقبل عذره . قال صلى الله عليه وسلم : "مَنِ اعْتَذَرَ إِلَيْهِ أَخُوْهُ الْمُسْلِمُ مِنْ ذَنْبٍ قَدْ أَتَاهُ فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ لَمْ يَرِدْ عَلَيَّ الحَوْضَ غَدًا" رواه أبو الشيخ عن عائشة رضي الله عنها مرفوعًا . وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَنِ اعْتَذَرَ إِلَيْهِ أَخُوْهُ الْمُسْلِمُ فَلَمْ يَقْبَلْ عُذْرَهُ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهِ مِثْلُ مَا عَلَى صَاحِبِ مَكْسٍ" رواه الطبراني في الأوسط . مثل ما على صاحب مكس : أي من الذنب . والمكس : أخذ أموال الناس بغير حقها . وقد قيل : ينبغي أن تستنبط لزلة أخيك سبعين عذرا ، فإن لم يقبله قَلْبُك ، فرد اللوم على نفسك ، فتقول : ما أقساك يعتذر إليك أخوك سبعين عذرا فلم تقبله ، فأنت المعيب لا أخوك . قال بعضهم :

اقْبَلْ مَعَاذِيْرَ مَنْ يَأْتِيْكَ مُعْتَذِرًا * إِنْ بَرَّ عِنْدَكَ فِيْمَا قَالَ أَوْفَجَرَا

لَقَدْ أَطَاعَكَ مَنْ يُرْضِيْكَ ظَاهِرُهُ * وَقَدْ أَجَلَّكَ مَنْ يَعْصِيْكَ مُسْتَتِرًا

* * * * * * * *

الحكمة الثامنة والخمسون

قال رضي الله عنه :

أَكْرِمْ إِخْوَانَكَ إِكْرَامًا تَسْتَطِيْعُ الدَّوَامَ عَلَيْهِ ، وَإِلَّا كَانَ مَآلُ الْأَمْرِ إِلَى الْوَحْشَةِ وَالْقَطِيْعَةِ .

(أكرم إخوانك إكراما تستطيع الدوام عليه) أي على الإكرام ، بأن تكرمهم إكراما وسطا بلا تفريط ولا إفراط (وإلا) بأن أفرطْتَ أو فرَّطْتَ في الإكرام (كان مآل الأمر) أي مصيره (إلى الوحشة والقطيعة) والعداوة بينك وبينهم . وكذلك في كل الأمور فينبغي أن تعاملهم بالتوسط فيها كالزيارة ، فينبغي أن تكون وقتا بعد وقت . كما ورد : "زُرْغِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا"، وتقدم ذلك . وكالعِتاب ، فإن كثرته سبب للقطيعة ، وتركه رأسا دليل قلة المبالاة بالإخوان ، فينبغي التوسط فيه فيسامح بالمتاركة ويستصلح بالمعاتبة ، فإن المسامحة والإستصلاح إذا اجتمعا لم يثبت معهما نفور ، ولم يبق معهما وجْدٌ . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : "لَمْ يَكُنْ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فَاحِشًا وَلَا لَعَّانًا وَلَا سَبَّابًا ، كَانَ يَقُوْلُ عِنْدَ الْمَعْتَبَةِ : مَالَهُ تَرِبَ جَبِيْنُهُ ؟ رواه البخاري . لعانا : من يلعن الناس أوغيرهم . سبابا : من يشتم الآخرين . عند المعتبة : أي عند اللوم والعتاب . ماله : أي ما شأنه وما أصابه؟ . ترب جبينه : أي أصابه التراب ولصق به ، وهي كلمة تقولها العرب ولا تقصد معناها . وقيل : أراد به دُعاءً له بكثرة السُّجود . وقد أرشدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى التوسط في المحبة والبغض في قوله : " أَحْبِبْ حَبِيْبَكَ هَوْنًا مَّا عَسَى أَنْ يَكُوْنَ بَغِيْضَكَ يَوْمًا مَّا وَأَبْغِضْ بَغِيْضَكَ هَوْنًا مَّا عَسَى أَنْ يَكُوْنَ

حَبِيْبَكَ يَوْمًا مَّا" . وقيل : هذا الحديث موقوف على علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وقال عمر رضي الله عنه : "لَا يَكُنْ حُبُّكَ كَلَفًا وَلَا يَكُنْ بُغْضُكَ تَلَفًا" رواه البيهقي . كَلَفا : أي عشقا شديدا . تلفا : أي بِحيث تُحِبُّ أن يَتْلَف صاحبُك ويهلك . قال أبو الأسود الديلي :

وَكُنْ مَعْدِنًا لِلْخَيْرِ وَاصْفَحْ عَنِ الْأَذَى * فَـإِنَّكَ رَاءٍ مَـا عَمِلْتَ وَسَـامِعُ

وَأَحْبِبْ إِذَا أَحْبَبْتَ حُبًّـا مُقَـارِبًـا * فَـإِنَّكَ لَا تَـدْرِيْ مَتَى أَنْتَ نَـازِعُ

وَأَبغِضْ إِذَا أَبْغَضْتَ غَيْرَ مُبَـايِنٍ * فَـإِنَّكَ لَا تَـدْرِيْ مَتَى أَنْتَ رَاجِعُ

معدنا للخير : أي مكان الخير ومركزه . مقاربا : أي وسطا . نازع : أي مفارق إياه . غير مباين : أي غير مفارق . راجع : أي راجع إلى حب من أبغضته .

وقال منصور النمري :

إِذَا كُنْتَ فِيْ كُلِّ الْأُمُوْرِ مُعَـاتِبًا * صَدِيْقَكَ لَمْ تَلْقَ الَّذِيْ لَا تُعَاتِبُهْ

وقال بشار بن برد :

أَقْلِلْ عِتَابَ مَنِ اسْتَرَبْتَ بِوُدِّهِ * لَيْسَتْ تُنَـالُ مَـوَدَّةٌ بِعِتَـابِ

استربت بوده : أي رأيتَ منه ما يَريبك .



الحكمة التاسعة والخمسون

قال رضي الله عنه :

التَّأْوِيلُ عَلَى ضَرْبَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : يَدُلُّ عَلَى الْكَمَالِ ، وَهُوَ مَا يُؤَوَّلُ لِيَصِلَ إِلَى الْأَفْهَامِ . وَهَذَا النَّوْعُ كَثِيْرٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ .

وَالثَّانِي : مَا يُؤَوَّلُ لِيَصِحَّ كَوْنُهُ حَقًّا أَوْ غَيْرَ بَاطِلٍ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى النَّقْصِ . فَكُلُّ شَيْخٍ يُحْتَاجُ فِيْ صُحْبَتِهِ إِلَى التَّأْوِيلِ عَلَى الْوَجْهِ الثَّانِيْ ، لَا يَكْمُلُ الْإِقْتِدَاءُ بِهِ ، لِأَنَّ التَّأْوِيلَ لَا يُحَصِّلُ كَمَالًا ، وَإِنَّمَا يَدْفَعُ نَقْصًا .

(التأويل) وهو صرف الشيء عن ظاهره بدليلٍ (على ضربين) أي قسمين (أحدهما يدل على الكمال) للمؤول (وهو ما يؤول) من الألفاظ المتشابهات تأويلا إجماليا ، كما هو مذهب السلف ، وهم من كانوا قبل الخمسمائة ، ويقال له التفويض ، بمعنى أن اللفظ بعد تأويله وصرفِه عن ظاهره يُفوَّض معناه المراد إلى الله تعالى ، أو تأويلا تفصيليا بأن يكون فيه بيان المعنى المراد كما هومذهب الخلف ، وهم من كانوا بعد الخمسمائة ، فالسلف والخلف يتفقون على التأويل الإجمالي ، وهو صرف اللفظ عن ظاهره إلا أن الخلف يبينون المعنى المراد بذلك اللفظ ، ومذهب السلف أسلم ، لما فيه من السلامة من تعيين معنى قد يكون غير مراد لله تعالى ، ومذهب الخلف أعلم وأحكم لما فيه من الإيضاح وردّ الخصوم . قال الله تعالى : (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيْلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ يَقُوْلُوْنَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا

يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ) {آل عمران : الآية ٧} . تأويله : أي تفسير الكتاب أي القرآن . الراسخون في العلم : أي الثابتون المتمكنون فيه (ليصل) المؤول (إلى الأفهام) أي أفهام السامع (وهذا النوع كثير في الكتاب والسنة) كقوله تعالى : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) { طه : الآية ٥} . فالسلف يقولون : استواء لا نعلمه . والخلف يقولون : المراد به الإستيلاء والملك . وسأل رجل الإمام مالكا رضي الله عنه عن هذه الآية ، فأطرق رأسه مَلِيًّا أي زمانا طويلا ، ثم قال : "الإِسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُوْلٍ ، وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُوْلٍ ، وَالْإِيْمَانُ بِهِ وَاجِبٌ ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ ، وَمَا أَظُنُّكَ إِلَّا ضَالًّا" ، فأمربه فأخرج . وكقوله صلى الله عليه وسلم : "يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حَتَى يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ فَيَقُوْلُ : مَنْ يَدْعُوْنِيْ فَأَسْتَجِيْبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِيْ فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِيْ فَأَغْفِرَ لَهُ " أخرجه البخاري ومسلم وأبوداود عن أبي هريرة رضي الله عنه . فالسلف يقولون : نزول لا نعلمه . والخلف يقولون : تَنْزِلُ رحمته وأمره وملائكته (والثاني : ما يؤول) من القول أو الفعل (ليصح كونه) أي المؤول (حقا أو غير باطل . وهذا) التأويل (يدل على النقص) في المؤول (فكل شيخ يحتاج في صحبته إلى التأويل) في قوله أوفعله (على الوجه الثاني) وهو أن يكون لتصحيح كونه حقا أو غير باطل ، بأن يقول قولا يخالف ظاهر الشرع ، أو يفعل فعلا كذلك ، ولا يصح إن صح إلا بالتأويل (لا يكمل الإقتداء به ، لأن التأويل لا يحصل كمالا) لذلك الشيخ (وإنما يدفع) عنه (نقصا) كما إذا تكلم بكلام يخرج به عن نظام الشرع واحتيج لتصحيحه إلى تأويل ، أو فعل فعلا كذلك فإنه لا يكمل الإقتداء به ، كمن كان بعيدا عن مكة المكرمة وهو لا يصلي في مكانه ، فلما قيل له ذلك ، قال : أصلي عند

الكعبة ، أو في الحرم ، فهذا لا يصح أن يقتدى به ، وضرره أعظم من نفعه لا سيما للعوام . قال الغزالي رحمه الله تعالى : ولو زعم زاعم أن بينه وبين الله حالةً أسقطت عنه التكاليف بحيث لا تجب عليه الصلاة ولا الصوم ونحوهما ، وأحلت له شرب الخمر وأكل أموال الناس ، كما زعمه بعض من يدَّعي التصوف وهم الإباحيون ، فلا شك في وجوب قتله على الإمام أو نائبه ، بل قال بعضهم : قتلُ واحد منهم أفضلُ عند الله من قتل مائة حربي في سبيل الله تعالى إهـ .

والإباحيون فرقة ممن يدعي التصوف . قالوا : ليس لنا قدرة على اجتناب المعاصي ولا على الإتيان بالمأمورات ، وليس لأحد في هذا العالم مِلْكُ رغبةٍ ولا ملك يدٍ والجميع مشتركون في الأموال والأزواج . والسادة الصوفية رحمهم الله بريئون منهم . ومن الفرق الضالة المضلة طائفة من القدرية أنكروا علم الله السابق ويقولون : إن الأمر أُنْفٌ أي مُستأنَفٌ أي لا يعلم الله الأشياء عندهم إلا بعد وقوعها . أعاذنا الله منهم . عن يحيى بن يعمر قال : كانَ أَوَّلَ من قال فى القدَر بالبصرة معبدٌ الجُهَني ، فانطلقتُ أنا وحُمَيدٌ بنُ عبدِ الرحمن الحِمْيَرِي حاَجَّيْنِ أو مُعْتَمِرَيْن فقلنا : لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر ، فوُفِّقَ لنا عبدُ الله بنُ عمرَ بنِ الخطاب داخلا المسجدَ ، فاكتنفْتُه أنا وصاحبي ، أَحَدُنا عن يمينه والآخر عن شماله ، فظننتُ أن صاحبِي سَيَكِلُ الكلامَ إليَّ فقلتُ : أبا عبد الرحمن إنه قد ظَهرَ قِبَلَناَ ناسٌ يقرءون القرآن ويتقفَّرون العلم ، وذكر من شأنهم ، وأنهم يزعمون أن لا قدَرَ وأن الأمْرَ أُنُفٌ . قال : فإذا لقيتَ أولئك فأخبِرْهم أني بريءٌ منهم وأنهم بُرَآءُ مني . أخرجه مسلم في صحيحه . يتقفرون العلم : أي يطلبونه ويتتبعونه . وذكر من شأنهم :

أي من عباداتهم ومن جدهم ومن اجتهادهم ونحو ذلك . أن الأمر أُنُفٌ : أي مستأنَفٌ لم يسبِقْ به قدَرٌ ولا عِلمٌ من الله تعالى ، وإنما يعلمه بعد وقوعه .

وحيث صدر قول أوفعل خرج ظاهره عن الشرع من أكابر الأولياء فإن ذلك لا يكون نقصا فيهم ، كقول أبي يزيد البسطامي رحمه الله تعالى : "مَا فِي الْجُبَّةِ إِلَّا اللهُ" وقوله "سُبْحَانِيْ مَا أَعْظَمَ شَأْنِيْ" وما حكي عن أبي بكر الشبلي أنه أتلف المال وألقاه في البحر ، فإنما وقع ذلك منهما وأضرابهما في حال السكر والغيب بالله ، ويعذرون لسكرهم وعدم تمييزهم في تلك الحال ، ونسلم لهم حالهم معتقدين لهم ، ونبرأ إلى الله مِنْ كُلِّ مَنْ تعمَّدَ مخالفةَ الكتاب والسنة . وقيل : إن ذلك وقع منهم على سبيل الحكاية عن الله تعالى ، كما لو سمع أحد قول من يردد كلامه : إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ، فإنه ما كان ينبغي أن يفهم منه ذلك إلا على سبيل الحكاية .



الحكمة الستون

قال رضي الله عنه :

مَنْ أَفْرَطَ فِيْ حُبِّ شَهْوَةٍ مِنْ شَهَوَاتِ الـدُّنْيَا الْمُبَاحَةِ ، وَقَعَ لَا مَحَالَةَ فِيْ مُوْجِبِ النَّارِ أَوِ الْعَارِ .

(من أفرط) أي جاوز حد الإعتدال ، والفرق بين الإفراط والتفريط أن الإفراط يستعمل في تجاوز الحد من جانب الزيادة والكمال ، والتفريط يستعمل في تجاوز الحد من جانب النقصان والتقصير (في حبِّ شهوةٍ من شهواتِ الدنيا المباحة) بأن

يعشقها ويتنعم بها حتى ينسى ربه وآخرته (وقع لا محالة) أي لابد (في موجِبِ النارِ) أي في العمل الموجب لدخول النار في الآخرة (أو) العمل الموجب لحصول (العارِ) في الدنيا أي أو في موجبهما معا . فهل يرضى العاقل أن يتلطخ في الدنيا بالعار أو ينغمس في الآخرة في النار ؟ . ولقد رحم الله من قال :

تَفْنَى اللَّذَائِذُ يَا مَنْ نَـالَ شَهْوَتَهُ * مِنَ ٱلْمَعَاصِيْ وَيَبْقَى الْإِثْمُ وَالْعَارُ

تَبْقَى عَوَاقِبُ سُوْءٍ لَا انْفِكَاكَ لَهَا * لَا خَيْرَ فِيْ لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِهَـا النَّـارُ

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سَيَكُوْنُ رِجَالٌ مِنْ أُمَّتِيْ يَأْكُلُوْنَ أَلْوَانَ الطَّعَامِ وَيَشْرَبُوْنَ أَلْوَانَ الشَّرَابِ وَيَلْبَسُوْنَ أَلْوَانَ الثِّيَابِ وَيَتَشَدَّقُوْنَ فِي الْكَلَامِ فَأُولَئِكَ شِرَارُ أُمَّتِيْ" رواه الطبراني . وقال صلى الله عليه وسلم : "شِرَارُ أُمَّتِي الَّذِيْنَ وُلِدُوْا فِي النَّعِيْمِ وَغُذُوْا بِهِ يَأْكُلُوْنَ مِنَ الطَّعَامِ أَلْوَانًا وَيَلْبَسُوْنَ مِنَ الثِّيَابِ أَلْوَانًا وَيَرْكَبُوْنَ مِنَ الدَّوَابِّ أَلْوَانًا يَتَشَدَّقُوْنَ فِي الْكَلَامِ" أخرجه الحاكم . يتشدقون في الكلام : أي يتوسعون فيه من غير احتياط . وقد أنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على زوجته عائشة رضي الله عنها في أكلها مرتين في اليوم . قال الكاندهلوي في حياة الصحابة : أخرج البيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت : "رَآنِيْ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ أَكَلْتُ فِي الْيَوْمِ مَرَّتَيْنِ فَقَالَ : يَا عَائِشَةُ ، أَمَا تُحِبِّيْنَ أَنْ يَكُوْنَ لَكِ شُغْلٌ إِلَّا جَوْفَكِ ؟ الْأَكْلُ فِي الْيَوْمِ مَرَّتَيْنِ مِنَ الْإِسْرَافِ ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ". وفي رواية فقال : "يَا عَائِشَةُ ، اتَّخَذْتِ الدُّنْيَا بَطْنَكِ ؟ أَكْثَرُ مِنْ أَكْلَةٍ كُلَّ يَوْمٍ سَرَفٌ ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ" . كذا في الترغيب إهـ . وورد أيضا : " إِيَّاكَ وَالتَّنَعُّمَ فَإِنَّ عِبَادَ اللهِ لَيْسُوْا بِالْمُتَنَعِّمِيْنَ" رواه

أحمد بن حنبل عن معاذ رضي الله عنه . قال المناوي رحمه الله تعالى : لأن التنعم بالمباح وإن كان جائزا لكنه يوجب الأنس به ، ثم إن هذا محمول على المبالغة في التنعم والمداومة على قصده ، فلا ينافيه ما ورد في المستدرك وغيره ، أن المصطفى صلى الله عليه وسلم أهديت له حلة اشتريت بثلاثة وثلاثين بعيرا وناقة ، فلبسها مرة ، على أنه وإن داوم على ذلك فليس غيره مثله ، فإن المعصوم واقف على حدود المباح ، فلا يحمله ذلك على ما يخاف غائلته من نحو بطر وأشر ومداهنة وتجاوز إلى مكروه ونحو ذلك ، وأما غيره فعاجز عن ذلك ، فالتفريج على تنعمه بالمباح خطر عظيم ، لإبعاده عن الخوف . قال العارف الجنيد : دخلت على العارف السري وهو يبكي ، فسألته فقال : جاءته البارحة الصبية ، فقالت : يا أبت! هذا الكوز أعلقه لك يبرد ، فنمت فرأيت جاريةً من أحسن الخلق نزلَتْ من السماء ، فقلتُ : لمن أنتِ قالت : لمن لا يشرب الماء المبرَّد ، فكسرتُ الكُوز إهـ .

✦ ✦ ✦

الحكمة الحادية والستون

قال رضي الله عنه :

تَخَاصَمَ الْعَجْزُ وَالْحِرْمَانُ : أَيُّهُمَا أَضَرُّ عَلَى صَاحِبِهِ ؟ وَتَرَافَعَا إِلَى الْعَقْلِ فَقَضَى بَيْنَهُمَا : أَنَّ الْعَجْزَ أَصْلٌ ، وَالْحِرْمَانَ فَرْعُهُ .

(تخاصم العجز والحرمان) بلسان حالهما، والعجز هو فقد القدرة على فعل الكمال. والحرمان هو الحجب والإمتناع عن المطالب (أيهما أضر على صاحبه ؟) فقال

العجز للحرمان : أنت أضر مني ! وقال الحرمان للعجز : أنت أضر مني ! (وترافعا إلى العقل) الذي يزن الأمور ويدرك حقيقتها (فقضى) العقل (بينهما : أن العجز أصل ، والحرمان فرعه) فلا يكون الحرمان الذي هو الفرع إلا بوجود العجز الذي هو أصله . فمن عجز عن الجد والإجتهاد في العمل الذي يمكن تحصيله لسعادته في الدنيا والآخرة ، فسيكون محروما عما يفوز به المفردون المتجردون الذين قد عمروا أوقاتهم بالعبادة والطاعة . والعاجز هو الذي غلبت عليه نفسه ، وعمل بما أمرته به ، فصار عاجزا وأتبع نفسه هواها ، وهو مع ذلك لا يعتذر بل يتمنى على الله الأماني أن يعفو عنـه ، ويقول في نفسه : الله غفور رحيم ، وسأتوب إذا كبرت ، وسوف أترك هذا الذنب فيما بعد ، وما أشبه ذلك من الأماني الكاذبة التي يمليها الشيطان عليه ، وهو كمن يريد أن يكون فقيها في الدين لكنه يشتغل بالبطالة ، ويقول : إن الله تعالى قادر على أن يفيض على قلبي من العلوم ما أفاضه على قلوب أنبيائه وأصفيائه بغير جهد وتعلم ، فهذا الشخص في غاية العجز والجهالة والحماقة حيث يتمنى حصول الشيء بدون الإشتغال والأخذ في سببه . فعن شداد بن أوس رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الْأَمَانِيَّ" رواه الترمذي والحاكم والطبراني . الكيس : أي العاقل . دان نفسه : أي حاسبها . ومن ثم استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من العجز كثيرا ، وأمر بذلك أمته . فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : "دَخَلَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ الْمَسْجِدَ ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ أَبُوْ أُمَامَةَ ، فَقَالَ : يَا أَبَا أُمَامَةَ مَا لِيْ أَرَاكَ جَالِسًا فِي الْمَسْجِدِ فِيْ غَيْرِ

وَقْتِ الصَّلَاةِ ؟ قَالَ : هُمُوْمٌ لَزِمَتْنِيْ وَدُيُوْنٌ يَارَسُوْلَ اللهِ ! قَالَ : أَفَلَا أُعَلِّمُكَ كَلَامًا إِذَا أَنْتَ قُلْتَهُ أَذْهَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّكَ ، وَقَضَى عَنْكَ دَيْنَكَ ؟ قَالَ قُلْتُ : بَلَى يَا رَسُوْلَ اللهِ ، قَالَ قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ : اللَّهُمَّ إِنِّيْ أَعُوْذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ ، وَأَعُوْذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ ، وَأَعُوْذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ ، وَأَعُوْذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ . قَالَ : فَفَعَلْتُ ذٰلِكَ ، فَأَذْهَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمِّيْ ، وَقَضَى عَنِّيْ دَيْنِيْ" أخرجه أبوداود . الهم والحزن : قال الطيبي : الهم في المتوقَّع ، والحزن فيما فات . الكسل : أي التثاقل عن الأمر المحمود مع وجود القدرة عليه . قهر الرجال : أي غلبة الأعداء .



الحكمة الثانية والستون

قال رضي الله عنه :

مَا مِنْ طَوِيَّةٍ إِلَّا وَفِيْهَا خَفِيَّةٌ .

(ما من طوية) من طوايا القلوب ، والطوية الضمير لأنه يطوى فيه السر (إلا وفيها خفية) أي خصلة تخفى على غير صاحبها ، ومع خفائها على الغير فقد تظهر آثارها في ظاهر الجوارح . قال السندي رحمه الله تعالى : فمن الناس من يكون في طويته خصلة طيبة يفوز بها في الدارين ، وكثيرا ما يظهر آثارها على ظاهره ، ومن الناس من يكون في طويته خصلة رديئة يخسر بها في الكونين ، وكثيرا ما يظهر علاماتها على صفحات بدنه إهـ . قال تعالى : (سِيمَاهُمْ فِيْ وُجُوْهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُوْدِ) {الفتح : الآية ٢٩} . سيماهم : أي علامتهم . فبعض الناس ينطوي

سره على المحاسن الشرعية ويظهر آثار ذلك بوجود النور والضياء في محيَّاه وجوارحه . والبعض الآخر تشتمل طويته على المخالفات وتلوح آثارها في وجهه بالظلمة والسواد . والفرح إذا قوي انبسط روح القلب من داخله ووصل إلى الأطراف ، فيُرَى الوجه مشرقًا متلألئًا . والغم إذا قوي انحصر الروح إلى باطن القلب ولم يبق له أثر قوي في ظاهر الوجه ، فيربَدّ الوجه ويصفر أويسود ، ويظهر فيه أثر الأرضية ، فمن لوازم الفرح استنارة الوجه وإشراقه ، ومن لوازم الغم والحزن اربداده واسوداده ، فلذلك كني عن الفرح بالإستنارة ، وعن الغم بالإسوداد . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ {النحل : الآية ٥٨} . كظيم : أي ممتلئ غمًّا . قال ابن عجيبة في شرح حكمة ابن عطاء الله : "ما استُودِع من غيب السرائر ظَهَر في شهادة الظواهر" . ما استودع الله سبحانه في القلوب وجعله فيها من خير أوشر ، من نور أوظلمة ، من علم أو جهل ، من رحمة أو قسوة ، من بخل أو شح ، أو كرم أو سخاء ، وقبض وبسط ، ويقظة أو غفلة ، ومعرفة أو نكران ، أوغيرذلك من الأخلاق المحمودة أو المذمومة لا بد أن يظهر آثار ذلك على الجوارح من أدب وتهذيب ، وسكون وطمأنينة ورزانة ، وبذل وعفو ، أو طيش وقلق وغضب ، وغير ذلك ، من الأحوال القلبية والأعمال القالبية ، فأفعال الجوارح تابعة لأحوال القلوب ، فمن أودع في سر غيبه معرفة مولاه لم يطلب من سواه ، ومن أودع في سر غيبه الجهل بمولاه تعلق بما سواه . وهكذا أحوال الظاهر تابعة لأحوال الباطن ، فالأسِرَّة تدل على السريرة . والكلام صفة المتكلم . وما فيك ظهر على فيك . وكلُّ إناءٍ بالذي فيه يَرْشَحُ . وما خامر القلوب فعلى الوجوه أثره . وأعظم ما استودع في غيب

السرائر معرفة الله إهـ بتصرف . ويقال لهذا أيضا الظواهر تدل على السرائر . قال صلى الله عليه وسلم : "إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِنْ فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ" رواه البخاري عن أبي نعيم الفضل بن دكين ، وأخرجه مسلم عن زكريا بن أبي زائدة . فالجسد دليل القلب صلاحا وفسادا . وعن سعيد بن المسيب رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم رَأَى رَجُلًا يَعْبَثُ بِالْحَصَا فقَالَ : "لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هَذَا خَشَعَتْ جَوَارِحُهُ" رواه البيهقي .

هذا ! وقد تدل السرائر على الظواهر ، وذلك كالنوايا المخفية في طوايا القلوب فإنها تدل على الأحكام المبنية على الظواهر كما تدل عليها قرائن الأحوال ، فقد يتفق العمل ولكن يختلف الحكم فيه باعتبار نية الفاعل ، فهذا يفعل الفعل ناسيا ، وهذا يفعله متعمدا ، والآخر مكرها ، وهكذا ، ولكل حكمه . وكثيرا ما يعول على النية وقرائن الأحوال في المسائل الفقهية لا سيما في الطلاق والأيمان والنذور فيسأل الشخص عن قصده ونيته في كلامه ، أو يستدل بقرينة حاله ، ويعول في الحكم على ذلك ويُوكَلُ في الصدق وعدمه إلى تدينه لله . ومن أمثلة اعتبار القصد قوله : "اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِيْ وَأَنَا رَبُّكَ" أخطأ من شدة الفرح . أخرجه مسلم في كتاب التوبة ، فلم يؤاخذ بذلك . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أَسْرَفَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَوْصَى بَنِيْهِ فَقَالَ : إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُوْنِيْ ، ثُمَّ اسْحَقُوْنِيْ ، ثُمَّ اذْرُوْنِيْ فِي الرِّيْحِ فِي الْبَحْرِ ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّيْ لَيُعَذِّبُنِيْ عَذَابًا مَا عَذَّبَ بِهِ أَحَدًا . قَالَ : فَفَعَلُوْا ذَلِكَ بِهِ ، فَقَالَ لِلأَرْضِ : أَدِّيْ مَا أَخَذْتِ ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ فَقَالَ لَهُ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ فَقَالَ : خَشْيَتُكَ يَا رَبِّ - أو قال - مَخَافَتُكَ . فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ " رواه مسلم .

اسحقوني : أي دقوا الرماد إذا أحرقتموني . اذروني : يقال أذرته الريح أي أطارته .

ومما يستدل على اعتبار قرائن الأحوال ما يروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قال : "كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَاءَ شَابٌّ فَقَالَ : يَا رَسُوْلَ اللهِ أُقَبِّلُ وَأَنَا صَائِمٌ ، فَقَالَ : لَا ، فَجَاءَ شَيْخٌ فَقَالَ : يَا رَسُوْلَ اللهِ أُقَبِّلُ وَأَنَا صَائِمٌ ، قَالَ : نَعَمْ ، فَنَظَرَ بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ ، فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ عَلِمْتُ نَظَرَ بَعْضِكُمْ إِلَى بَعْضٍ ، إِنَّ الشَّيْخَ يَمْلِكُ نَفْسَهُ" رواه الإمام أحمد .

✦✦✦✦✦✦✦✦✦

الحكمة الثالثة والستون

قال رضي الله عنه :

إِذَا صَلُحَتِ الْمَقَاصِدُ لَمْ يَخِبِ الْقَاصِدُ .

(إذا صلحت المقاصد) والنيات (لم يخب القاصد) والخيبة هي عدم الفوز بالمطلوب . فإذا صلحت نية القاصد في تحصيل ما ينفعه أو دفع ما يضره ، فإنه لا يخيب ولا يرجع صفر اليد ، فالذي يسعى جهده في سبيل سعادته في الدنيا والآخرة بالأعمال الصالحة ، وترك المخالفات ، فسيرى نتائج سعيه في الدنيا والآخرة . قال الله تعالى : (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى) {النجم : الآية ٣٩-٤١} . وقال تعالى : (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوْرًا) {الإسراء : الآية ١٩} . قال لبيد :

وَكُلُّ امْرِئٍ يَوْمًا سَيُعْرَفُ سَعْيُهُ * إِذَا حُصِّلَتْ عِنْدَ الْإِلَهِ الْحَصَائِلُ

وصلاح القصد أكبر مُعِين على حصول المقاصد سواء كانت دنيوية أوأخروية . فهو بصلاحها وإن لم يفز بمطلوبه في الدنيا فسيفوز بالأجر العظيم في الآخرة . قال تعالى : (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوْ لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) {الكهف : الآية ١١٠} وقال تعالى : (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) {النساء : الآية ١١٤} . ومن يفعل ذلك : أي المذكور من الصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس . وقال تعالى : (وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوْا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيْدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيْرًا) {النساء : الآية ٣٥} . وقال صلى الله عليه وسلم : " إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ ، عَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَعِلْمًا ، فَهُوَ يَتَّقِي فِيْهِ رَبَّهُ ، وَيَصِلُ فِيْهِ رَحِمَهُ ، وَيَعْلَمُ للهِ فِيْهِ حَقًّا ، فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ . وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا ، فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُوْلُ : لَوْ أَنَّ لِيْ مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ ، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ . وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا ، يَخْبِطُ فِيْ مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، لَا يَتَّقِي فِيْهِ رَبَّهُ ، وَلَا يَصِلُ فِيْهِ رَحِمَهُ ، وَلَا يَعْلَمُ للهِ فِيْهِ حَقًّا ، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ . وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا ، فَهُوَ يَقُوْلُ : لَوْ أَنَّ لِيْ مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ" أخرجه أحمد والترمذي عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه . يخبط في ماله : أي يصرف ماله . وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ : "إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِيْ فَمِ امْرَأَتِكَ" أخرجه البخاري .

✦✦✦✦✦✦✦✦✦

الحكمة الرابعة والستون

قال رضي الله عنه :

الشَّيْطَانُ عَلَى إِضْلَالِ الْعَالِمِ أَحْرَصُ مِنْهُ عَلَى إِضْلَالِ الْجَاهِلِ ، لِأَنَّ الْعَالِمَ إِذَا ضَلَّ يَضِلُّ بِضَلَالِهِ غَيْرُهُ ، وَالْجَاهِلُ لَيْسَ كَذَلِكَ .

(الشيطان) الذي هو عدو الإنسان . قال الله تعالى : (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوْهُ عَدُوًّا) {فاطر : الآية ٦} . (على إضلال العالم) الذي يُقتدَى به (أحرص منه) أي من الشيطان (على إضلال الجاهل) الذي لا يُقتدى به (لأن العالم إذا ضل) عن طريق الهدى (يضل بضلاله غيره) فينشأ من ضلاله فساد عظيم ، فالعالم كقائد القافلة ، فإذا كان خبيرا بالطريق عارفا بالمسالك فإنه وصل إلى المقصد بأمان وكذلك أتباعه ، أما إذا كان غير عارف بالطريق المستقيمة المتجهة إلى المقصد فسيضل مع أتباعه (والجاهل ليس كذلك) فإن ضلاله مقصور على نفسه ولا يضل به غيره . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَخَافُ عَلَى أُمَّتِيْ ثَلَاثًا : زَلَّةَ عَالِمٍ ، وَجِدَالَ مُنَافِقٍ بِالْقُرْآنِ ، وَالتَّكْذِيْبَ بِالْقَدَرِ" . وقيل : زَلَّةُ الْعَالِمِ زَلَّةُ الْعَالَمِ . وقيل : زَلَّةُ الْعَالِمِ كَالسَّفِيْنَةِ تُغْرِقُ ، وَ يَغْرَقُ مَعَهَا خَلْقٌ كَثِيْرٌ . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يَهْدِمُ الْإِسْلَامَ زَلَّةُ الْعَالِمِ وَجِدَالُ الْمُنَافِقِ بِالْكِتَابِ وَحُكْمُ الْأَئِمَّةِ الْمُضِلِّيْنَ . وقال معاذ رحمه الله : احْذَرُوْا زَلَّةَ الْعَالِمِ ، لِأَنَّ قَدْرَهُ عِنْدَ الْخَلْقِ عَظِيْمٌ ، فَيَتَّبِعُوْنَهُ عَلَى زَلَّتِهِ . وقال الشاعر :

وَكُنَّا نَسْتَطِبُّ إِذَا مَرِضْنَا * فَصَارَ هَلَاكُنَا بِيَدِ الطَّبِيْبِ

وقال غيره :

وَرَاعِي الشَّاةِ يَحْمِي الذِّئْبَ عَنْهَا * فَكَيْفَ إِذَا الـرُّعَـاةُ لَهَـا ذِئَـابُ؟

وقال صلى الله عليه وسلم : "وَيْلٌ لِأُمَّتِي مِنْ عُلَمَاءِ السُّوْءِ يَتَّخِذُوْنَ هَذَا الْعِلْمَ تِجَارَةً يَبِيْعُوْنَهَا مِنْ أُمَرَاءِ زَمَانِهِمْ رِبْحًا لِأَنْفُسِهِمْ لَاأَرْبَحَ اللهُ تِجَارَتَهُمْ" أخرجه الحاكم في تاريخه عن أنس بن مالك رضي الله عنه . قال المناوي : وهم الذين قصْدُهم من العلم التنعم بالدنيا ، والتوصل إلى الجاه والمنزلة ، فالواحد منهم أسير الشيطان أهلكته شهوته ، وغلبت عليه شقوته ، ومَنْ هذا حالُه ، فضرره على الأمة من وجوه كثيرة منها : الإقتداء به في أفعاله وأقواله ، ومنها : تحسينه للحكام ظلم الأنام ، وتساهله في انفتوى لهم ، وإطلاقه القلم واللسان بالجور وبالبهتان ، استكبارا أن يقول فيما لا علم عنده به : لا أَدْرِي إهـ .

⁺⁺⁺⁺⁺⁺

الحكمة الخامسة والستون

قال رضي الله عنه :

مَنْ أَصْلَحَ نِيَّتَهُ بَلَغَ أُمْنِيَّتَهُ .

(من أصلح نيته) في الأعمال ، وزكّى قصده فيها (بلغ أمنيته) أي بغيته وطلبته من قبول الأعمال ، وقضاء الحوائج ، وبلوغ الأوطار ، ومن لم يصلحها لم يفز بأمانيه ومطالبه . قال الله تعالى : (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيْرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُوْلِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ

عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُوْرًا رَحِيمًا) {النساء : الآية ١٠٠} . مراغما : أي مُهاجَرًا ومُتَحَوَّلًا من الضلالة إلى الهدى . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُوْلِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُوْلِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيْبُهَا ، أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ " رواه البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

فصلاح النية ركن أساسي في قبول الأعمال ، وعليه مدار السعادة الدنيوية والأخروية ، حتى إن ما كان مباحا في أصل الشرع أو كان عادة يصيرعبادة بصلاح نية الفاعل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وَفِيْ بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ قَالُوْا : يَا رَسُوْلَ اللهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُوْنُ لَهُ فِيْهَا أَجْرٌ ؟ قَالَ أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِيْ حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ " رواه مسلم عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه . بضع : أي فرج . وحيث صلحت نية العبد في عمل من الأعمال أثيب عليه وإن لم يفعله . قال بدر الدين العيني في عمدة القاري : قال صلى الله عليه وسلم : يَقُوْلُ اللهُ تَعَالَى لِلْحَفَظَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : "اكْتُبُوْا لِعَبْدِيْ كَذَا وَكَذَا مِنَ الْأَجْرِ ، فَيَقُوْلُوْنَ : رَبَّنَا لَمْ نَحْفَظْ ذَلِكَ عَنْهُ ، وَلَا هُوَ فِيْ صُحُفِنَا ، فَيَقُوْلُ : إِنَّهُ نَوَاهُ" رواه أبو يعلى في مسنده إهـ . وذكر في المجالس السنية : أنه حكي عن أخوين كان أحدهما عابدا ، والآخر مسرفا على نفسه ، وكان العابد يتمنى أن يرى إبليس ، قال : فظهر له إبليس يوما ، وقال له : واأسفاه عليك ضيَّعتَ من عمرك أربعين سنة في حَصْر نفسك وإتعاب بدنك ، وقد بقي من عمرك مثلُ ما مضى ، فأَطلِقْ نفسك في شهواتها ، فقال العابد في نفسه : لعلي أنزل إلى أخي في أسفل الدار، وأوافقه على الأكل والشرب واللذات عشرين سنة ،

ثم أتوب وأعبد الله في العشرين التي تبقى من عمري ، فنزل على نية ذلك . وأما أخوه المسرف فإنه استيقظ من سُكْره ، فوجد نفسه في حالة رديئة ، قد بال على ثيابه ، وهو مطروح على التراب وفي الظلام ، فقال لنفسه : قد أفنيتُ عمري في المعاصي ، وأخي يتلذذ بطاعة الله تعالى ومناجاته ، فيدخل الجنة بطاعة ربه ، وأنا بالمعاصي أدخل النار . ثم عَقَدَ التوبة ، ونوى الخير والعبادة ، وطلع يوافق أخاه على عبادة الله تعالى ، فطلع على نية الطاعة ، ونزل أخوه على نية المعصية ، فزلت رجله ، فسقط على أخيه ، فوقعا ميِّتَين ، فحشر العابد على نية المعصية ، وحشر العاصي على نية التوبة والطاعة . فينبغي للعابد أن يحسن نيته .

(وقد حكي) أيضا أن العبد يؤتى به يوم القيامة ، ومعه حسنات كأمثال الجبال ، فينادي مناد : من كان له عند فلان حق فليأت له ، وليأخذ حقه منه . فيأتي الناس فيأخذون حسناته ، حتى لم يبق له حسنة ، فيصير حيران . فيقول الله تعالى له : عبدي ! إن لك عندي كنزا لم يطلع عليه أحد من خلقي ، فيقول : يا رب وما هو؟ فيقول : نيتك التي كنت تنوي بها الخير ، كتبتها عندي سبعين ضعفا .

(وحكي) أيضا أنه يؤتى بالعبد يوم القيامة ، فيدفع له كتاب ، فيأخذه بيمينه ، فيجد فيه حجا وجهادا وصدقة ، ما فعلها ، فيقول : يا رب ! ليس هذا كتابي ، فإني ما فعلت شيئا من ذلك ، فيقول الله تعالى : هذا كتابك ، لأنك عشت عمرا طويلا وأنت تقول : لو كان لي مال حججتُ منه ، لو كان لي مال تصدقتُ منه ، فعرفتُ ذلك من صدق نيتك ، وأعطيتك ثواب ذلك كله إهـ .

وحكي أنه خرج الأمير أَنُوشَرْوَانَ للصيد ، فأدركه العطش ، فرأى في البَرِّيَّةِ بستانًا

وعنده صبي ، فطلب منه ماء ، فقال : ليس عندنا ماء ، قال : ادفع لي رُمَّانة ، فدفعها إليه ، فاستحسنها فنوى أخذ البستان ، ثم قال : ادفع لي أخرى ، فدفع له أخرى فوجدها حامضة ، فقال : أما هي من الشجرة الأولى؟ قال : نعم ، قال : كيف تغير طعمها ؟ قال : لعل نية الأمير تغيرت ، فرجع عن ذلك في نفسه ، ثم قال : ادفع لي أخرى ، فدفع له أخرى ، فوجدها أحسن من الأولى ، فقال : كيف صلحت ؟ قال : بصلاح نية الأمير .

✦✦✦✦✦✦✦✦✦

الحكمة السادسة والستون

قال رضي الله عنه :

يَصْعُبُ سُلُوْكُ سَبِيْلِ النَّجَاةِ عَلَى مَنْ غَلَبَ عَلَى قَلْبِهِ حُبُّ ٱلْمَالِ وَالْجَاهِ .

(يصعب سلوك سبيل النجاة) من مسالك الهوى ، وموارد الهلكة ، ومن فتنة الدنيا وعذاب الآخرة (على من غلب على قلبه حب المال) المذموم وهو ما يكتسب بغير طريق شرعي أويصرف فيما لا يطلب شرعا (والجاه) أي طلب المنزلة السامية التي تعَدَّى بها على الآخَرين وترفَّع بها على عباد الله تعالى ، فإن من أسباب النجاة من دواهي الدنيا وأهوال يوم القيامة الزهد في المال والجاه ، ولكل شيء سبب ، فللرزق أسباب ، وللعلم أسباب ، وللمال أسباب ، وهكذا ، والأخذ بالأسباب في تحصيل المنافع ودفع المضار أمر لازم لا بد منه . قال الله تعالى : (وَهُزِّيْ إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا) {مريم : الآية ٢٥} . هزي إليك بجذع النخلة : أي حرِّكي جذع النخلة إليك سَحْبًا ودَفْعًا . رطبا جنيا : أي

طرِيًّا صالحا للأخذ والإجتناء . فأمر الله تعالى مريم عليها السلام بهز الجذع مع أن في مقدوره تعالى إيصال الرطب إليها بدون الهز ، تعليما وإرشادا للأمة ، بأن سنة الله جارية على حصول الأشياء بالأسباب . كما قال الشاعر :

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللهَ قَـالَ لِمَـرْيَـمٍ * وَهُزِّيْ إِلَيْكِ الْجِذْعَ يَسَّاقَطِ الرُّطَبْ
وَلَوْ شَاءَ أَجْنَى الْجِذْعَ مِنْ غَيْرِ هَزِّهِ * إِلَيْهَـا وَلَكِـنْ كُلُّ شَيْءٍ لَـهُ سَبَبْ

فمن أراد النجاة من أسر النفس والهوى وفتنة الدنيا وعذاب الآخرة فليترك الدنيا وما فيها من التنعم والراحة ، ولينبذ حب المال والجاه من قلبه ، وإلا فهو منقطع عن الله وجميع السعادة والفضل والكمال ، وهو ممن يصدق عليه قول الشاعر :

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا * إِنَّ السَّفِيْنَةَ لَا تَجْرِيْ عَلَى الْيَبِسِ

ولذا قال الله تعالى : (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) {التغابن : الآية ١٥} . وقال صلى الله عليه وسلم :" فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِيْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ" أخرجه الترمذي والنسائي عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يَأْتِيْ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَسْلَمُ لِذِيْ دِيْنٍ دِيْنُهُ ، إِلَّا مَنْ هَرَبَ بِدِيْنِهِ مِنْ شَاهِقٍ إِلَى شَاهِقٍ ، وَمِنْ جُحْرٍ إِلَى جُحْرٍ ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ الزَّمَانُ لَمْ تُنَلِ الْمَعِيْشَةُ إِلَّا بِسُخْطِ اللهِ ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ هَلَاكُ الرَّجُلِ عَلَى يَدَيْ زَوْجَتِهِ وَوَلَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ وَلَا وَلَدٌ كَانَ هَلَاكُهُ عَلَى يَدَيْ أَبَوَيْهِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبَوَانِ كَانَ هَلَاكُهُ عَلَى يَدَيْ قَرَابَتِهِ أَوِ الْجِيْرَانِ ، قَالُوْا : كَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُوْلَ اللهِ ؟ قَالَ : يُعَيِّرُوْنَهُ بِضِيْقِ الْمَعِيْشَةِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يُوْرِدُ نَفْسَهُ الْمَوَارِدَ الَّتِيْ تَهْلِكُ فِيْهَا نَفْسُهُ" . ذكره المنذري في الترغيب والترهيب . شاهق : أي مكان عال .

والمراد بالمال الذي حبه مذموم كما هو ظاهر هو الذي يحصله بغير إذن شرعي ويصرفه في غير ما يجوز شرعا .

وحكي : أنه دخل جماعةٌ على عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى في مرض موته يعودونه ، فإذا فيهم شابٌّ ناحلُ الجسم ، فقال له عمر : ماالذي بلغ بك ما أرى ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، أمراض وأسقام ، فقال له عمر : سألتك بالله إلا ما صَدَّقتَني ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ذقتُ حلاوةَ الدنيا فوجدتُها مُرَّةً ، فصغُرَتْ زهرتُها وحلاوتُها في عيني ، فكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا ، والناسُ يُساقُون إلى الجنة والنار ، فأَظمأتُ لذلك نهاري ، وأسهرتُ له ليلي ، وقليلٌ حقيرٌ كلُّ ما أنا فيه في جنب ثواب الله تعالى وعقابه .

* * * * * * * * *

الحكمة السابعة والستون

قال رضي الله عنه :

اْلخَوْفُ الصَّادِقُ يَعْمَلُ فِيْ مَحْوِ الشَّهَوَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ وَالْهِمَمِ الدَّنِيَّةِ عَمَلَ النَّارِ فِيْ إِحْرَاقِ الْأَشْجَارِ . قَالَ اللهُ تَعَالَى : (فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ) .

وَالرَّجَاءُ الصَّادِقُ يَعْمَلُ فِي اسْتِخْرَاجِ النِّـيَّاتِ الطَّيِّبَةِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ عَمَلَ اْلمَاءِ فِي الْأَرْضِ الْهَامِدَةِ اْلخَاشِعَةِ . قَالَ اللهُ تَعَالَى : (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا اْلمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيْجٍ) .

(الخوف) من الله وسطوته وغضبه (الصادق يعمل في محو الشهوات النفسانية) الموجبة للزلات (والهمم الدنية) المضلة (عمل النار) أي مثل عمل النار (في إحراق الأشجار) اليابسة (قَالَ اللهُ تَعَالَى : (فَأَصَابَهَا) أي أصاب الجنة أي البستان (إِعْصَارٌ) أي ريح شديدة (فِيْهِ) أي في الإعصار (نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ) أي الجنة {البقرة : الآية ٢٦٦} . (والرجاء) في رحمة الله وعفوه (الصادق يعمل في استخراج النيات الطيبة) التي عليها مدار صحة الأعمال وقبولها (والأعمال الصالحة) التي هي نتائج النيات الطيبة (عمل الماء) أي مثل عمل الماء الجاري (في الأرض الهامدة) أي اليابسة (الخاشعة) أي الساكنة التي لانبات فيها (قَالَ اللهُ تَعَالَى : (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً) أي يابسة (فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ) أي تحركت الأرض (وَرَبَتْ) أي ارتفعت وزادت (وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ) أي صنف (بَهِيْجٍ) أي حسَنٍ {الحج : الآية ٥} فمن خاف الله تعالى وسطوته وكان خوفه صادقا محا الشهوات النفسانية ، وأحرق الحظوظ الشيطانية التي تغويه وترديه إلى الهلاك السرمدي ، كما أحرقت النار الأشجار اليابسة واستأصَلَتْها . ومن رجا رحمة الله تعالى وكان رجاؤه صادقا أخرج ذلك الرجاء النية الطيبة من القلوب الميتة ، ومنها تنبت الأعمال الصالحة التي تقربه إلى الله تعالى ، كما اهتزت الأرض اليابسة الميتة بنزول المطر ثم أنبتت نباتا حسنا . ثم إن الرجاء والخوف حالتان متلازمتان لابد منهما لكل مؤمن مستقيم ، فلا يتحقق الرجاء إلا بالخوف كما لا يتحقق الخوف إلا بالرجاء ، لأن الرجاء قائد للطاعة ، والخوف زاجر عن المعصية ، ولذا قال بعضهم : هما كزَوْجَيِ المِقْراض لا يفيد أحدهما إلا مع وجود الآخر . وقال الآخرون : كجناحي الطير متى اعتدلا طار طيرانًا تامًّا ، ومتى زاد أحدهما على

الآخر اختل طيرانه ، ومتى ذهبا بالكلية سقط وصار كالميت والمذبوح . قال تعالى : (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِيْنَ أَسْرَفُوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوْا مِنْ رَحْمَةِ الله) { الزمر : الآية ٥٣} وقال تعالى : (فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ الله إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُوْنَ) { الأعراف : الآية ٩٩} . لكن في حال الصحة ينبغي تغليب الخوف على الرجاء ، كما قال الدردير في الخريدة البهية :

وَغَلِّبِ الْخَوْفَ عَلَى الرَّجَاءِ * وَسِرْ لِمَوْلَاكَ بِلَا تَنَاءِ

وقال شيخ مشايخنا الشيخ حسن محمد المشاط رحمه الله تعالى في شرحها المسمى بالبهجة السنية : ينبغي تغليب جانب الخوف على الرجاء في حال الصحة ، إذ به تزول الرعونات عن القلب بمشيئة الله تعالى ، فإذا نزل به المرض وأشرف على الموت ، ينبغي تغليب جانب الرجاء على الخوف لأنه حال القدوم على الكريم الذي لا تتخطاه الآمال ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : "لَايَمُوْتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِالله تَعَالَى" إهـ . روى هذا الحديث مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما . وحكي أنه كان عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد رحمه الله تعالى على صفة من الزهد والعبادة والتقى والعفة وحسن السيرة ، لا سيما أيام ولايته ، قيل : لما أفضت إليه الخلافة سُمع من منزله بكاء عالٍ ، فسئل عن ذلك ، فقالوا : إن عمر خَيَّر جواريَه ، فقال : "نزل بي ما شغلني عنكم ، فمن أحب أن أعتقه أعتقتُ ، ومن أحب أن أمسكه أمسكتُ ، ولم يكن لي إليه شيء" . وسأل عقبةُ بن نافع زوجته فاطمة بنت عبد الملك ، فقال : ألا تخبريني عن عمر ؟ فقالت : لا أعلم أنه اغتسل من جنابة ولا من احتلام منذ استخلفه الله تعالى حتى قبضه . وقالت : قد يكون من الرجال مَنْ هو أكثر صلاةً وصياما من عمر ، ولكن لم أر من الناس

أحدا قط أشدَّ خوفـا من ربه منه ، كان إذا دخل البيت ألقى نفســه في مسجده ، فلا يزال يبكي ويدعو حتى تغلِبَه عيناه ، ثم يستيقظ ويفعل مثل ذلك لَيْلَه أجمَعَ . ويروى أنه لما حضرتْ معاذا رضي الله عنه الوفاة قال : "اللهم إني قد كنتُ أخافُكَ وأنا اليوم أرجوك ، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أُحِبُّ الدنيا ، وطُولَ البقاء فيها لجَرْيِ الأنهار ولا لغرس الأشجار ، ولكن لظمأ الهواجرِ ، ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالرَّكْبِ عند حَلَق الذِّكْر" . لظمأ الهواجر : أي للعطش وقت الهاجرة أي نصف النهار ، والمراد بذلك العطش لأجل الصوم . مكابدة الساعات : أي مقاساتها بالعبادات من قيام الليل وأنواع الطاعات .

⁂

الحكمة الثامنة والستون

قال رضي الله عنه :

يَنْبَغِيْ أَنْ تُوْقِدَ لَكَ سِرَاجًا مِنَ الْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، تَسْتَضِيْءُ بِهِ فِيْ لَيْلِ ظُلُمَاتِ الدُّنْيَا ، حَتَّى يَطْلُعَ عَلَيْكَ فَجْرُ الْمَوْتِ ، أَوْ شَمْسُ السَّاعَةِ ، فَإِنَّكَ إِنْ بَقِيْتَ فِيْ لَيْلِهَا بِلَا سِرَاجٍ ، تَنْتَظِرُ طُلُوْعَ هَذَا الْفَجْرِ ، أَوْ سُطُوْعَ هَذِهِ الشَّمْسِ ، حَقَّ عَلَيْكَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى : (وَمَنْ كَانَ فِيْ هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيْلًا) .

(ينبغي) لك يا طالب السعادة الأخروية (أن توقِد) أي تُشْعِل (لك سراجا من العلم النافع والعمل الصالح) المضيئين بنورهما (تستضيء به) أي بالسراج (في

ليل ظلمات الدنيا) الظلماء (حتى يطلع) أي يظهر ويُشْرِق (عليك فجر الموت) فترتفع به الظلمات عنك (أو) تطلُعَ عليك (شمس الساعة) أي القيامة ، فتزول عنك الظلمات (فإنك إن بقيتَ في ليلها) أي ظلمات الدنيا (بلا سراج) من العلم النافع والعمل الصالح (تنتظر طلوع هذا الفجر) وهو الموت (أو سطوع) أي شروق (هذه الشمس) وهي يوم القيامة (حقٌّ) أي ثبت (عليك قول الله تعالى : (وَمَنْ كَانَ فِيْ هَذِهِ) الحياة الدنيا (أَعْمَى) البصيرة عن طريق الحق (فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى) عما ينجيه (وَأَضَلُّ سَبِيْلًا) أي أبعد طريقا عنه { الإسراء : الآية ٧٢} . والمراد بالعمى عمى القلب لأن عمى العين مع إبصار القلب لا يضر ، بخلاف العكس . ومما ينسب لابن عباس رضي الله عنهما لما عمي في آخر عمره :

إِنْ يـأْخُذِ اللهُ مِنْ عَيْنَيَّ نُوْرَهُمَا * فَفِيْ لِسَانِيْ وَقَلْبِيْ مِنْهُمَا نُوْرُ

قَلْبِيْ ذَكِيٌّ وَعَقْلِيْ غَيْرُ ذِيْ دَخَلٍ * وَفِيْ فَمِيْ صَارِمٌ كَالسَّيْفِ مَأْثُوْرُ

فينبغي للعاقل أن يطلب العلم النافع الحامل لسعادته في الدارين ، فإنه سراج يستضيء به العبد في حياته ، ونور يستنير به القلب ، فينبعث به الأعضاء للعمل الصالح ، فمن فعل ذلك فهو كامل البصيرة ، ومن لم يفعله فهو أعمى البصيرة ، ومن كان في هذه الحياة الدنيا أعمى ، فهو في الآخرة أشد عمًى وأضل سبيلا ، لا يهتدي إلى طريق النجاة ولا يستطيع أن يسلكها ، حتى يقع في جهنم . نعوذ بالله من ذلك ونسأل الله العافية .

(فائدة) قال بعض المحققين : إذا أردت أن تعلم أن علمك ينفعك أم لا ؟ فاطلب من نفسك خمس خصال : حب الفقر لقلة المؤنة ، وحب الطاعة طلبًا للثواب ،

وحب الزهد في الدنيا طلبًا للفراغ ، وحب الحكمة طلبًا لصلاح القلب ، وحب الخلوة طلبًا لمناجاة الرب . وقال بعض العارفين : العلماء ثلاثة : عالم بالله غير عالم بأمر الله ، وعالم بأمر الله غير عالم بالله ، وعالم بالله وبأمر الله . أما الأول : فهو عبد قد استولت المعرفة الإلهية على قلبه ، فصار مستغرقًا بمشاهدة نور الجلال ، وصفحات الكبرياء ، فلا يتفرغ لتعلم علم الأحكام إلا ما لا بدّ منه . الثاني : هو الذي يكون عالماً بأمر الله وغير عالم بالله ، وهو الذي عرف الحلال والحرام وحقائق الأحكام ، لكنه لا يعرف أسرار جلال الله . أما العالم بالله وبأمرالله فهو جالس على الحد المشترك بين عالم المعقولات وعالم المحسوسات ، فهو تارة مع الله بالحب له ، وتارة مع الخلق بالشفقة والرحمة ، فإذا رجع من ربه إلى الخلق ، صار معهم كواحد منهم كأنه لا يعرف الله ، وإذا خلا بربه مشتغلًا بذكره وخدمته ، فكأنه لا يعرف الخلق ، فهذا سبيل المرسلين والصديقين . وهذا هو المراد بقوله عليه السلام : "سَائِلِ الْعُلَمَاءَ وَخَالِلِ الْحُكَمَاءَ وَجَالِسِ الْكُبَرَاءَ " فالمراد من قوله عليه السلام : سائل العلماء أي العلماء بأمر الله غير العالمين بالله ، فأمر بمساءلتهم عند الحاجة إلى الله استفتاء منهم ، وأما الحكماء فهم العالمون بالله الذين لا يعلمون أوامر الله فأمر بمخالطتهم ، وأما الكبراء فهم العالمون بالله وبأحكام الله ، فأمر بمجالستهم لأن في تلك المجالسة منافع الدنيا والآخرة إهـ . والحديث المذكور أي سائل العلماء إلخ رواه الحكيم الترمذي عن أبي جحيفة رضي الله عنه .

⁘⁘⁘

الحكمة التاسعة والستون

قال رضي الله عنه :

كَفَى بِالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ مَثُوْبَةً ، وَكَفَى بِحِرْمَانِ الْجَنَّةِ عُقُوْبَةً .

(كفى بالنجاة من النار مثوبة) بعدم ذوق عذابها الشديد ، وإن لم يدخل الجنة ، فكيف إذا أدخل الجنة وخُلِّد فيها بفضله تعالى ؟ (وكفى بحرمان الجنة عقوبة) بعدم ذوق نعيمها الدائم ، وإن لم يدخل النار ، فكيف إذا أدخل النار بعدله تعالى؟ نسأل الله العافية وهو المستعان ، وقد أحس بذلك من دخل النار وأخرج عنها ثم أدخل الجنة بفضله تعالى . فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِيْنَ هُمْ أَهْلُهَا لَا يَمُوْتُوْنَ فِيْهَا وَلَا يَحْيَوْنَ . وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوْبِهِمْ ، فَأَمَاتَتْهُمْ إِمَاتَةً ، حَتَّى إِذَا كَانُوْا فَحْمًا أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ ، فَجِيْءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ – أي جماعاتٍ– فَبُثُّوْا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ ، ثُمَّ قِيْلَ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ أَفِيْضُوْا عَلَيْهِمْ . فَيَنْبُتُوْنَ نَبَاتَ الْحَبَّةِ تَكُوْنُ فِيْ حَمِيْلِ السَّيْلِ" رواه مسلم . فبثوا : أي فنُشِروا . حميل السيل : أي ما يحمله السيل من طين وغيره . فإذا ألقيت فيه حبة واستقرت فإنها تنبت في يوم وليلة . فشبه بها سرعة عودة أبدانهم وأجسامهم إليهم بعد إحراق النار لها . وكذا أهل الأعراف الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم قبل دخولهم الجنة ، فإنهم كلما رأوا أهل النار وماذاقوه فيها من العذاب الشديد خافوا من دخولها مستعيذين منها وتضرعوا إلى الله بدعائهم شاكرين الله حيث لم يدخلهم النار بإحسانه إلى هذا الوقت : "ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين" ، وأيُّ مثوبة أعظم وأعلى عندهم من النجاة من النار؟ . وكلما رأوا

أهل الجنة وما أُعْطُوا فيها مما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سَمعتْ ولا خطر على قلب بشر ، طمعوا في دخولها ، وأيُّ عقوبة أمَرُّ وأشدُّ عندهم من عدم دخولهم الجنة حين رأوا أهل الجنة قد دخلوها ، وأخذوا مكانهم فيها وذاقوا نعيمها ؟ قال الله تعالى : (وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُوْنَ كُلًّا بِسِيْمَاهُمْ ، وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوْهَا وَهُمْ يَطْمَعُوْنَ ، وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوْا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِيْنَ) {الأعراف : الآية ٤٦-٤٧} . الأعراف : السُور المضروب بين الجنة والنار . رجال : أي طائفة استوت حسناتهم وسيئاتهم . كُلًّا : أي من أهل الجنة والنار . بسيماهم : أي بعلامتهم وهي بياض الوجوه للمؤمنين ، وسوادها للكافرين لرؤيتهم لهم إذ موضعهم عال . وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، غدرت بهم سيئاتهم عن النار ، وقصرت بهم حسناتهم عن الجنة ، جُعلوا على سُوْرٍ بين الجنة والنار حتى يُقضى بين الناس ، فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربهم ، فقال لهم : قوموا فادخلوا الجنة فإني غفرت لكم . وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : "وعلى الأعراف" قال : هو السور الذي بين الجنة والنار، وأصحابه رجال كانت لهم ذنوب عظام ، وكان جسيم أمرهم لله ، يقومون على الأعراف يَعرِفون أهلَ النار بسواد الوجوه وأهلَ الجنة ببياض الوجوه ، فإذا نظروا إلى أهل الجنة طمعوا أن يدخلوها ، وإذا نظروا إلى أهل النار تعوّذوا بالله منها فأدخلهم الله الجنة . وإذا علمت ذلك أيها العاقل فاحرص أن تكون ممن نجّاه الله من النار بالتقوى . قال الله تعالى : (ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِيْنَ اتَّقَوْا) وممن فاز بدخول الجنة بالتقوى ، قال الله تعالى : (إِنَّ الْمُتَّقِيْنَ فِيْ جَنَّاتٍ وَعُيُوْنٍ) جعلنا الله تعالى

وأهلنا وأحبابنا من الناجين من عذاب النار والفائزين بدخول جنات النعيم آمين .

⁘⁘⁘

الحكمة السبعون

قال رضي الله عنه :

الْعَالَمُ بِأَسْرِهِ مُتَلَاشِيْ ، وَهُوَ فِي الْحَقِيْقَةِ لَا شَيْءَ .

(العالم) بفتح اللام وهو ما سوى الله تعالى (بأسره) أي بكليته (متلاشي) أي مُضْمَحِلٌّ وصائر إلى العدم . قال الله تعالى : (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) {القصص : الآية ٨٨} وقال تعالى : (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) {الرحمن : الآية ٢٦-٢٧} . فالدنيا وما فيها تفنى ، والأرض وما فيها تذهب ، والسماء بما فيها تنتهي ، والعوالم كلها تتلاشى ، ولا يبقى في الكون إلا الحي الباقي ذو الجلال والإكرام ، وإذا علمت ذلك أيها العاقل فكيف بك لا تسعى إلى ربك الذي أعطاك الحياة ووجَّهك إلى ما فيه سعادتك مما بينه في كتابه الحكيم ودلك إليه رسوله الحبيب الكريم في حديثه القويم ؟ ولما ذا تغتر بالدنيا الفانية التي لا ينظر إليها ربك منذ خلقها ؟ ولما ذا تطمع فيها وهي لا تدوم لك ، بل تجعلك ذليلا حقيرا بتركك ربك الكريم وتعلقِك بها وجعلِها إلهًا لك تستعبدك؟ لأنك ما أحببتَ شيئا وطمعتَ فيه إلا كنتَ عبدا له هَيِّنا . قال الشافعي رضي الله عنه :

أَمَتُّ مَطَامِعِيْ فَأَرَحْتُ نَفْسِيْ * فَإِنَّ النَّفْسَ مَا طَمِعَتْ تَهُوْنُ

وَأَحْيَيْتُ الْقُنُوْعَ وَكَانَ مَيْتاً * فَفِيْ إِحْيَائِهِ عِرْضِيْ مَصُوْنُ

إِذَا طَمَعٌ يَحُـلُّ بِقَـلْبِ عَبْدٍ * عَـلَتْهُ مَهَـانَةٌ وَعَـلَاهُ هُـوْنُ

وقدم عليٌّ رضي الله عنه البصرة فدخل جامعا فوجد القُصَّاص يقُصُّون فأقامهم ، حتى وجد الحسنَ البصري رحمه الله فقال : يافتى ، إني أسألك عن أمر ، فإن أجبتَ عنه أبقيتُك وإلا أقمتُك كما أقمتُ أصحابَك ، وكان قد رأى عليه سَمْتًا وهَدْيًا ، فقال الحسن : سل عما شئت ، فقال : ما مِلاك الدين ؟ قال : الورع ، ثم قال : فما فساد الدين ؟ قال : الطمع ، فقال له علي : اجلس ! فمثلك من يتكلم على الناس . (وهو) أي العالم أي ما سوى الله (في الحقيقة) بالنسبة لوجود الحق تعالى وعظمته (لا شيء) والمعنى أن وجود ماسوى الحق تعالى بالنسبة إليه كعدمه ، فإن القديم والحادث لا يلتقيان ، فإذا قرن الحادث بالقديم تلاشى الحادث وبقي القديم . فانتفى القول بالإتحاد إذ معنى الإتحاد هو اقتران القديم بالحادث فيتحدان حتى يكونا شيئا واحدا وهو محال ، إذ هو مبني أيضا على وجود السوى ولا سوى . كما قاله ابن عجيبة . وقال أبو الحسن الشاذلي : "إنا لننظر إلى الله تعالى ببصر الإيمان والإيقان ، فأغنانا عن الدليل والبرهان ، وإنا لانرى أحدا من الخلق، فهل في الوجود أحد سوى الملك الحق ؟ وإن كان ولا بد فكالهباء إن فتشتَهم لم تجدهم شيئا" . وقال ابن عطاء الله في حكمه :" يا عجبا كيف يظهر الوجود في العدم ؟ أم كيف يثبت الحادث مع من له وصفُ القِدَم ؟ " قال ابن عجيبة : وقد تقرر أن الحق واجب الوجود ، وكل ماسواه عدم على التحقيق ، فإذا ظهر الوجود انتفى ضده وهو العدم ، فلا وجود للأشياء مع وجوده ، فانتفى القول بالحلول ، إذ الحلول يقتضي وجود السِّوَى حتى يحل فيه معنى الربوبية ، والفرض أن السوى عدم محض . قال رجل بين يدي الجنيد رضي الله عنه : الحمد لله ولم يقل رب

العالمين ، فقال له الجنيد : كَمِّلْه يا أخي ، فقال له الرجل : وأيُّ قَدْرٍ للعالمين حتى يُذكَروا معه ؟ فقال الجنيد : قُلْهُ يا أخي ، فإن الحادث إذا قُرِن بالقديم تلاشى الحادث وبقي القديم إهـ بتصرف . ولذا قال رضي الله عنه :

✦✦✦✦✦✦✦✦

الحكمة الحادية والسبعون

قال رضي الله عنه :

مِنْ رَحْمَةِ رَبِّكَ بِكَ أَنْ حَجَبَكَ عَنْهُ .

(من رحمة ربك بك أن حجبك) أي سترك (عنه) قال السندي رحمه الله تعالى : إذ لو كُشِف لكَ عنه ولم تستعدَّ ولم تتأهلْ بعدُ لشهوده لتلاشيتَ وتفانيت أو وقعت فيما لا ينبغي ألا ترى إلى قوله تعالى : (فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوْسَى صَعِقًا) {الأعراف : الآية ١٤٣} إهـ . دكا : أي مفتّتًا مساويا للأرض . قال شيخنا العلامة السيد عمر الجيلاني حفظه الله تعالى ونفعنا بعلومه : إنه لا يرى الله تعالى كل أحد ، ولا يعرف كنهه وحقيقته ، وإنما يرى آثار فضله تعالى من هذا العالم فيَعرِف بذلك خالقَه ، وهو محجوب عن أبصارعباده . قال تعالى : (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيْفُ الْخَبِيْرُ) {الأنعام : الآية ١٠٣} إهـ . وقال بعض المحققين : الستر عبارة عن حفظهم عن التلاشي والإحتراق ، وتمكينهم في مقام الثبات ، إذ لو لا ستره عليهم ما يكاشفهم به لَتلاشَوْا عند ظهور سلطان الحقيقة ، إذ الخلق لا بقاء لهم عند وجود الحق إهـ . قال ابن كثير : وفي الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام : "يَا مُوْسَى ، إِنَّهُ لَا يَرَانِيْ حَيٌّ

إِلَّا مَاتَ ، وَلَا يَابِسٌ إِلَّا تَدَهْدَهَ" إهـ . تدهده : أي تدحرج وتقلّب . فلا يتمكن أحد من رؤيته تعالى لقوة النور الذي هو حجابه . وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : "قَامَ فِيْنَا رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ ، فَقَالَ : إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ ، وَلَكِنَّهُ يَخْفِضُ بِالْقِسْطِ وَيَرْفَعُهُ ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ حِجَابُهُ النُّوْرُ ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ" رواه البخاري ومسلم . ولم تثبت رؤيته تعالى في الدنيا يقظة لغير نبينا صلى الله عليه وسلم ، ومن ادعاها فهو ضال ، قال صلى الله عليه وسلم : "إِنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوْتُوْا" رواه النسائي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه . وأما نبينا صلى الله عليه وسلم فقد ثبتت رؤيته بأحاديث صحيحة : منها ما أخرجه مسلم والترمذي وابن مردويه عن أبي ذر رضي الله عنه قال : "سَأَلْتُ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ ؟ فَقَالَ : نُوْرٌ أَنَّى أَرَاهُ" أي كيف أراه وحجابه نور، مِنْ صفته أنه لو كشفه لأحرق ما انتهى إليه بصره من خلقه . وأخرج مسلم وابن مردويه عن أبي ذر رضي الله عنه : "أَنَّهُ سَأَلَ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ ؟ فَقَالَ : رَأَيْتُ نُوْرًا " . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : "سُئِلَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ : رَأَيْتُ نَهَرًا ، وَرَأَيْتُ وَرَاءَ النَّهَرِ حِجَابًا ، وَرَأَيْتُ الْحِجَابَ نُوْرًا لَمْ أَرَهُ غَيْرَ ذَلِكَ". واختلف هل يراه بقلبه أو بعيني رأسه ، فقال ابن عباس : يراه بعيني رأسه ، وقالت عائشة : يراه بفؤاده . والراجح كما في إسعاد الرفيق أنها بعيني رأسه ، وقول ابن عباس مقدم على قول عائشة لأنه مثبِت . والله أعلم . قال في إسعاد الرفيق : والأصح وقوع رؤيته تعالى مناما . قال صلى الله

عليه وسلم : "خَيْرُ الرُّؤْيَا أَنْ يَرَى الْعَبْدُ رَبَّهُ فِي مَنَامِهِ ، أَوْ يَرَى نَبِيَّهُ أَوْ يَرَى أَبَوَيْهِ إِنْ كَانَا مُسْلِمَيْنِ" . ويجب على الرائي أن يعلم أن المرئي أمر وارد منه تعالى ، وخلق من خلقه ، فليجر مجرى حديث ينزل ربنا . وقد حكي عن كثير من السلف أنهم رأوه في المنام ، فعن أبي حنيفة أنه رآه تسعا وتسعين ، وقال : لئن رأيته تمام المائة لأسألنه بم ينجو الخلق يوم القيامة ؟ قال : فرأيته فقلت : يا رب عز جارك وجل ثناؤك وتقدست أسماؤك بم ينجو العباد يوم القيامة ؟ فقال سبحانه وتعالى : من قال في الغداة والعشي : " سُبْحَانَ الْأَبَدِيِّ الْأَبَدِ الْوَاحِدِ الْأَحَدْ ، سُبْحَانَ الْفَرْدِ الصَّمَدْ ، سُبْحَانَ مَنْ رَفَعَ السَّمَاءَ بِغَيْرِ عَمَدْ ، سُبْحَانَ مَنْ بَسَطَ الْأَرْضَ عَلَى مَاءٍ جَمَدْ ، سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الْخَلْقَ وَأَحْصَاهُمْ عَدَدْ ، سُبْحَانَ مَنْ قَسَمَ الرِّزْقَ وَلَمْ يَنْسَ أَحَدْ ، سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدْ ، سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدْ " نجا من عذابي . إهـ . هذا في الدنيا . وأما في الجنة فقد ثبتت رؤيته تعالى على حقيقتها بالأبصار للأنبياء والرسل والصديقين وعامة المؤمنين . قال تعالى : (وُجُوْهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) {القيامة : الآية ٢٢-٢٣} . وقال صلى الله عليه وسلم إذا نظر القمر ليلة البدر : "أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا تُضَامُّوْنَ فِي رُؤْيَتِهِ" أخرجه البخاري ومسلم عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه . لا تضامون : أي لا ينالكم ازدحام وضيق . وفي حديث آخر رواه أبوداود عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال صلى الله عليه وسلم : "هَلْ تُضَارُّوْنَ فِيْ رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيْرَةِ لَيْسَتْ فِيْ سَحَابَةٍ؟ قَالُوْا : لَا. قَالَ : هَلْ تُضَارُّوْنَ فِيْ رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ فِيْ سَحَابَةٍ؟ قَالُوْا : لَا . قَالَ : وَالَّذِيْ نَفْسِيْ بِيَدِهِ لَا تُضَارُّوْنَ فِيْ رُؤْيَتِهِ إِلَّا كَمَا تُضَارُّوْنَ فِيْ رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا" .

الحكمة الثانية والسبعون

قال رضي الله عنه :

الْإِفْرَاطُ فِي الْأَمْرِ آيَةٌ عَلَى الْمَصِيْرِ فِيْهِ إِلَى التَّفْرِيْطِ .

(الإفراط) أي مجاوزة حد الإعتدال بالزيادة (في الأمر آية) أي علامة (على المصير فيه) أي في الأمر (إلى التفريط) أي مجاوزة الحد بالنقصان والتقصير . فإفراط الإنسان في أمر مأمورٍ به إلى حدٍّ لا يطيقه علامةٌ على التفريط فيه ، لأن تكليف النفس على فعل ما فوق طاقتها يؤدي إلى الملل والكسل والتقصير فيه ، بل إلى تركه رأسا . قال الله تعالى : (لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) {البقرة : الآية ٢٨٦} . قال تعالى : (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوْا فِيْ دِيْنِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ) {المائدة : الآية ٧٧} . والغلو هو الخروج عن حد الإعتدال الذي هو التوسط بين الإفراط والتفريط ، والخطاب لأهل الكتاب الحاضرين في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتناول ذلك من جاء بعدهم . وقال صلى الله عليه وسلم : "وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّيْنِ" رواه أبوداود عن ابن عباس رضي الله عنهما . وقال صلى الله عليه وسلم : "إِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى" . وتقدم هذا الحديث في الحكمة السادسة . وقال صلى الله عليه وسلم : "اكْلَفُوْا مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيْقُوْنَ" رواه أحمد وأبوداود والنسائي عن عائشة رضي الله عنها . فالحزم التوسط في العبادة ، والمداومة عليها . وهو المشروع من سنة النبي صلى الله عليه وسلم . قال تعالى : (وَالَّذِيْنَ إِذَا أَنْفَقُوْا لَمْ يُسْرِفُوْا وَلَمْ يَقْتُرُوْا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) {الفرقان : الآية ٦٧} . وقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (وَلَا تَجْعَلْ

يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا) {الإسراء : الآية ٢٩} . لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك : أي لا تمسك يدك عن الإنفاق كل الإمساك . محسورا : أي منقطعا لا شيء لك . وقال تعالى : (وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا) {الإسراء : الآية ١١٠} . ولا تجهر بصلاتك : أي بقراءتك لئلا يسمعها المشركون فيسبوك ويسبوا القرآن ومن أنزله . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : "كُنْتُ أَصُومُ الدَّهْرَ وَأَقْرَأُ الْقُرْآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ – قال – فَإِمَّا ذُكِرْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِمَّا أَرْسَلَ إِلَيَّ ، فَأَتَيْتُهُ فَقَالَ لِيْ : أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ الدَّهْرَ وَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا نَبِيَّ اللهِ وَلَمْ أُرِدْ بِذَلِكَ إِلَّا الْخَيْرَ . قال : فَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ . قُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللهِ إِنِّيْ أُطِيْقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ . قَالَ : فَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَلِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، قَالَ ، فَصُمْ صَوْمَ دَاوُدَ نَبِيِّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ كَانَ أَعْبَدَ النَّاسِ . قَالَ قُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللهِ وَمَا صَوْمُ دَاوُدَ؟ قَالَ : كَانَ يَصُوْمُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا . قَالَ : وَاقْرَإِ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ . قَالَ قُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللهِ إِنِّيْ أُطِيْقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ . قَالَ : فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ عِشْرِيْنَ . قَالَ قُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللهِ إِنِّيْ أُطِيْقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ . قَالَ : فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ عَشْرٍ . قَالَ قُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللهِ إِنِّيْ أُطِيْقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ . قال : فَاقْرَأْهُ فِيْ كُلِّ سَبْعٍ ، وَلَا تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ . فَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَلِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ". قَالَ : فَشَدَّدْتُ فَشُدِّدَ عَلَيَّ . قَالَ : وَقَالَ لِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّكَ لَا تَدْرِيْ لَعَلَّكَ يَطُوْلُ بِكَ عُمْرٌ . قَالَ : فَصِرْتُ إِلَى الَّذِيْ قَالَ لِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وأخرج البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : "جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوْتِ أَزْوَاجِ

النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُوْنَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا أُخْبِرُوْا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوْهَا ، وَقَالُوْا : فَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ . قَالَ أَحَدُهُمْ : أَمَّا أَنَا فَأُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا . وَقَالَ الْآخَرُ : وَأَنَا أَصُوْمُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ . وَقَالَ آخَرُ : وَأَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ وَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا . فَجَاءَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ : أَنْتُمُ الَّذِيْنَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللهِ إِنِّيْ لَأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ ، لَكِنِّيْ أَصُوْمُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّيْ وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِيْ فَلَيْسَ مِنِّيْ" .

وعن عون بن أبي جحيفة عن أبيه قال : "آخَى النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً ، فَقَالَ لَهَا : مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ : أَخُوْكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا ، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا ، فَقَالَ : كُلْ ! قَالَ : فَإِنِّي صَائِمٌ ، قَالَ : مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ ، قَالَ : فَأَكَلَ ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُوْمُ ، قَالَ : نَمْ ! فَنَامَ ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُوْمُ ، فَقَالَ : نَمْ ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ سَلْمَانُ : قُمِ الْآنَ ! فَصَلَّيَا ، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ : إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، فَأَعْطِ كُلَّ ذِيْ حَقٍّ حَقَّهُ ، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : صَدَقَ سَلْمَانُ" أخرجه البخاري . متبذلة : أي لابسةً ثياب البِذْلَةِ ، وهي المهنة أي تاركةً لباس الزينة .

⁂

الحكمة الثالثة والسبعون

قال رضي الله عنه :

مَنْ مَدَحَكَ عِنْدَ رِضَائِهِ بِمَا لَيْسَ فِيْكَ ، ذَمَّكَ لَا مَحَالَةَ عِنْدَ غَضَبِهِ عَلَيْكَ بِمَا لَيْسَ فِيْكَ . بَيْتَا شِعْرٍ :

إِذَا آنَسْتُ مِنْ خِلٍّ جَفَاءً * فَلَا أَجْفُوْ وَإِنْ هُوَ قَدْ جَفَانِيْ

وَلَكِنِّيْ أُفَارِقُهُ بِرِفْقٍ * وَأُمْسِكُ عَنْ تَنَاوُلِهِ لِسَانِيْ

(من مدحك عند رضائه) عنك بما أحسنتَ إليه من عطاء ونحوه مثلا (بما ليس فيك) من الصفات (ذمك لا محالة) أي لابُدَّ (عند غضبه عليك) بنحو قطع ما أحسنت إليه ، أوبرؤيته ما لا يَسُرُّه منك (بما ليس فيك) أيضا يعني : من مدحك عند رضائه عنك بما أحسنت إليه من وجوه الإحسان بأوصاف لسْتَ متصفا بها ، فاعلم أنه سيذمك يوما من الأيام عند غضبه عليك بما لا تكون متصفا به أيضا . فلا تبال بمدحه لك ، فإنه سيذمك عند منعك له من إحسانك ، فهو كالمنافقين الذين قال الله تعالى فيهم : (وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوْا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُوْنَ) {التوبة : الآية ٥٨} . يلمزك : أي يعيبك . ومع ذلك لا ينبغي لك أن تعامله معاملة المسيئ بالإساءة ، بل عليك أن تعامله معاملة المسيئ على إسائته بالاحسان كما أمر الله تعالى بذلك في قوله : (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِيْ هِيَ أَحْسَنُ) {فصلت : الآية ٣٤} وقوله : (ادْفَعْ بِالَّتِيْ هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُوْنَ) {المؤمنون : الآية ٩٦} .

(بَيْتَا شِعرٍ) أي هـذان بيتا شعرٍ أنشأهما العلامـة العارف بالله المؤلف صاحب هذه

الحكم رضي الله عنه في مقابلة الجفاء بالصفاء، والإساءة بالإحسان (إذا آنستُ) أي عرَفْتُ (من خِلٍّ) أي صديق (جفاء) أي قطيعة وعدم أُنسٍ منه، والجفاء نقيض المواصلة والأنس (فلا أجفو وإن هو قد جفاني) ولا أقابل جفائه بالجفاء (ولكني أفارقه برفق) أي لطف (وأُمسكُ عن تناوُله) أي الوقوع في عِرضه بما يعيبه (لساني) فلا أسبه ولا أغتابه. وهذا أمر محمود لا يفوز به إلا من وفقه الله تعالى من العقلاء الكاملين، وهذا من أخلاق المبعوث بمكارم الأخلاق المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي قال الله تعالى في مدحه: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيْمٍ) {القلم: الآية ٤}. عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "كُنْتُ أَمْشِيْ مَعَ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيْظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيْدَةً، قَالَ أَنَسٌ: فَنَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! مُرْ لِيْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِيْ عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ، فَضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ" أخرجه الشيخان. وعن عبد الله رضي الله عنه قال: قَسَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَسْمًا، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا أُرِيْدَ بِهَا وَجْهُ اللهِ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَغَضِبَ حَتَّى رَأَيْتُ الْغَضَبَ فِيْ وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَرْحَمُ اللهُ مُوْسَى قَدْ أُوْذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ. أخرجه البخاري ومسلم. وعن أنس رضي الله عنه قال: "كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ غَلِيْظُ الْحَاشِيَةِ، فَجَذَبَهُ أَعْرَابِيٌّ بِرِدَائِهِ جَذْبَةً شَدِيْدَةً حَتَّى أَثَّرَتْ حَاشِيَةُ الْبُرْدِ فِيْ صَفْحَةِ عُنُقِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ احْمِلْ لِيْ عَلَى بَعِيْرَيَّ هَذَيْنِ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِيْ عِنْدَكَ، فَإِنَّكَ لَا تَحْمِلُ لِيْ مِنْ مَالِكَ وَلَا مِنْ مَالِ أَبِيْكَ، فَسَكَتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُم قَالَ: الْمَالُ

مَالُ اللهِ وَأَنَا عَبْدُهُ . ثُمَّ قَالَ : وَيُقَادُ مِنْكَ يَا أَعْرَابِيُّ مَا فَعَلْتَ بِيْ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : لِمَ؟ قَالَ : لِأَنَّكَ لَا تُكَافِئُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ ، فَضَحِكَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يُحْمَلَ لَهُ عَلَى بَعِيْرٍ شَعِيْرٌ ، وَعَلَى الْآخَرِ تَمْرٌ" . يقاد منك : أي يقتص منك . وفي رواية أبي داود عن أبي هريرة رضي الله عنه : "كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجْلِسُ مَعَنَا فِي الْمَجْلِسِ يُحَدِّثُنَا ، فَإِذَا قَامَ قُمْنَا قِيَامًا حَتَّى نَرَاهُ قَدْ دَخَلَ بَعْضَ بُيُوْتِ أَزْوَاجِهِ ، فَحَدَّثَنَا يَوْمًا فَقُمْنَا حِيْنَ قَامَ ، فَنَظَرْنَا إِلَى أَعْرَابِيٍّ قَدْ أَدْرَكَهُ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ فَحَمَّرَ رَقَبَتَهُ -قال أبو هريرة : وَكَانَ رِدَاءً خَشِنًا- فَالْتَفَتَ ، فَقَالَ لَهُ الْأَعْرَابِيُّ : احْمِلْ لِيْ عَلَى بَعِيْرَيَّ هَذَيْنِ ، فَإِنَّكَ لَا تَحْمِلُ لِيْ مِنْ مَالِكَ وَلَا مِنْ مَالِ أَبِيْكَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ! لَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ! لَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ! لَا أَحْمِلُ لَكَ حَتَّى تُقِيْدَنِيْ مِنْ جَبْذَتِكَ الَّتِيْ جَبَذْتَنِيْ فَكُلُّ ذَلِكَ يَقُوْلُ لَهُ الْأَعْرَابِيُّ : وَاللهِ لَا أُقِيْدُكَهَا فَذَكَرَ الحَدِيْثَ ، قَالَ : ثُمَّ دَعَا رَجُلًا فَقَالَ لَهُ : احْمِلْ لَهُ عَلَى بَعِيْرَيْهِ هَذَيْنِ : عَلَى بَعِيْرٍ شَعِيْرًا وَعَلَى الْآخَرِ تَمْرًا ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ : انْصَرِفُوْا عَلَى بَرَكَةِ اللهِ". قوله : لا تَحمِلُ لي من مالك ولا من مال أبيك ، يعني : يريد الأعرابي من مال المسلمين لا من مال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من مال أبيه ، هذا من الجفاء في القول والفعل . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا، وأستغفر الله! لا، وأستغفر الله! لا، وأستغفر الله!" - يعني : أنه صلى الله عليه وسلم لا يحمل له من ماله ولا من مال أبيه ، وإنما الحمل هو من بيت المال . وقوله : لا أحمِلُ لك حتى تُقيدني من جبذتك التي جبذتني ، يعني : أنه صلى الله عليه وسلم طلب من الأعرابي أن يقيده من تلك الجبذة التي جبذه بها وأثَّرتْ فيه ، وهذا من كمال أخلاقه صلى الله عليه وسلم ، فقد أُسِيءَ إليه ، ومع ذلك يداعبه ويلاطفه ويقول له

مثل هذا الكلام ، والأعرابي يأبى أن يُقيده ، وهذا من الأعرابي جفاء أيضًا .

الحكمة الرابعة والسبعون

قال رضي الله عنه :

الذِّكْرُ لِلهِ مَغْنَاطِيْسُ الْقُلُوْبِ ، يَجْذِبُهَا بِخَاصِيَتِهِ مِنْ مَوَاطِنِ الْغَفْلَةِ إِلَى عَوَالِمِ الْغُيُوْبِ

(الذكر لله) بالقلب أو باللسان أو بهما (مغناطيس القلوب) المغناطيس : حجر يجذب الحديد بقوة وقهر (يجذبها بخاصيته) أي الذكر (من مواطن الغفلة إلى عوالم الغيوب) عالَم الغيب هو عالم الأرواح والروحانيات ، ويقال له عالم الأمر وعالم الملكوت . قال السندي ما حاصله : أن للذكر نورا يدفع ظلمة القلوب ، فتتنور وتنكشف لها حقائق الأمور ، ولا يزال الذاكر يترقى إلى أن يكشف له من المغيبات ، ويرى صور الملائكة ويسمع كلامهم ، ويفهم أذكار الجمادات وكلماتها إهـ . وكما أن حجر المغناطيس يجذب كل حديد حوله ، ويقربه من بعيد ويلصقه ، كذلك ذكر الله تعالى يجذب القلب البعيد عن الله تعالى ، الغافل عن ذكره ، ويقربه إلى حضرته ، وبذكره تعالى يكون طمأنينته وأنسه . قال الله تعالى : (الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوْبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوْبُ) {الرعد : الآية ٢٨} . أي بذكر الله تعالى تسكن قلوب المؤمنين أنسا بالله ، ومحبة له ، وتزول غفلتها عن حضرته . وبه ينغرس في القلب حب الإكثار من الدعاء إلى الله تعالى ، وحب

المساكين والفقراء ، وتحلية القلب بالفضائل ، لا بالمشارب والمآكل ، وبه يبتعد المسلم عن اتباع الهوى ، وحب الدنيا الملعونة ، ومجاوزة حد الإعتدال في الأمور . قال الله تعالى : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيْدُوْنَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيْدُ زِيْنَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) {الكهف : الآية ٢٨} . اصبر نفسك : أي احبسها . ولا تعدُ : أي لا تَنصَرِفْ . فرطا : أي إسرافا . وقال صلى الله عليه وسلم : " قَالَ اللهُ تَعَالَى : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِيْ بِيْ وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِيْ ، فَإِنْ ذَكَرَنِيْ فِيْ نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِيْ نَفْسِيْ ، وَإِنْ ذَكَرَنِيْ فِيْ مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِيْ مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُ " رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه . وفي الوصايا المتبولية : أنه لا يحصل الكشف والإخلاص إلا بذكر الله ، ولا يصل أحد إلى الحضرة إلا به ، وهو منسوب الولاية ، وأنه أسرع في الفتح من سائر العبادات . وبه تنزل الرحمة ويزول الغم إهـ . وقال أبو سعيد الخراز رضي الله عنه : إذا أراد الله أن يوالي عبدًا من عباده فتح عليه باب ذكره ، فإن استلذ الذكر فتح الله عليه باب القرب ، ثم رفعه إلى مجالس الأنس ، ثم أجلسه على كرسي التوحيد ، ثم رفع عنه الحجب ، وأدخله دار الفردانية ، وكشف له ستور الجلال والعظمة ، فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقي بِلاَ هُوَ ، وصار فانيا فوقع في حفظ الله وبرئ من دعاوي نفسه فصار وليا إهـ . وإذا كان ذكر الله يقربه إلى حضرته تعالى ، كانت الغفلة تُبعِّده عن الله تعالى ، وتخلِّصه عن حفظه وأنسه . وقد جاء مرفوعًا : "آجَالُ الْبَهَائِمِ كُلِّهَا وَخَشَاشِ الْأَرْضِ فِي التَّسْبِيْحِ ، فَإِذَا انْقَضَى تَسْبِيْحُهَا قَبَضَ اللهُ أَرْوَاحَهَا" . ويروى : "مَا مِنْ صَيْدٍ يُصَادُ وَلَا شَجَرَةٍ تُقْطَعُ إِلَّا بِغَفْلَتِهَا عَنْ ذِكْرِ اللهِ "وفي

الحديث : "الثَّوْبُ يُسَبِّحُ فَإِذَا اتَّسَخَ انْقَطَعَ تَسْبِيْحُهُ" . وقال بعض العلماء : "إِنَّ الصَّاعِقَةَ لَا تُصِيْبُ شَخْصًا إِلَّا وَهُوَ غَافِلٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى" . وفي حياة الحيوان : عن أبي العباس بن مسروق ، قال : كنت باليمن فرأيت صيادًا يصطاد السمك على بعض السواحل وعلى جانبه ابنة له ، كلما اصطاد سمكة تركها في دَوْخَلَةٍ معه ، فتردها الصبية إلى الماء ، فالتفت الرجل فلم ير شيئًا ، فقال: يا بنية أيُّ شيء صنعتِ بالسمك ؟ فقالت: يا أبت سمعتك تروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لَا تَقَعُ سَمَكَةٌ فِيْ شَبَكَةٍ إِلَّا غَفَلَتْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ " فلم أحب أن آكل شيئًا غفل عن ذكر الله . فبكى الرجل ورمى بالصِّنَّارة . إهـ . الدوخلة : وعاء من خوص كالزنبيل يجعل فيه التمر أو الرطب أوالسمك . الصنارة : التي تنشب في حلق السمك . وقال صلى الله عليه وسلم : "مَا مِنْ آدَمِيٍّ إِلَّا لِقَلْبِهِ بَيْتَانِ : فِيْ أَحَدِهِمَا الْمَلَكُ ، وَفِيْ الْآخَرِ الشَّيْطَانُ ، فَإِذَا ذَكَرَاللهَ خَنَسَ ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ وَضَعَ الشَّيْطَانُ مِنْقَارَهُ فِيْ قَلْبِهِ وَوَسْوَسَ لَهُ " أخرجه ابن شيبة عن عبد الله بن شقيق . وحكي أن إبليس أراد أن يهلك بعض أولياء الله العارفين ، ويفسد إيمانه ، فتصور بصورة آدمي ، وخدمه ، وراقب كل ساعة غفلته عن ذكر الله ، فلم يتمكن من ذلك إلى أن بلغ عشر سنين ، فلما أيس منه قال له : أنا إبليس إنما خدمتُك لأُفسِدَ إيمانك ، وأترقب غفلتك عن ذكر الله فلم أتمكن ، فقال له : قد عرفتُ من أول مجيئك أنك إبليس ، وتركتك تخدمني عقوبةً لك ، أخرُجْ يَا لَعِيْنُ ! فقال له إبليس : ما وجدت أحدا من أمثالك أشدَّ ثباتا منك .

✦ ✦ ✦ ✦ ✦ ✦ ✦ ✦

الحكمة الخامسة والسبعون

قال رضي الله عنه :

لَا يَطْمَعُ فِيْ بُلُوْغِ الْآمَالِ وَالْأَوْطَارِ ، مَنْ لَمْ يُوَطِّنْ نَفْسَهُ عَلَى رُكُوْبِ الْأَهْوَالِ وَالْأَخْطَارِ .

(لا يطمع في بلوغ الآمال) والأماني السامية (والأوطار) أي الحوائج (من لم يوطن نفسه) أي لم يُهيِّئْها ولم يُمهِّدْها (على ركوب الأهوال والأخطار) التي يلقاها ، فإذا كان الإنسان قد وطن نفسه لركوب الأهوال والأخطار ، وصبر على المشاق الواجهة عليه ، وكابدها وبذل جهده في سبيل بلوغ آماله العلية من القرب إلى الله تعالى ، والفوز بدخول الجنة ، والنجاة من النار ، فقد تجاوز هذه العقبات والمصاعب ، وبلغ أمانيه ، ووصل إلى مقاصده . قال صلى الله عليه وسلم : "ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللهُ : الرَّجُلُ يَلْقَى الْعَدُوَّ فِيْ فِئَةٍ فَيَنْصِبُ لَهُمْ نَحْرَهُ حَتَّى يُقْتَلَ أَوْ يُفْتَحَ لِأَصْحَابِهِ ، وَالْقَوْمُ يُسَافِرُوْنَ فَيَطُوْلُ سُرَاهُمْ حَتَّى يُحِبُّوْا أَنْ يَمَسُّوا الْأَرْضَ مِنَ التَّعَبِ ، فَيَنْزِلُوْنَ ، فَيَتَنَحَّى أَحَدُهُمْ فَيُصَلِّيْ حَتَّى يُوْقِظَهُمْ لِرَحِيْلِهِمْ ، وَالرَّجُلُ يَكُوْنُ لَهُ الْجَارُ فَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُ حَتَّى يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا مَوْتٌ أَوْ ظَعْنٌ " رواه أحمد عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه . فينصب لهم نحره : أي يكون مقبلا غير مدبر . سراهم : أي مشيهم في الليل . فيتنحى أحدهم : أي لا ينام . أو ظعن : أي ارتحال . فهذا الرجل الثاني الذي يمشي مع إخوانه في السفر الطويل أصابه ما أصابهم من التعب والمشقة ، لكنه جاهد نفسه ، وكابد المشقة ، فقام يصلي وحده وأيقظ إخوانه للرحيل ، لا غرو أنه فعل ذلك لمحبة الله تعالى وطاعته ، والطمع فيما عنده ، فأحبه

الله وقرَّبه إليه ، وبلَّغه مأمولَه ، ووفقه لما يرضاه . وانظر إلى ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكابدة التعب والمشقة في العبادة مع أنه يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وكذلك أصحابه والأولياء والصالحون . فعن عائشة رضي الله عنها قالت : "كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّيِ حَتَّى تَنْتَفِخَ قَدَمَاهُ ، قُلْتُ يَا رَسُوْلَ اللهِ : أَتَفْعَلُ هَذَا وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ : أَفَلَا أَكُوْنُ عَبْدًا شَكُوْرًا ؟" أخرجه البخاري . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا ؟ قَالَ أَبُوْ بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : أَنَا . قَالَ فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً ؟ قَالَ أَبُوْ بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : أَنَا ، قَالَ : فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِيْنًا؟ قَالَ أَبُوْ بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : أَنَا ، قَالَ : فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيْضًا؟ قَالَ أَبُوْ بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : أَنَا ، فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ " أخرجه مسلم . وعن حماد بن سلمة قال : "كَانَ سُلَيْمَانُ التَّيْمِيُّ طَوَى فِرَاشَهُ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً ، وَلَمْ يَضَعْ جَنْبَهُ بِالْأَرْضِ عِشْرِيْنَ سَنَةً - يَعْنِيْ كَانَ يَنَامُ جَالِسًا - وَكَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ ". وكان الإمام علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة حتى صار في ركبتيه مِثْلُ ثَفَنِ البعير أي ركبتِه من الغلظ والخشونة . وكذلك كَهْمَس بن الحسن صلى في اليوم والليلة ألف ركعة ، فإذا ملَّ قال لنفسه : قومي يا مأوَى كلِّ سوءٍ فوالله ما رضيتُكِ لله ساعة قط . وكان كهمس يعمل في الجِصِّ كل يوم بدانِقَيْنِ ، فإذا أمسى اشترى بهما فاكهة فأتى بها إلى أمه . دانق : نوع من الأوزان القديمة قدره سُدُس الدرهم الواحد . وكذا عامر بن قيس فرض على نفسه ألف ركعة ، يقوم عند طلوع الشمس فلا يزال قائما إلى العصر. ثم ينصرف

وقد انتفخت ساقاه وقدماه ، فيقول : يا نفس ! إنما خُلِقتِ للعبادة ، يا أمارة بالسوء ! والله لأعملن بكِ عملا ، لا يأخذ الفراشُ منكِ نصيبا . وكذلك مصعب ابن ثابت بن عبد الله بن الزبير يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة ، ويصوم الدهر ، قال : بِتُّ ليلة في المسجد بعد ما خرج الناس منه ، فإذا برجل قد جاء إلى بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسند ظهره إلى الجدار ، فقال : اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّيْ كُنْتُ أَمْسِ صَائِمًا ثُمَّ أَمْسَيْتُ فَلَمْ أُفْطِرْ عَلَى شَيْءٍ ، اللَّهُمَّ فَإِنِّيْ أَمْسَيْتُ أَشْتَهِي الثَّرِيْدَ فَأَطْعِمْنِيْهِ مِنْ عِنْدِكَ . قال : فنظرت إلى وصيفٍ داخل من خَوْخَةِ المنارة ، ليس في خُلُقه وُصَفاءُ الناس ، ومعه قصعة ، فأهوى بها إلى الرجل فوضعها بين يديه ، وجعل الرجل يأكل وحَصَّبني ، فقال : هلم ! فجئته وظننت أنها من الجنة ، فأحببت أن آكل منها ، فأكلت منها لقمة فإذا طعام لا يشبه طعام أهل الدنيا ، ثم احتشمت فقمت فرجعت إلى مكاني ، فلما فرغ من أكله أخذ الوصيف القصعة ، ثم أهوى راجعا من حيث جاء ، ثم قام الرجل منصرفا ، فتبعته لأعرفه ، فلا أدري أين سلك؟ فظننته أنه الخضر. رضي الله عن الجميع وأرضوه ، وأفاضنا من بركاتهم آمين . الثريد : الخبز المخلوط باللحم . قال الشاعر :

إِذَا مَا الْخُبْزُ قَدْ شِيبَ بِلَحْمٍ * فَذَاكَ أَمَـانَةِ اللهِ الثَّرِيْـدُ

وصيف : أي غلام دون المراهق . خوخة : أي باب صغير . حصَّبَني : أي رماني بالحَصْباء أي الحصى . احتشمت : أي انقبضت وتركت الطعام .

* * * * * * * * *

الحكمة السادسة والسبعون

قال رضي الله عنه :

لَا يَنْبَغِيْ لِلْعَاقِلِ أَنْ يُخَاطِبَ الجَاهِلَ ، الَّذِيْ يَظُنُّ بِنَفْسِهِ الْعَقْلَ أَصْلًا . فَإِنَّهُ إِنْ خَاطَبَهُ عَلَى مُقْتَضَى عَقْلِهِ ، كَانَ مُضَيِّعًا لِلْعَقْلِ وَمُسْتَهِيْنًا بِفَضْلِهِ . وَإِنْ خَاطَبَهُ بِحَسَبِ جَهْلِهِ ، كَانَ مُتَشَبِّهًا بِهِ وَمَعْدُوْدًا مِثْلَهُ . قَالَ اللهُ تَعَالَى : (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِيْنَ)

(لا ينبغي للعاقل أن يخاطب الجاهل ، الذي يظن بنفسه العقل) ويدعي العلم ، وهو الجاهل المركب ، أما الجاهل البسيط فلا يدعي العلم بل يعترف بجهله (أصلا) أي بالكلية أي لا يخاطبه بمقتضى عقله ولا بحسب جهله كما سيصرح فيما بعد (فإنه) أي العاقل (إن خاطبه على مقتضى عقله) أي العاقل (كان) العاقل (مضيعا للعقل) الذي يتميز به عن الجاهل (ومستهينا بفضله) من التمييز بين الحسن والقبيح والنافع والضار ، وذلك لأن العاقل استعمل عقله مع من لا ينتفع به (وإن خاطبه) العاقل (بحسب جهله) أي الجاهل (كان) العاقل (متشبها به) أي بالجاهل (ومعدودا مثله) لأن من أخذ طريق إنسان وسلك مسلكه يكون مثله ، ومن تشبه بقوم فهو منهم . (قَالَ اللهُ تَعَالَى : خُذِ الْعَفْوَ) أي خذ يامحمد السَهْل واليُسْرَمن أخلاق الناس لئلا ينفروا (وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ) أي بالمعروف وهي أفعال الخير (وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ) {الأعراف : الآية ١٩٩} . أعرض عن الجاهلين : أي لا تكافئهم على جهلهم ، واحلم عليهم . فينبغي للعاقل أن يعرف

المخاطب وحاله ، ويعرف كيف يخاطبه ؟ حتى ينفعه خطابه ولا يكون مضيعا لعقله ووقته ، فهو كالطبيب يلزم عليه أن يعرف حال المريض والدواء الذي يناسبه ، ومقداره الذي يرجى حصول الشفاء به ، وكذلك المعلم الداعي إلى الله تعالى يلاحظ في تعليمه ودعوته حال مَن تَعلَّم منه ومَن سَمِع كلامَه ، فيخاطبه بقدر ما أدركه فهمه ، فإن كان من يدعوه جاهلا بسيطا يعترف بجهله وفيه قابلية للتعلم والخير، فليعلمه بما ينفعه من صغار العلم التي يحتملها فهمه ، وليتلطف به ليقبل العلم ويفهمه ، وإن كان جاهلا مركبا يدعي أنه عالم وهو في الحقيقة جاهل ، فهذا من أصعب الأشياء ، إذ لا ينتفع بشيء يسمعه لجهله وعدمِ علمه بأنه جاهل .

قال الإمام الخليل بن أحمد الفراهيدي رحمه الله تعالى : النَّاسُ أَرْبَعَةٌ :

الْأَوَّلُ : عَالِمٌ وَيَدْرِيْ أَنَّهُ عَالِمٌ، فَهَذَا كَامِلٌ فَسَوِّدُوْهُ .

الثَّانِيْ : عَالِمٌ وَلَا يَدْرِيْ أَنَّهُ عَالِمٌ، فَهَذَا غَافِلٌ فَنَبِّهُوْهُ .

الثَّالِثُ : جَاهِلٌ وَيَدْرِيْ أَنَّهُ جَاهِلٌ ، فَهَذَا مُسْتَرْشِدٌ فَأَرْشِدُوْهُ

الرَّابِعُ : جَاهِلٌ وَلَا يَدْرِيْ أَنَّهُ جَاهِلٌ ، فَهَذَا مَـارِقٌ فَاتْرُكُوْهُ .

مارق : أي خارج عن الدين بجهله وضلاله . والثالث الذي هو جاهل ويدري أنه جاهل ، هو الجاهل البسيط الذي فيه قابلية للهدى والعلم . والرابع الذي هو جاهل ولا يدري أنه جاهل ، هو شر الأقسام الأربعة ، وهو الجاهل المركَّب الذي يُراد بالجاهل في هذه الحكمة والله أعلم .

✦✦✦✦✦✦✦✦✦

الحكمة السابعة والسبعون

قال رضي الله عنه :

مَنْ أَرْضَاكَ بِمَا يَضُرُّكَ فِيْ دِيْنِكَ كَالْمُدَاهَنَةِ لَكَ وَعَدَمِ النُّصْحِ وَالتَّبْصِيْرِ بِالْعُيُوْبِ فَهُوَ لَكَ عَدُوٌّ ، وَإِنْ كَانَتْ نَفْسُكَ تَمِيْلُ إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ طَبْعُهَا وَهَوَاهَا ، وَهُوَ كَالطَّعَامِ اللَّذِيْذِ الْمُلَائِمِ ، وَفِيْهِ السُّمُّ النَّاقِعُ .

وَمَنْ أَسْخَطَكَ بِمَا يَنْفَعُكَ فِيْ دِيْنِكَ مِثْلُ التَّنْبِيْهِ عَلَى الْعُيُوْبِ وَالنَّقَائِصِ الَّتِيْ هِيَ فِيْكَ فَهُوَ لَكَ وَلِيٌّ وَإِنْ كَرِهْتَهُ بِطَبْعِكَ . وَمَثَلُهُ كَالدَّوَاءِ الْمُرِّ الَّذِي يَكُوْنُ فِيْ ضِمْنِهِ الْعَافِيَةُ وَالشِّفَاءُ .

(من أرضاك بما يضرك في دينك) الذي هو أغلى من كل شيء (كالمداهنة لك) والمداهنة هي أن ترى منكرا وتقدر على دفعه ولم تدفَعْه ، حفظا لجانب مرتكبه أو جانب غيره ، أو لقلة مبالاة في الدين (وعدم النصح) لك والشفقة بك . قال صلى الله عليه وسلم : "الدِّيْنُ النَّصِيْحَةُ ، قُلْنَا : لِمَنْ ؟ قَالَ : للهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُوْلِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِيْنَ وَعَامَّتِهِمْ " رواه مسلم عن تميم الداري رضي الله عنه . وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنهما قَالَ : "بَايَعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، فَلَقَّنَنِي فِيْمَا اسْتَطَعْتُ ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ" أخرجه البخاري . وعن أبي أمامة رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إِنَّ اللهَ يَقُوْلُ أَحَبُّ عِبَادَةِ عَبْدِيْ إِلَيَّ النَّصِيْحَةُ" أخرجه ابن عساكر . (و) عدم (التبصير بالعيوب) التي فيك (فهو لك) في الحقيقة (عدو) يلزم عليك اجتنابه

(وإن كانت نفسك تميل إليه) أي تحبه (من حيث طبعها وهواها) لأن النفس تحب إلى من يداهنها ويَلِينُ لها . ويروى أن الله تعالى أوحى لداود عليه السلام فقال له : "يَادَاوُدُ مَالِيْ أَرَاكَ مُنْتَبِذًا وَحِيْدًا ؟ فَقَالَ : قَلَيْتُ الْخَلْقَ مِنْ أَجْلِكَ ، فَقَالَ : يَادَاوُدُ كُنْ يَقْظَانًا ، وَارْتَدْ لِنَفْسِكَ إِخْوَانًا ، وَكُلُّ خِدْنٍ لَايُوَافِقُكَ عَلَى مَبَرَّتِيْ فَلَا تَصْحَبْهُ فَإِنَّهُ لَكَ عَدُوٌّ ، وَيُقَسِّيْ قَلْبَكَ وَيُبَاعِدُكَ عَنِّيْ" . قلَيْت : أي أبغضت . ارتَدْ : أي اطلب . خِدْن : أي أخ وصديق . (وهو) أي الذي يرضيك بما يضرك في دينك (كالطعام اللذيذ الملائم) أي الموافق لذوقك (وفيه السم الناقع) أي القاتل (ومن أسخطك بما ينفعك في دينك ، مِثْلُ التنبيه على العيوب والنقائص التي هي فيك فهو لك) في الحقيقة (وليٌّ) أي صديق (وإن كرهته بطبعك) حيث إن النفس تكره من يذكر نقصها وعيبها (ومَثَلُه كالدواء المرِّ) الذي يمُجُّه ذوقك (الذي يكون في ضمنه العافية والشفاء) فالذي يُظهر لك المداهنة ، ويُغَطِّي عنك عيوبك ، ويبين لك الأمر على غير حقيقته طلبا لرضاك ، ولم يَجُدْ بنصحك ، هو في الظاهر صديقك لأنه يسعى لرضاك ، لكنه في الحقيقة عدو لك ، وهو كالطعام اللذيذ الذي يحبه كل ذي ذوق سليم لكنه في داخله سم قاتل، فهو إنما يسعى في هلاكك، ويفعل ما يكون لك فيه الندم في العاجل والآجل ، فلا تصحبه ولا تغتر به ولا تلتفت إليه ، لأنه لو أخلص في صحبتك لأرشدك إلى ما ينفعك ولا يضرك . قال شيخنا العلامة السيد عمر الجيلاني حفظه الله تعالى : صديقك من صَدَقَك لا من صدَّقك إهـ . وقال صلى الله عليه وسلم : "إِنَّ أَحَدَكُمْ مِرْآةُ أَخِيْهِ فَإِذَا رَأَى بِهِ أَذًى - أي حسيا أو معنويا- فَلْيُمِطْهُ عَنْهُ" رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه . والذي يبين لك عيبك الذي فيك والنقص الذي تتصف به ، لكن لا بلطف بل

بأسلوب يسخطك ، هو في الحقيقة ولي وصديق لك ، فاصحبه واتخذه خليلا ، لأنه صديقٌ صادقٌ لايرضى لك بما يضرك ، بل يسعى لك بما ينفعك في دنياك وأخراك . وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : "رَحِمَ اللهُ مَنْ أَهْدَى إِلَيَّ عُيُوْبِيْ" . واعلم أن المداهنة مذمومة وهي كما تقدم ترك دفع المنكر طلبا للرضا ، والقصد فيها غالبا طلبُ حظٍّ من الحظوظ الدنيوية أو إقامة جاه ، وهي من صفات الكفار والمنافقين . قال تعالى : (وَدُّوْا لَوْتُدْهِنُ فَيُدْهِنُوْنَ) {القلم : الآية ٩} . أي تمنَّوْا لوتلين لهم بأن لا تذكر آلهتهم بسوء ، فيلينون لك ، فهم يدهنون لك الآن لطمعهم في إدهانك . بخلاف المداراة فإنها محمودة ، والفرق بينهما أن المداراة ما أردتَ به صلاح أخيك فداريتَه لرجاء صلاحه ، واحتملتَ منه ما تكره ، والمداهنة ما قصدتَ به شيئا من الهوى من طلب حظ أو نيل جاه . وقيل : المداراة بذل المال لإصلاح الدين ، والمداهنة بذل الدين لإصلاح الدنيا ، ولذا قيل : المداراة من أخلاق الأبرار والمداهنة من شِيَم الأشرار . عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "رَأْسُ الْعَقْلِ بَعْدَ الْإِيْمَانِ التَّوَدُّدُ إِلَى النَّاسِ" رواه الطبراني ، والبيهقي في شعب الإيمان . وعن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما قال ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : "مُدَارَاةُ النَّاسِ صَدَقَةٌ" رواه البيهقي وابن حبان . فينبغي للعاقل أن يداري الأهل والأولاد والجيران والأصحاب وكافة الناس بكل ما أمكن من الإحسان إليهم ، وتحمل أذاهم ، وكف الأذى عنهم ، وملاطفتهم ، وكان من حسن مداراته صلى الله عليه وسلم أن لايذم طعاما ولا يَنْهَر خادما . فعن أنس رضي الله عنه قال : "خَدَمْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ عَشْرَ سِنِيْنَ فَمَا قَالَ لِيْ : أُفٍّ قَطُّ ، وَمَا قَالَ لِيْ لِشَيْءٍ لَمْ

أَفْعَلْهُ : أَلَا كُنْتَ فَعَلْتَهُ؟ ، وَلَا لِشَيْءٍ فَعَلْتُهُ : لِمَ فَعَلْتَهُ ؟" رواه البخاري . أف : هو صوت دلَّ على التضجر . قال الشاعر :

فَدَارِ أَخِيْ مَـا دُمْتَ حَيًّا فَتَغْنَمَا * وَلَا تَكُ مِمَّـنْ قَـدْ يُدَاهِـنُ لِلْمَقْتِ

وَلَسْتَ تَـرَى مَنْ قَدْ يُدَارِيْ بِيَوْمِنَـا * وَلَكِنْ تَرَى مَنْ قَدْ يُدَاهِنُ فِي الْوَقْتِ

* * * * * * * * *

الحكمة الثامنة والسبعون

قال رضي الله عنه :

مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَذْكُرَهُ النَّاسُ وَيُثْنُوْا عَلَيْهِ بِشَيْءٍ مِنَ الْكَمَالِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ خِلَافَهُ ، وَكَرِهَ أَنْ يَذُمُّوْهُ بِأَمْرٍ يَعْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ انْطِوَاءَهُ عَلَيْهِ ، حَتَّى يَصِيْرَ يَفْرَحُ وَيَمِيْلُ إِلَى مَنْ يَمْدَحُهُ ، وَيَنْفِرُ وَيَكْرَهُ مَنْ يَذُمُّهُ ، فَقَدْ عَظُمَتْ حَمَاقَتُهُ وَتَمَّتْ غَبَاوَتُهُ .

(من أحب أن يذكره الناس ويثنوا عليه بشيء من الكمال ، وهو يعلم من نفسه خلافه) بأن يعلم أنه غير متصف بذلك الكمال ، ويكون ذلك إما لجهلهم بحقيقة حاله ، أو لكذبهم ، أولحسن ظنهم به أو غير ذلك (وكره أن يذموه بأمر يعلم من نفسه انطواءه) أي احتوائه واشتماله (عليه) أي الأمر (حتى يصير يفرح) بالثناء عليه (ويميل إلى من يمدحه) مع أنه يعلم أن المدح لا يقع موقعه (و) حتى يصير (ينفر) بالذم عليه (ويكره من يذمه) مع أنه عالم بأن ذمه وقع موقعه (فقد عظمت حماقته) حيث صدّق الناس بما أثنوا عليه به وفرح به مع علمه أنهم مخطئون في

ذلك (وتمت غباوته) حيث كذَّب الناس الذين ذموه بأمر هو فيه ، وكرههم ونفر منهم ، مع علمه أنهم مصيبون وصادقون فيه . فينبغي للإنسان إذا مدحه مادح أن ينظر ، إن كان المدح بما يستحقه فليتواضع وليحمد الله تعالى ، ولا بأس بالفرح به كما هو الطبع البشري ، ولكن لا يغتر به لئلا يقع في العجب المذموم . فعن خلاد بن السائب رضي الله عنه قال ، دخلت على أسامة بن زيد فمدحني في وجهي فقال : إنه حملني أن أمدحك في وجهك أني سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : "إِذَا مُدِحَ الْمُؤْمِنُ فِيْ وَجْهِهِ رَبَا الْإِيْمَانُ فِيْ قَلْبِهِ" رواه الحاكم . وإن كان المدح فيما لا يستحقه ، بأن يعرف من نفسه أنه على خلاف ما مُدِح به ، فالفرح لأجله غباوة شديدة . وهذا من صفات المنافقين الذين أظهروا شيئا على خلاف ما أبطنوه . وأما إذا انتقده أحد من الناس على عملٍ عَمِله ، أوذمه بنقص أو عيب كان فيه ، فعليه أن يشكر الله تعالى حيث قَيَّض له بمن يذكِّرُه ، ويخلِّصُه من الخطأ أو النقص ، ويفرح به لأنه يعينه على إصلاح حاله . ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب يوما على المنبر ، وكان من خطبته النهي عن المغالاة في مهور النساء ، ويريد تحديدها ، فاعترضت له امرأة في المسجد فقالت : أما سمعتَ قوله تعالى : (وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوْا مِنْهُ شَيْئًا) {النساء : الآية ٢٠} ، فقال عمر : اللهم غفْرًا ، كلُّ الناس أفقَهُ من عمر . وفي رواية أنه قال : امرأةٌ أصابتْ وأخطأَ عُمَرُ . وصعد المنبر وأعلن رجوعه عن قوله . ألا ترى أن عمر رضي الله عنه نسي هذه الآية وما تدل عليه من أنه يجوز أن يكون المهر قنطارا -أي مالا كثيرا- ثم ذكَّرَتْه هذه المرأة ، وهذا دأب المؤمن العاقل يزدري نفسه ويهضمها ، ولا يرفعها فوق قدرها ، ويفرح بمن يُذَكِّره . وكان بعض العلماء إذا قال في رأيه بشيء يقول : هذا

رأيُنا فمن جاءنا برأيٍ أحسنَ منه قَبِلْناه . وكان الشافعي رحمه الله يوصي أصحابه باتباع الحق وقبول السنة إذا ظهرتْ لهم على خلاف قوله ، وأن يضربوا بقوله حينئذ عرضَ الحائط . وقال أيضا : كلُّ ما قلتُ ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم خلافَ قولي مما يصحُّ ، فحديث النبي صلى الله عليه وسلم أولى ولا تقلِّدُوني .

وكان يقول في كتبه : لا بد أن يوجد فيها ما يخالف الكتاب والسنة لأن الله تعالى يقول : (أَفَلَا يَتَدَبَّرُوْنَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوْا فِيْهِ اخْتِلَافًا كَثِيْرًا) {النساء : الآية ٨٢} . وقال الشافعي رحمه الله : ودِدتُ إذا ناظرتُ أحدًا أن يُظهِرَ اللهُ الحقَّ على يدَيْه . وكان يقول لبعض تلامذته : وددت أن لو أُخِذ عني هذا العلمُ من غير أن يُنسبَ إليَّ منه شيءٌ . وكان يقول لأحمد بن حنبل : يا أبا عبد الله أنت أعْلَمُ بالحديث مني ، فإذا صح الحديث فأعلِمْني حتى أذهبَ إليه شاميًا كان أو كوفيًا أو بصريًا . رضي الله عنهم أجمعين ونفعنا بعلومهم آمين .



الحكمة التاسعة والسبعون

قال رضي الله عنه :

الْإِيْمَانُ شَجَرَةٌ ثَابِتَةٌ فِيْ أَرْضِ الْقَلْبِ ، وَالْإِعْتِقَادَاتُ وَالْمَعَارِفُ الْإِيْمَانِيَّةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُصُوْلِ وَالْعُرُوْقِ لِتِلْكَ الشَّجَرَةِ ، وَالْأَخْلَاقُ الْمَحْمُوْدَةُ وَالْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ بِمَنْزِلَةِ الْفُرُوْعِ وَالْغُصُوْنِ لَهَا .

وَمِثَالُ الْمَوْتِ ، وَمَا يَعْرِضُ عِنْدَهُ مِنَ الْفِتَنِ ، وَيَحْصُلُ بِوَاسِطَتِهِ مِنْ شِدَّةِ

الْأَلَمِ ، كَالسَّيْلِ الْقَوِيِّ الَّذِي يَجْرِيْ عَلَى أُصُوْلِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ، أَوِ الرِّيْحِ الْمُزَعْزِعَةِ الَّتِيْ تُحَرِّكُ فُرُوْعَهَا ، وَتُمَيِّلُ بِهَا يَمِيْنًا وَشِمَالًا .

فَإِنْ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الشَّجَرَةُ الشَّرِيْفَةُ ، فِيْ نِهَايَةِ الْقُوَّةِ ، وَالنُّمُوِّ ، وَالرُّسُوْخِ ، فُرُوْعًا وَأُصُوْلًا خِيْفَ عَلَيْهَا الْإِنْقِلَاعُ فِيْ ذَلِكَ الْوَقْتِ .

وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ ، اشْتَدَّ خَوْفُ الْأَكَابِرِ مِنْ سُوْءِ الْخَاتِمَةِ ، وَزَيْغِ الْقَلْبِ عِنْدَ الْمَوْتِ .

ثُمَّ إِنَّ الْقَوَادِحَ وَالْعَوَارِضَ الَّتِيْ تَعْرِضُ لِأُصُوْلِهَا ، مِنَ الْبِدَعِ وَالشُّكُوْكِ ، وَالْإِضْطِرَابِ فِيْ أَمْرِ الْآخِرَةِ ، يَجْرِيْ مَجْرَى مَا يَعْرِضُ فِيْ أُصُوْلِ الشَّجَرِ مِنَ الْآفَاتِ ، وَالْأَخْلَاقُ الْمَذْمُوْمَةُ وَالْمَعَاصِيْ تَجْرِيْ مِنْهَا مَجْرَى مَا يَقَعُ لِفُرُوْعِ الشَّجَرَةِ وَأَغْصَانِهَا مِنَ الْعَوَارِضِ .

فَلَا جَرَمَ أَنْ كَانَ الَّذِيْ يَقْدَحُ فِي الْأَصْلِ وَيُوْهِنُهُ ، أَضَرَّ عَلَى الشَّجَرَةِ كَثِيْرًا مِنَ الَّذِيْ يَقَعُ عَلَى الْفُرُوْعِ .

وَلِهَذَا عَظُمَ أَمْرُ الْبِدْعَةِ وَالشَّكِّ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ . وَكَانَ عَلَى صَاحِبِهِ أَضَرَّ مِنَ الْمَعَاصِيْ وَالْمُحَرَّمَاتِ .

نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ ، وَالْوَفَاةَ عَلَى الْإِسْلَامِ .

(الإيمان) أي كلمة الإيمان والتوحيد (شجرة ثابتة) أي كشجرةٍ ثابتٍ أصلُها (في أرض القلب) الذي هو منبع المعارف والعلوم الإلهية (والإعتقاداتُ) الجازمة

(والمعارف الإيمانية) المستقيمة ، كائنة (بمنزلة الأصول والعروق لتلك الشجرة) الإيمانية (والأخلاقُ المحمودة) كالحلم والصبر والكرم والشجاعة (والأعمال الصالحة) كالصلاة والصوم والحج ، ثابتة (بمنزلة الفروع والغصون لها) أي لتلك الشجرة (ومثال الموت) الذي إذا جاء لا يتأخر عن وقته المحدود ولا يتقدم (وما يعرض عنده من الفتن) والأهوال من مشاهدة صورة ملك الموت ، ومشاهدة العصاة موضعهم من النار ، وفتنة الشيطان الذي يريد سلب الإيمان ، فقد روي : أن إبليس أمر أعوانه إلى الميت واستعملهم عليه ووكلهم به ، فيأتونه وهو على تلك الحال ، فيتمثلون له في صورة من سلف من الأحباب الميتين الباغين له النصح في دار الدنيا ، كالأب والأم والأخ والأخت والصديق الحميم ، فيقولون له : أنت تموت يا فلان ، و نحن قد سبقناك في هذا الشأن ، فمتْ يهوديًّا فهو الدين المقبول عند الله تعالى ، فإن انصرم عنهم وأبى ، جاءه آخرون وقالوا له : مت نصرانيًّا فإنه دين المسيح ، وقد نسخ الله به دين موسى ، و يذكرون له عقائد كل ملة ، فعند ذلك يُزيغ الله من يريد زيغه . نسأل الله السلامة (ويحصل بواسطته) أي الموت (من شدة الألم) حالة النزع وسكرات الموت ، فقد قيل : إن ألم الموت أشد من ضرب بالسيف ، ونشر بالمناشير ، وقرض بالمقاريض ، حتى انقطع صوت الميت من شدة الألم . اللهم هون علينا سكرات الموت آمين (كالسيل القوي) جريانه ، الجار والمجرور خبر قوله ومثال الموت (الذي يجري على أصول هذه الشجرة) ويمزق عروقها (أو) كـ (الريح المزعِزعة) أي المحركة تحريكا شديدا (التي تحرك فروعها) أي ترفعها مرة وتخفضها أخرى (وتميِّل بها يمينا وشمالا) وتسقطها . (فإن لم تكن هذه الشجرة الشريفة) الإيمانية (في نهاية القوة ،

والنمو ، والرسوخ ، فروعا وأصولا خيف عليها الإنقلاع في ذلك الوقت) الذي تزعزعها فيه الفتن ، وهو وقت الموت (ومن أجل ذلك ، اشتد خوف الأكابر) من الأولياء والصالحين (من سوء الخاتمة وزيغِ القلب) أي ميله عن الحق والهدى (عند الموت) والأعمالُ بالخواتيم . قال صلى الله عليه وسلم : "فَوَ اللهِ الَّذِيْ لَاإِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُوْنُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا" رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . ويروى : أنه كان بمصر رجل ملتزم مسجدًا للأذان و الصلاة ، وعليه بهاء العبادة و أنوار الطاعة ، فرقِيَ يومًا المنارةَ على عادته للأذان ، وكان تحت المنارة دار لنصراني ذميٍ ، فاطَّلَع فيها فرأى ابنةَ صاحب الدار ، فافتتن بها وترك الأذان ، ونزل إليها ودخل الدار فقالت له : ما شأْنُكَ ما تريد ؟ فقال : أنتِ أريدُ . قالت : لماذا ؟ قال لها : قد سَلَبْتِ لُبِّي وأخذْتِ بمجامع قلبي . قالت : لا أجيبك إلى رِيبة . قال لها : أتزوَّجُكِ . قالت له : أنت مسلم وأنا نصرانية ، وأبي لا يزوجني منك ، قال لها : أتنصَّرُ . قالت : إن فعلتَ أفعلُ . فتنصَّر ليتزوجها ، وأقام معها في الدار . فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقي إلى سطح كان في الدار ، فسقط منه فمات ، فلا هو بدينه ولا هو بها . فنعوذ بالله من سوء العاقبة وسوء الخاتمة . وقال شيخنا العلامة السيد عمر بن حامد الجيلاني حفظه الله تعالى : إن سوء الخاتمة والعياذ بالله تعالى من ذلك يخشى ممن يصر على المعاصي لا سيما مرتكب الكبيرة كالزنا ، وعقوق الوالدين إهـ . وحكي أن رجلًا من أهل المعاصي كان واقفًا على باب داره ، وكان باب داره يشبه باب الحمام ، فمرت امرأة جميلة وهي تسأل عن طريق حمام مِنْجاب . فقال لها : هـذا حمام منجاب ، وأشار إلى

داره ، فدخلَتْ دارَه ، ودخل ورائها ، فلما رأتْ نفسَها معه في داره وليستْ بحمّامٍ ، علِمَتْ أنه خدعها وأراد منها الفاحشة ، فاحتالت عليه بأن أظهرت له الفرح والبِشْر باجتماعها معه على تلك الخلوة في تلك الدار . وقالت : ينبغي أن يكون عندنا طعام طيب وروائح طيبة يَطيبُ بذلك الإجتماع ، وتقر به العيون ، ففرح وقال : الساعة آتيك بكل ما تريدين وما تشتهين . وخرج وتركها في الدار، وظن أنه أغلق عليها الباب ، ومضى وأتى بما تريده ، ورجع ودخل الدار فوجدها قد خرجتْ وذهبتْ ولم يجد لها أثرا . فهام الرجل بها وذهب بلُبِّه ، فأكثرَ الذكرَ لها والحزن والجزع عليها ، وجعل يمضي في الطرق ويقول :

يَـا رُبَّ قَـائِـلَةٍ يَوْمًـا وَقَدْ تَعِبَتْ * أَيْنَ الطَّـرِيقُ إِلَى حَمَّـامِ مِنْجَـابِ

ومر من عند بيتها وهو يُنشِد هذا البيت ، وإذا بها تُجاوِبُه من داخل دارها ، وتقول بصوت سمعه :

هَـلَّا جَعَلْتَ سَرِيْعًا إِذْ ظَفِرْتَ بِهَـا * حِرْزًا عَلَى الدَّارِ أَوْ قُفْلًا عَلَى الْبَابِ

فلما سمع الرجل ذلك ازداد هيمانه واشتد هيجانه ، وجعل يردد : يا رب قائلة يوما إلخ حتى نزل به الموت ، ولم يستطع أن يقول : لا إله إلا الله إهـ . نعوذ بالله من سوء الخاتمة . وحكى ابن ظفر في كتاب النصائح له قال : كان يونس بن عبيد رحمه الله تعالى بزّازًا - أي بائع الثياب - وكان لا يبيع في طرفي النهار ولا في يوم غَيْم ، فأخذ يومًا ميزانه فرضّه - أي كسره - بين حجرين فقيل له : هلا أعطيته الصانع فأصلح فسادَه ؟ فقال : لو علمتُ فيه فسادًا لَمَا أبقيتُ من مالي قوتَ ليلةٍ . قيل له : فلم كسرته ؟ قال : حضرتُ رجلًا احتُضِرَ فقلت له : قل : لا إله إلا الله ،

فامتعض – أي شق عليه– ، فألحَحْتُ عليه فقال : ادع الله لي فقال : هذا لسان الميزان على لساني يمنعُني من قولها . قلت : أفما يمنعُكَ إلَّا من قولها ؟ فقال : نعم . قلت : وما كان عملك به ؟ قال : ما أخذتُ ولا أعطَيْتُ به إلا حقًّا في علمي ، غير أني كنت أقيم المدة لا أفتقدُه ولا أختبِره . فكان يونس بعد ذلك يَشترط على من يبايعه أن يأتي بميزانٍ ويزن بيده وإلا لم يبايِعْهُ . وقال ابن أبي الدنيا : قيل لأحد التجار لما حضرته الوفاة : قل : لا إله إلا الله ، قال : خمسة في ستة كم تصير؟ قل لا إله إلا الله ! قال : خمسة في ستة كم تصير ؟ فلم يستطع أن يقول : لا إله إلا الله حتى مات .

وقال بعضهم : من الأمور التي يخشى منها سوء الخاتمة نعوذ بالله من ذلك :

١ – التكلم حال الأذان وعدم إجابته .

٢– إساءة المسلم لا سيما العلماء العاملون ، ومنها غيبة العلماء ، ويروى عن بعض السلف ، وهو محمد بن سيرين رحمه الله أنه أصابته ديون في آخر عمره ، فقال : إني أعرف الذنب الذي أصبته ، وأوجب لي هذا ، قلتُ لرجل قبل أربعين سنة : يا مفلس ! فابتلاني الله بالدَّيْنِ . فهذه المقالة قالها قبل أربعين سنة ولكن ما ترك الله عز وجل أثرها وعاقبتها له .

٣– عقوق الوالدين .

٤– شرب الخمر وكل مسكر .

٥– الإستخفاف بالصلاة المفروضة .

وجمعها بعضهم في بيتين :

يُخْشَى عَلَى خِتَامِ مَنْ تَكَلَّمَا * حَالَ الْأَذَانِ أَوْ أَسَاءَ مُسْلِمَا

أَوْعَقَّ أَصْلًا أَوْ تَعَاطَى الْخَمْرَا * أَوْ فِي صَلَاتِهِ اسْتَخَفَّ الْأَمْرَا

وزاد على ذلك شيخنا العلامة أحمد بارزي محمد فتح الله عافاه الله تعالى ونفعنا بعلومه آمين ثلاثة أمور نظمها في الأبيات الآتية :

وَزِيْدَ مَنْ يَشْرَبُ لِلدُّخَانِ * مُنْتَشِقًا فِيْ مَجْلِسِ الْقُرْآنِ

أَوْ أَكَلَ الرِّبَا وَمَالًا لِلْيَتِيْم * ظُلْمًا وَمَنْ يَفِرُّ مِن كُلِّ عَلِيْم

وَرَبَّنَا نَسْأَلُهُ حُسْنَ الْخِتَامْ * بِجَاهِ خَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالسَّلَامْ

(ثم إن القوادح) المضرَّة (والعوارض) الحادثة (التي تعرض لأصولها) أي الشجرة الشريفة ، وأصولها هي الإعتقادات والمعارف الإيمانية (من البدع) في الإعتقادات (والشكوك) الموقعة في الشُبَه (والإضطراب) أي الشك (في أمر الآخرة) وأمر القبر(يجري) أي ما ذكر من القوادح والعوارض (مجرى ما يعرض في أصول الشجر من الآفات) الموجبة لانقلاعها وانقلاع عروقها ، وهي أشد ضررا من الآفات العارضة على فروع الشجرة (والأخلاق المذمومة) كالرياء والحسد والتكبر (والمعاصي) كالزنا وشرب الخمر وترك الصلاة (تجري منها مجرى ما يقع لفروع الشجرة وأغصانها من العوارض) المضعفة لها (فلا جرم) أي حقًّا (أن كان الذي يقدح في الأصل ويوهنه ، أضر على الشجرة كثيرا من الذي يقع على الفروع) لأن ما يوهن أصلها يوجب إتلاف كلها ولا يمكن تدارك الأصل ، وما يوهن فروعها إنما يوجب إتلاف بهجتها فقط ، ويمكن تدارك الفرع (ولهذا عظم أمر البدعة) في العقيدة (والشك في اليوم الآخر) أي في وقوع يوم القيامة

والبعث وسؤال الملكين وغير ذلك (وكان) أي ما ذكر من أمر البدعة والشك في اليوم الآخر (على صاحبه أضر من) فعل (المعاصي والمحرمات) وإن كان كل منهما مضرا . لأن الشك المذكور يوجب انقلاع أصول الشجرة الإيمانية ، ولا يمكن تداركها . وفعل المعاصي والمحرمات يوجب زوال بهجتها فقط لخلل في فروعها ، ويمكن تداركها . (نسأل الله) تعالى (العافية) والسلامة من الآفات التي تعرض لشجرة الإيمان (و) نسأله تعالى (الوفاة على الإسلام) آمين يا أرحم الراحمين .

* * * * * * * *

الحكمة الثمانون

قال رضي الله عنه :

الدُّنْيَا تُنَادِيْ عَلَى نَفْسِهَا بِلِسَانِ الْحَالِ ، خِطَابًا لِلرَّاغِبِيْنَ فِيْهَا : احْذَرُوْنِيْ فَإِنِّيْ فِتْنَةٌ ، وَخُذُوْا مِنِّيْ زَادَ الْآخِرَةِ . وَامْتَثِلُوْا أَمْرَ اللهِ لَكُمْ فِيْ تَرْكِكُمْ إِيَّايَ . وَاعْتَبِرُوْا بِمَنْ مَضَى مِنْ قَبْلِكُمْ ، مِنَ الزَّاهِدِيْنَ فِيَّ ، وَالْمُتَمَتِّعِيْنَ بِيْ ، وَانْظُرُوْا فِيْ سِيَرِهِمْ ، وَكَيْفَ ذَهَبُوْا وَانْقَلَبُوْا إِلَى الْآخِرَةِ . الزَّاهِدُوْنَ مِنْهُمْ بِنَعِيْمٍ لَا يَنْقَضِيْ ، وَأَهْلُ الْحِرْصِ بِحَسْرَةٍ لَا تَنْقَطِعُ .

(الدنيا) الخدَّاعة (تنادي على نفسها بلسان الحال) ولسان الحال : ما دل على حالة الشيء من ظواهر أمره ، فكأنه قام مقام كلام يُعَبَّر به عن حاله ، فلم يحتج فيه إلى كلام (خطابا للراغبين فيها) أي الدنيا (احذروني) أيها العاشقون لي (فإني) لكم (فتنة) تُفتَتنون بي ، هل تلهَوْنَ بسببي عن ربكم أولا ؟ وهل تقعون بسبب التكاثر

فيما لا يرضي ربكم أولا ؟ . قال تعالى : (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيْمٌ) {التغابن : الآية ١٥} . (وخذوا مني زاد الآخرة) وانتفعوابي لها ، فإني مزرعة للآخرة ، وستجدون نتيجة أعمالكم التي تَسُرُّكم فيها . قال تعالى : (مَنْ كَانَ يُرِيْدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيْدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيْبٍ) {الشورى : الآية ٢٠} . (وامتثلوا أمر الله لكم في ترككم إياي) فتفوزوا في الدنيا والآخرة . قال تعالى : (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِيْنَ يَتَّقُوْنَ أَفَلَا تَعْقِلُوْنَ) {الأنعام : الآية ٣٢} . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيْهَا ، فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُوْنَ ؟ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا" أخرجه مسلم . (واعتبروا بمن مضى من قبلكم ، من الزاهدين فِيَّ) الآخذين مني لزاد الآخرة (والمتمتعين بي) المغرورين بظواهري حتى يتقاتلوا بسببي ، وينسوا آخرتهم (وانظروا في سِيَرِهم) وراقِبوا أخبارهم وحكاياتهم ، فتعتبروا بها وتعرفوا قدرهم ومكانتهم (وكيف ذهبوا) عني (وانقلبوا إلى الآخرة) التي تدوم لهم (الزاهدون منهم) متنعمون (بنعيم) في الجنة (لا ينقضي) وعطاءٍ لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع (وأهل الحرص) والشرَه ، متقلبون ومتألمون (بحسرة) في النار (لا تنقطع) وخسارة لا تنتهي ، هذا نداء الدنيا على نفسها بلسان حالها ، يسمع هذا النداء الزهاد المعرضون عنها في كل لحظة من لحظاتهم ، ولا يسمعه المشغوفون بها طول حياتهم . قال تعالى : (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيْرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوْبٌ لَا يَفْقَهُوْنَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُوْنَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُوْنَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُوْنَ) {الأعراف : الآية ١٧٩} . ذرأنا : أي خلقنا .

قال صلى الله عليه وسلم : "وَيَا عَجَبًا كُلَّ الْعَجَبِ لِلْمُصَدِّقِ بِدَارِ الْخُلُوْدِ وَهُوَ يَسْعَى لِدَارِ الْغُرُوْرِ ، وَيَا عَجَبًا كُلَّ الْعَجَبِ لِلْمُخْتَالِ الْفَخُوْرِ ، وَإِنَّمَا خُلِقَ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ يَعُوْدُ جِيْفَةً ، وَهُوَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا يَدْرِيْ مَا يُفعَلُ بِهِ" رواه القضاعي عن أبي جعفر عبد الله بن مِسْوَر الهاشمي . وروى الليث عن جرير قال : "صحب رجل عيسى عليه السلام ، وقال : يا نبيّ الله أكون معك وأصحبك ، فانطلقا إلى شط نهر ، فجلسا يتغديان ومعهما ثلاثة أرغفة ، فأكلا رغيفين ، وبقي رغيف ، فقام عيسى عليه السلام إلى النهر فشرب ، ثم رجع فلم يجد الرغيف ، فقال للرجل : مَن أخذَ الرغيفَ؟ قال : لا أدري ، فانطلق ومعه صاحبه ، فرأى ظبية ومعها خِشْفانِ لها . قال : فدعا أحدَهما فأتاه ، فذبحه وشَوَى منه ، وأكل هو والرجل . ثم قال للخشف : قم بإذن الله ! فقام فذهب ، فقال للرجل : أسألك بالذي أراك هذه الآية مَن أخذ الرغيف؟ قال : ما أدري ، قال : ثم انتهيا إلى نهر ، فأخذ عيسى بيد الرجل فمَشَيَا على الماء فلما جاوزا ، قال : أسألك بالذي أراك هذه الآية من أخذ الرغيف؟ قال : لا أدري ، قال : فانتهيا إلى مفازة فجلسا ، فأخذ عيسى فجمع ترابًا أو رَمَلًا ، وقال له : كُنْ ذهبًا بإذن الله ، فكان ذهبًا ، فقسمه ثلاثة أثلاث . فقال : لي ثلثٌ ، وثلثٌ لك ، وثلث لِمَنْ أخذ الرغيف ، فقال : أنا أخذْتُه ، قال : فكلُّهُ لك ، وفارقه عيسى ، فانتهى إليه رجلان وهو في المفازة ومعه المال ، فأرادا أن يأخذاه منه ويقتلاه ، فقال : هو بيننا أثلاثًا ، قال : فابعثوا أحدَكم إلى القرية ليشتري طعامًا ، فقال الذي بُعث : لأي شيءٍ نُقاسِمُ هذا المالَ ، لأجعلَنَّ لهما في الطعام سُمًّا فأقتلهما به ، وآخذ هذا المال جميعه ، فجعل فيه السم ، وقال صاحباه في غيبته : لأي شيء نقاسِمُه المال ، إذا جاء قتلناه ، واقتسمْنَا المالَ نصفين ، فجاء

فقتلاه ، ثم أكلا الطعام فماتا ، وبقي المال في المفازة ، وأولئك الثلاثةُ قَتْلَى حَوْلَهُ ، فمرّ عيسى عليه السلام بهم ، وهم على تلك الحالة ، فقال لأصحابه : هذه الدنيا فاحذروها" . الخِشْف : ولد الظبية .

✦✦✦✦✦✦✦

الحكمة الحادية والثمانون

قال رضي الله عنه :

الْكَمالُ أَرْبَعَةُ أَجْزَاءٍ :

الْعِلْمُ ، وَبِهِ يُعْرَفُ حَقُّ اللهِ تَعَالَى . وَالْعَمَلُ بِالْعِلْمِ ، وَهُوَ الْقِيَامُ بِأَمْرِ اللهِ .

وَالْإِخْلَاصُ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ ، وَهُوَ تَصْفِيَةُ مَا للهِ .

وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ ، وَهُوَ الْإِعْتِمادُ عَلَى اللهِ .

فَمَنْ عَرَفَ حَقَّ اللهِ ، وَقَامَ بِأَمْرِ اللهِ ، وَصَفَّى مَا للهِ ، وَاعْتَمَدَ عَلَى اللهِ ، فَهُوَ الْإِنْسَانُ الْمُرْتَضَى ، الْوَلِيُّ للهِ الْمُجْتَبى .

(الكمال) الديني (أربعة أجزاء) فمن أتى بها فقد كمل دينه وقوي إيمانه . قال الله تعالى : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) {المائدة : الآية ٣} . قال أبو حفص : كمال الدين في شيئين : في معرفة الله واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم . وقال شقيق في هذه الآية : كمال الدين في الأمن والفراغ ، إذا كنت آمنا بما تكفل الله لك صرت فارغا لعبادته . وبين المؤلف رحمه الله تعالى في هذه الحكمة أن كمال الدين يكون بأربعة أمور كما قال : الأول

(العلم) بالله وبأحكامه (وبه يعرف حق الله تعالى) على عباده بأن يعبد الله ولا يشرك به شيئا ، ويأتي بما أمر وينزجر عما زجر . قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه : "يَا مُعَاذُ ! هَلْ تَدْرِيْ مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ ؟ قَالَ : قُلْتُ اللهُ وَرَسُوْلُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوْهُ وَلَا يُشْرِكُوْا بِهِ شَيْئًا" والمراد بالعلم علم التوحيد والفقه والحديث والتصوف فإنها مُقَدَّمة في التعلم على غيرها . قال تعالى : (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) {محمد : الآية ١٩} . فقوله عز وجل : فاعلم أنه لا إله إلا الله ، فيه الإشارة إلى علم التوحيد ، وقوله عز وجل : واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ، فيه الإشارة إلى علم الفقه والتصوف . قال بعضهم :

مَا حَوَى الْعِلْمَ جَمِيْعًا أَحَدٌ * لَا وَلَوْ مَارَسَهُ أَلْفَ سَنَةْ

إِنَّمَا الْعِلْمُ بَعِيْدٌ غَوْرُهُ * فَخُذُوْا مِنْ كُلِّ عِلْمٍ أَحْسَنَهْ

مارسه : أي عالجه وزاوله . الغور : القعر من كل شيء (و) الثاني (العمل بالعلم) وهوثمرة العلم ، فالعلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر (وهو القيام بأمر الله) من أداء الحقوق إلى ذويها ، وامتثال الأوامر واجتناب النواهي . وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم : "مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" رواه أبو نعيم في الحلية عن أنس رضي الله عنه . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : "يا حَمَلَةَ العلم اعمَلُوا به ، فإنما العالِمُ مَنْ عَلِم ثم عَمِل ، ووافَقَ عِلمُه عمَلَه ، وسيكون أقوامٌ يحمِلون العلمَ لا يُجاوِزُ تراقِيَهُمْ ، تخالِفُ سريرتُهم علانيتَهم ، ويخالف عملُهم علمَهم ، يَقعُدُون حَلَقًا فيُباهِي بعضُهم بعضا ، حتى إن الرجل لَيغضَبُ على

جَليسِه أن يجلِسَ إلى غيرِه ويدَعَه ، أولئك لا تَصْعَدُ أعمالُهم في مجالسهم تلك إلى الله عز وجل" . تراقيهم : جمع تَرْقُوَةٍ ، وهي عظم بين ثغرة النحر والعاتق ، والمراد : ليس حظهم من العلم إلا اللسان ولا تتعظ به قلوبُهم . وقال سفيان : أجهَلُ الناسِ مَن تَركَ ما يَعلَم ، وأعلمُ الناسِ من عَمِل بما يَعلَم ، وأفضلُ الناسِ أخشَعُهم لله .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : تعلَّموا ، تعلَّموا فإذا علمتُم فاعمَلُوا .

وقال بعض الصحابة رضي الله عنه : العلم يَهتِفُ بالعمَل ، فإن أجابَه وإلَّا ارْتحَل .

وقال بعضهم : العلم حجة له إن عمل أو حجة عليه إن لم يعمل .

(و) الثالث (الإخلاص في العلم والعمل ، وهو تصفية ما لله) وتخليصه من أي شائبة تكدرهما من الرياء والتكبر والعجب وغيرها . والإنسان ما دام يراقب الناس ويهابهم لا يتحقق إخلاصه أبدا ، وذكر ابن عجيبة حديثا مسلسلا عن النبي صلى الله عليه وسلم : "أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْإِخْلَاصِ ، فَقَالَ : حَتَّى أَسْأَلَ جِبْرِيْلَ ، فَلَمَّا سَأَلَهُ قَالَ : حَتَّى أَسْأَلَ رَبَّ الْعِزَّةِ ، فَلَمَّا سَأَلَهُ قَالَ لَهُ : هُوَ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِيْ أُوْدِعُهُ قَلْبَ مَنْ أَحْبَبْتُ مِنْ عِبَادِيْ ، وَلَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكْتُبُهُ ، وَلَا شَيْطَانٌ فَيُفْسِدُهُ" إهـ . فينبغي للعاقل أن يخلص نيته في التعلم لله تعالى ، بأن يقصد إحياء تعاليم دينه ، والعمل به ، ونيل رضاه في الدنيا والآخرة ، ولا يقصد بذلك وجه الناس ، والمدح منهم ، وتحصيل الشهرة ، ولا يجعله وسيلة لنيل الأعراض ، وسبيلا إلى أخذ الأعواض ، ولا يكون قصده كثرة الأتباع ، والتباهي به ، والمماراة ، وليعلم أنه سيحاسب بعلمه بعد الممات ، يوم لا يرجى فيه إلا الأعمال الصالحات . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيْبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" رواه أبو

داود عن أبي هريرة رضي الله عنه . عرضا : أي متاعا . عرف الجنة : أي رائحتها .
وقال صلى الله عليه وسلم : "مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْيَصْرِفَ بِهِ وُجُوْهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ" رواه الترمذي عن كعب ابن مالك رضي الله عنه . ليجاري به العلماء : أي ليقاوم به العلماء رياء وسمعة . ليماري به السفهاء : أي ليجادل به السفهاء . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : "لَا تَزُوْلُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عِلْمِهِ فِيْمَ فَعَلَ بِهِ؟" وتقدم تخريجه في الحكمة السادسة والثلاثين . وقد روي عن علي كرم الله وجهه أنه ذكر فتنا تكون في آخر الزمـان ، فقال له عمر رضي الله عنه : متى ذلك يا علي ؟ قال : "إذا تُفُقِّهَ لغير الـدين ، وتُعُلِّمَ لغير العمل ، والتُمِسَتِ الدنيا بعمل الآخرة" . ولكن لا ينبغي الإمتناع من تعليم العلم أو تعلمه لعدم خلوص النية ، فإن حسن النية سيكون له ببركة العلم ، قال بعض السلف : "طَلَبْنا العلمَ لغيرِ الله فَأَبَى أن يكونَ إلا لله" . قيل معناه : فكان عاقبته أن صار لله تعالى . ولو شرط ذلك مع عسره على كثير منهم ، لأدى ذلك إلى تفويت العلم كثيرا من الناس ، وذلك خسران في الدين ، ولكنه يدخل على قلبه تدريجيا ما يبعثه على حسن النية ، وخلوص القصد قولا وفعلا حتى تتحسن نيته . وكما يلزم عليه الإخلاص في العلم كذلك يلزم الإخلاص في العمل ، فإن به يقبل العمل وبه يصعد إلى الله تعالى ، وبعدم الإخلاص يُرَدُّ ويضرب على وجه صاحبه . قال الله تعالى : (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) {الملك : الآية ٢} . قال المفسرون : أحسن العمل هو أصوبه وأخلصه ، فإذا كان العمل صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل ، حتى يكون صوابا خالصا . والخالص الذي يكون لله تعالى بإرادة القلب ، والصواب الذي يكون على سبيل السنة وموافقة الكتاب .

(و) الرابع (البراءة من الحول والقوة) فلاتحوُّلَ عن المعاصي والمخالفات ، ولا قوة على العبادات والطاعات إلا بتوفيق الله ومعونته (وهو الإعتماد) والتوكل (على الله) والثقة بما قدره والرضا بما قسمه . وقال سهل : التقوى هوالتبري من الحول والقوة . وقيل : كمال الدين التبري من الحول والقوة والرجوع في الكل إلى منزلة الكل . وقال بعض المشايخ : صحح عملك بالإخلاص ، وصحح إخلاصك بالتبري من الحول والقوة (فمن عرف حق الله ، وقام بأمر الله ، وصفَّى ما لله ، واعتمد على الله ، فهو الإنسان المُرْتضَى ، الوليُّ لله المُجْتبَى) أي المختار ، وسيكفيه الله ما أهمه من أمور دنياه وآخرته . قال أبو الحسن عمر بن واصل العنبري : سمعت سهلًا يقول : دخلتُ البادية سبعة عشرة مرة بلا زاد من طعام ولا شراب ولا هميانٍ ولا ركوةٍ ولا عِصِيٍّ ، فلم أحتج إلى شيء آكلُه إلا وهو مُعَدٌّ لي ، فقرُبْتُ من البادية ذاتِ كُرْهٍ ، فدفع إليَّ رجلٌ درهمين صحيحين ، فوضعتهما في جيبي ومضيت ، فسرت مدة فلم أجد شيئًا ، فضعفت وجعلت أقول لنفسي : ما الذي أحدثتِ حتى حُبِسَ عنكِ معلومُكِ؟ فسمعت صوتًا من الهوى يقول : اطرح ما في الجيب يأتك ما في الغيب . فتذكرتُ أن في جيبي درهمين ، فأخرجتهما ورميتُ بهما ، فلم أسْرِ هُنَيْهَةً حتى أبصرت رغيفين بينهما عسل ، كأنهما أُخرِجا من التنور ساعةً ، وعدت إلى ما كنت عليه . الهميان : ما يجعل فيه الدراهم ويوضع في الحقو . الركوة : الحجارة التي يعصر بها العنب . وقال أبو يعقوب السوسي : الإسلام دارٌ عليها أربعة أبواب وأربع قناطر ثم المراتب بعد ذلك ، من لم يدخل الدار ولم يَعبُر القناطر لم يصل إلى المراتب . فأول باب منها أداء الفرائض ، ثم اجتناب المحارم ، ثم الأمن بالرزق ، ثم الصبر على المكروه ، فإذا دخل الدار استقبلته القناطر ، فأول

قنطرة منها الرضاء بالقضاء ، والثاني التوكل على الله ، والثالث الشكر لنعماء الله ، والرابع إخلاص العمل لله ، فمن لم يعبر هذه القناطر لا يصل إلى المراتب إهـ .

⁂

الحكمة الثانية والثمانون

قال رضي الله عنه :

السَّماعُ يَشْفِي السَّقِيْمَ ، وَيُحْيِي الرَّمِيْمَ ، إِذَا وَقَعَ مِنْ أَهْلِهِ مَعَ أَهْلِهِ فِي الْوَقْتِ الْقَابِلِ لِذَلِكَ ، وَالْمَحَلِّ اللَّائِقِ بِهِ ، وَهُوَ فِتْنَةٌ عَلَى الْمُسْتَمِعِ بِالْحَظِّ وَالْهَوَى ، وَعَلَى الْمُسْمِعِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ .

(السماع) الرحماني وهو ما يطابق شرع محمد صلى الله عليه وسلم لا السماع الشيطاني الذي هو حظ المطرودين . قاله السندي رحمه الله تعالى . والسماع الرحماني يكون بالقراءة والأذكار ، وبالأناشيد الداعية للخير المرققة للقلوب (يشفي) القلب (السقيم) بنحوالكبر والعجب (ويحيي) القلب (الرميم) أي الميت المتفتت القاسي بالشهوات والذنوب (إذا وقع) السماع (من أهله) كشيخ الجماعة الذي يقتدى به (مع أهله) الذين يسمعون لله (في الوقت القابل لذلك) بأن يسمعوا في وقت لا يتشوشون فيه عن واجباتهم (والمحل اللائق به) بأن يكونوا في مكان لا يطلع عليهم من لا يكون من أهله (وهو) أي السماع (فتنة على المستمع بالحظ) النفساني (والهوى) الشيطاني (و) فتنة (على المسمِع على هذا الوجه) أي على حظ النفس والهوى . فسماع القرآن والأذكار الشرعية مطلوب ومندوب إليه ،

ما لم يطرأ عليه محظور شرعا ، قال صلى الله عليه وسلم : "زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ" رواه أبوداود عن البراء بن عازب رضي الله عنه . وقال ابن كثير : والمراد من تحسين الصوت بالقرآن تطريبه وتحزينه والتخشع به إهـ . وعن أبي موسى رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَوْ رَأَيْتَنِيْ وَأَنَا أَسْتَمِعُ قِرَاءَتَكَ الْبَارِحَةَ لَقَدْ أُوْتِيْتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيْرِ آلِ دَاوُدَ " رواه مسلم والبيهقي . زاد أبو بكر البزار "قال : قلتُ : أَمَا وَالله لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تَسْتَمِعُ قِرَاءَتِيْ لَحَبَّرْتُهَا لَكَ تَحْبِيْرًا" – أي زيَّنتُها لك تزيينا –. وأما سماع الغناء فيرتبط حكمه بالغناء فحيث كان مباحا فسماعه مباح والعكس بالعكس ، والغناء مباح على ما عليه الأكثرون إلا إذا عرض عليه خمسة عوارض فيحرم : الأول : أن يكون المُسْمِع ممن لا يحل النظر إليه وتخشى الفتنة من سماعه كالأجنبية والأمرد . والثاني : أن يكون بآلة من شعار أهل الشرب أو المخنَّثين كالأوتار والمزامير وطبل الكوبة . والثالث : أن يكون في الشعر شيء من الخَنا والهجْوِ أو ما هو كذب على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم . والرابع : في المستمِع ، وهو أن تكون الشهوة غالبة عليه ، وكان في غُرَّة الشباب ، وكانت هذه الصفة أغلب عليه من غيرها . والخامس : أن يكون الشخص من عوام الخلق واتخذ السماعَ ديدنًا له وقصر عليه أكثر أوقاته ، فإن بعض المباحات يصير بالمداومة صغيرة . كذا أفاده الغزالي في الإحياء . والحاصل أن سماع الأناشيد والأغاني المحركة للأحوال السنية جائز بشروط منها : أن يكون السامع ممن يشاهد الوعيد فيرهب ، أو الوعد فيرغب ، أو الحق فيطرب . وأن يكون خاليا عما يوجب الخروج عن حد الشريعة المرضية كآلات الطرب وما يشوش الفكر من ذكر القدود والخدود ، واختلاط الرجال بالنساء الأجانب ،

ومنها غيرذلك . وحيث كان سماع الإنسان محركا للقلوب ، وباعثا لذكر الآخرة ، ومرغبا في الجنة ، ومرهبا من النار ، ويزداد به طمعه للقرب من الحق ، وتحسن به أحواله ، ولا يجعل ذلك ديدنا وعادة له حتى يترك لأجله الواجبات والأوراد ، وربما يحصل ذلك اتفاقا ، فهذا هوالسماع الذي يشفي السقيم ويحيي الرميم . وأما إذا كان السماع يفسد أحواله السنية ، ويشوش أوراده الفاضلة ، كما وقع في هذا الزمان الذي تكثر فيه الفتن ، فإنه تَصدَّى للسماع أقوام قلَّت معرفتهم بالحق ، وغلب على أحوالهم التساهل في الدين ، يجتمعون للسماع طلبا للشهوات ، لا رغبة في الطاعات ، فهذا السماع مردود عند أهل الصدق وفتنة للمستمع والمُسْمِع معا ، فهما شريكان في اللهو والطرب ، لاسيما إذا كان مع آلات اللهو المحرمة ، واختلاط الرجال مع النساء ، فهذا السماع لا شك محرم بالإجماع . وقيل : إن الجنيد رحمه الله تعالى ترك السماع ، فقيل له : كنتَ تسمع ؟ فقال : مع من ؟ فقيل له : تسمع لنفسك ، فقال : ممن ؟ لأنهم كانوا لايسمعون إلا من أهل مع أهل ، فلما فقد الإخوان ترك . وقال بعض العارفين : لا نُمَكِّنُ أحدا من إخواننا يصغي لشيء من الآلات المطربة ولا لغناء أحد من الشباب والنسوان . وفي الحديث : "فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِيْنِهِ وَعِرْضِهِ " رواه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه . وما نقل عن بعض المتصوفة من سماع العود ونحوه إنما ذلك عند غلبة حال . ويكفي المتديِّنَ في ذلك أن ظاهر كلام أئمة المذاهب الأربعة التحريم غالبا إهـ . وكفى بهم قدوة . وقال الشيخ أحمد النقشبندي في كتاب جامع الأصول : وقيل : السماع فيه نصيب لكل عضو فما يصيب العين يتولد منه البكاء ، وما يصيب اللسان يحدث منه الصياح ، وما

يصيب اليد يحدث منه تمزيق الثياب واللطم ، وما يصيب الرِّجْل يحدث منه الرقص إهـ . وقال الغزالي في الإحياء ما معناه : أن تأثير السماع في القلب محسوس ، ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الإعتدال بعيد عن الروحانية ، زائد في غِلَظِ الطبع وكثافته على الطيور والجِمال . وحكى أبو بكر محمد بن داود الدينوري رضي الله عنه قال : كنت بالبادية فوافيتُ قبيلة من قبائل العرب ، فأضافني رجل منهم وأدخلني خِباءَه ، فرأيت في الخباء عبدا أسود مُقَيَّدًا بقيد ، ورأيت جِمالا قد ماتت بين يدي البيت ، وقد بقي منها جمل وهو ناحل ذابلٌ ، كأنه يُنْزَع روحه ، فقال لي الغلام : أنت ضيف ، ولك حق فتشْفَعَ فيَّ إلى مولاي ، فإنه مُكْرِمٌ لضيفه فلا يَردُّ شفاعتَك في هذا القدر ، فعساه يَحُلُّ القيدَ عني ، قال : فلما أحضروا الطعام امتنعتُ ، وقلت لا آكلُ ما لم أُشَفَّعْ في هذا العبدِ ، فقال : إن هذا العبد قد أفقرني وأهْلَكَ جميعَ مالي ، فقلت : ما فعل ؟ فقال : إن له صوتا طيبا وإني كنت أعيش من ظهور هذه الجِمال ، فحمَّلها أحمالًا ثقالا ، وكان يَحْدُو بها حتى قَطَعتْ مسيرة ثلاثة أيام في ليلة واحدة ، من طيب نَغْمته ، فلما حُطَّت أحمالُها ماتت كلها إلا هذا الجملَ الواحد ، ولكن أنت ضيفي فلكرامتك قد وهبتُهُ لك ، قال : فأحببتُ أن أسمع صوته فلما أصبحنا أمرْتُهُ أن يحدو على جملٍ يستقي الماء من بئر هناك ، فلما رفع صوتَه هام ذلك الجملُ وقطع حِبالَه ، ووقعتُ أنا على وجهي ، فلم أظن أني سمعت قط صوتا أطيب منه إهـ . وعن الجنيد أنه دخل يوما على السَّرِيِّ فوجد عنده رجلا مغشيا عليه ، فقال : ما لهذا ؟ فقيل له : سمع آية من كتاب الله ، فقال الجنيد : تقرأ عليه ثانيا ، فقرئ فأفاق ، فقال السري للجنيد : من أين لك هذا ؟ قال : إن قميص يوسف ذهب بسببه بصر يعقوب لما جاؤا عليه بدم

كذب ، ثم عاد بسببه لما جاء البشير فأَعجَب السريَّ قولُه . ويحكى أن الشبلي سمع قائلا يقول : الخيار عشرة بدانق ، فصاح وغشي عليه ، فلما أفاق قيل له في ذلك ، فقال : إذا كان الخيار عشرة بدانق فكيف أحوال الأشرار ؟ .

✦✦✦✦✦✦✦

الحكمة الثالثة والثمانون

قال رضي الله عنه :

لَا بُدَّ لِلْإِنْسَانِ فِي الْوُصُوْلِ إِلَى سَعَادَاتِ الْآخِرَةِ مِنْ أَمْرَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : الْهِدَايَةُ وَالتَّوْفِيْقُ مِنَ اللهِ . وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْغَيْثِ الَّذِيْ يُصِيْبُ الْأَرْضَ .

وَالثَّانِي : السَّعْيُ إِلَى اللهِ عَلَى مَنْهَجِ الْإِسْتِقَامَةِ ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْحَرْثِ لِلْأَرْضِ ، وَتَعَهُّدِهَا بِمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْبَذْرِ وَالتَّرْبِيَةِ وَالْحِفْظِ ، وَتَنْحِيَةِ الْمُؤْذِيْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ . فَحَرْثُ الْأَرْضِ دُوْنَ أَنْ يُصِيْبَهَا السَّيْلُ عَنَاءٌ وَتَعَبٌ بِلَا حَاصِلٍ . وَإِصَابَةُ السَّيْلِ لَهَا مَعَ تَرْكِ الْحَرْثِ إِضَاعَةٌ . فَالتَّوْفِيْقُ مِنَ اللهِ كَالْغَيْثِ ، لَيْسَ لِلْعَبْدِ فِيْهِ مَدْخَلٌ ، وَذَلِكَ هُوَ الْحَقِيْقَةُ . وَالسَّعْيُ وَالْإِجْتِهَادُ الَّذِيْ هُوَ بِمَنْزِلَةِ حَرْثِ الْأَرْضِ وَتَعَهُّدِهَا إِلَى الْعَبْدِ ، وَهُوَ كَسْبُهُ ، وَعَنْهُ يُسْأَلُ ، وَعَلَيْهِ يُجْزَى ، وَذَلِكَ هُوَ الشَّرِيْعَةُ .

(لابد للإنسان في الوصول إلى سعادات الآخرة) من دخول الجنة والنجاة من النار (من أمرين : أحدهما : الهداية) لطريق الخير (والتوفيق من الله) لفعل الطاعة

واجتناب المعصية ، والهداية هي سلوك طريق يوصل إلى المطلوب ، والتوفيق هو خلق قدرة الطاعة في الإنسان (وهو) أي التوفيق (بمنزلة الغيث) أي المطر النافع (الذي يصيب الأرض) فيحييها بعد موتها ، فكذلك أمطار التوفيق من الله تعالى تحيا بها القلوب الميتة ، فتحيا بمعرفة الله تعالى وبشريعته ، وتتهيأ الجوارح لعبادته تعالى وتنشط لها . قال الشاعر :

وَإِذَا حَلَّتِ الْهِدَايَةُ قَلْبـًا * نَشِطَتْ لِلْعِبَادَةِ الْأَعْضَاءُ

(والثاني) أي الأمر الثاني (السعي إلى الله) بائتمار ما أمر وانزجار ما زجر (على منهج الإستقامة) من غير تفريط ولا إفراط مع المداومة . والإستقامة هي اتباع الحق ، والقيام بالعدل ، وملازمة المنهج المستقيم ، ولا يطيقها إلا من استضاء قلبه بالأنوار القدسية ، وتخلص من كدورات البشرية ، وأيده الله بتأييد من عنده ، وقليل ما هم ، وهؤلاء أولياء الله تعالى لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة . قال الله تعالى : (إِنَّ الَّذِيْنَ قَالُوْا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوْا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوْا وَلَا تَحْزَنُوْا وَأَبْشِرُوْا بِالْجَنَّةِ الَّتِيْ كُنْتُمْ تُوْعَدُوْنَ ، نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيْهَا مَا تَشْتَهِيْ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيْهَا مَا تَدَّعُوْنَ ، نُزُلًا مِنْ غَفُوْرٍ رَحِيْمٍ) {فصلت : الآية ٣٠-٣٢} . أن لاتخافوا : أي من الموت وما بعده . ولا تحزنوا : أي على ما خلَّفتم من أهل وولد فنحن نخلفكم فيه . تدعون : أي تطلبون . نزلا : أي رزقا مهيئا . وحكي عن بعض المشايخ أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال له : يارسول الله روي عنك أنك قلتَ شيبَتْني سورة هود ، فما الذي شَيَّبَك فيها ، قصص الأنبياء وهلاك الأمم ؟ قال : لا ، ولكن قوله

تعالى : (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ) {هود : الآية ١١٢} . (وهو) أي السعي إلى الله على منهج الإستقامة (بمنزلة الحرث للأرض ، وتعهدِها بما تحتاج إليه من البذر والتربية) بالسقي ووضع نحو السماد (والحفظ) عما يضر (وتنحيةِ المؤذي) من آفات الزرع (إلى غير ذلك) مما يحتاج إليه لنماء الزرع (فحرث الأرض دون أن يصيبها السيل) من نحو الغيث (عناء) أي مشقة (وتعب بلا حاصل) لأن الأرض بدون الماءلا تنبت شيئا (وإصابة السيل لها مع ترك الحرث إضاعة) لأنها لاتنبت بدون حرث البذر فيها (فالتوفيق) الذي هو خلق قدرة الطاعة في العبد ، وهو الهداية (من الله كالغيث) النازل من السماء (ليس للعبد فيه) أي في التوفيق (مدخَلٌ) بل هو محض فضل من الله تعالى (وذلك هو الحقيقة) لأن الأمور في الحقيقة بيد الله تعالى يتصرف فيها بما يشاء ، فهو تعالى يعطي الهداية بمعنى التوفيق لمن يشاء ، وينزعها ممن يشاء ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . قال الله تعالى : (إِنَّكَ لَا تَهْدِيْ مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِيْ مَنْ يَشَاءُ) {القصص : الآية ٥٦} . ولذا أمرنا الله سبحانه وتعالى بطلب الهداية في قوله تعالى : (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ) {الفاتحة : الآية ٦} . سبع عشرة مرة في اليوم والليلة على الأقل في ضمن الفاتحة التي تجب قرائتها في كل ركعة من الصلوات الخمس . وأما الهداية المثبتة للنبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : {وَإِنَّكَ لَتَهْدِيْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ} {الشورى : الآية ٥٢} . فهي الهداية بمعنى الدلالة إلى الحق والإرشاد إليه ، فالهداية بمعنى التوفيق هي الحقيقة ، والهداية بمعنى الدلالة إلى ما شرعه الله تعالى هي الشريعة ، وقد فعل ذلك صلى الله عليه وسلم فبيَّن المحجةَ البيضاء ، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك (والسعيُ والإجتهاد) في فعل المأمورات واجتناب

المنهيات (الذي هو بمنزلة حرث الأرض وتعهدِها) موكول (إلى العبد) وله في ذلك اختيار ، وإن كان الله هو الذي خلق ذلك الإختيار (وهو كسبه) وفعله ، إن بذل جهده فيه واجتهد في تحصيله ، فاز بالربح العظيم ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، وإلا خسر خسرانا مبينا . قال السندي رحمه الله تعالى : وحَلُّ هذا ان الله تعالى جعل في القلب قوة إرادة الخير ، وقوة عدم إرادة السوء ، وجعل في أعضائه قوة فعل الخيرات والإنصراف عن السيئات ، وكلفه ما يطيقه ، فمن استعمل قوته بهداية الله وتوفيقه فيما يرضاه فهو الفائز ، ومن عجز عن ذلك فهو الملوم . إهـ بتصرف . (وعنه) أي عن كسبه (يسأل) الإنسان يوم القيامة (وعليه يجزى) جزاء وفاقا (وذلك هو الشريعة) فالهداية التي بيد الله تعالى يؤتيها لمن يشاء ويمنعها ممن يشاء هي الحقيقة ، واختيار العبد بفعل الأوامر واجتناب النواهي هي الشريعة . ولابد للوصول إلى السعادة الأخروية إلا بهما ، فالشريعة أوامر الله ونواهيه ، والحقيقة تصرُّفُه فيما يقضيه . قال الآلوسي : قال الشعراني قدس سره فى الأجوبة المرضية عن الفقهاء والصوفية : سمعت سيدي عليا المرصفي يقول : لايكمل الرجل فى مقام المعرفة والعلم حتى يرى الحقيقة مؤيدة للشريعة ، وأن التصوف ليس بأمر زائد على السنة المحمدية ، وإنما هو عينها . وسمعت سيدي عليا الخواص يقول مرارا : من ظن أن الحقيقة تخالف الشريعة أو عكسه فقد جهل ، لأنه ليس عند المحققين شريعة تخالف حقيقة أبدا ، حتى قالوا : "شريعة بلا حقيقة عاطلة ، وحقيقة بلا شريعة باطلة" ، خلاف ماعليه القاصرون من الفقهاء والفقراء إهـ . وفي حاشية البجيرمي على الإقناع ما نصه : واعلم أن لهم شريعة وهي : أن تعبده تعالى ، فعبادة الله تعالى شريعة عندهم ، لأنها المقصودة

منها ، وإن كانت الشريعة عند الفقهاء ما شرعه الله تعالى من الأحكام . وطريقة وهي : أن تقصده بالعلم والعمل . وحقيقة وهي نتيجتهما ، وهي أن تشهد بنور أودعه الله في سُوَيْداء القلب أي وسطه ، أن كل باطن له ظاهر وعكسه كخرق الخضر للسفينة ، وإن كان منكرًا ظاهرًا فهو جائز في الباطن ، لأنه سبب لنجاة السفينة من المَلِك ، والأولى أن تُعرَّف الحقيقة بعلم بواطن الأمور ، كعلم الخضر بأن ما فعله مع موسى عليهما السلام من خرق السفينة وغيرها فيه مصلحة ، وإن كان ظاهره مفسدة في البعض ، والشريعة ظاهر الحقيقة ، والحقيقة باطنها ، وهما متلازمان معنًى كما سبق . ومُثِّلت الثلاثة بالجوزة ، فالشريعة كالقشر الظاهر ، والطريقة كاللب الخفي ، والحقيقة كالدهن الذي في باطن اللب ، ولا يتوصل إلى اللب إلا بخرق القشر ، ولا إلى الدهن إلا بدق اللب اهـ .



الحكمة الرابعة والثمانون

قال رضي الله عنه :

الدُّنْيَا بِمَنْزِلَةِ الْبَادِيَةِ الْمَخُوْفَةِ الْكَثِيْرَةِ السُّرَّاقِ وَالْغُصَّابِ . وَالْآخِرَةُ بِمَنْزِلَةِ الْمَدِيْنَةِ الْخَصِيْبَةِ الْآمِنَةِ ، وَالْإِنْسَانُ خَرَجَ إِلَى الدُّنْيَا لِيَأْخُذَ مِمَّا فِيْهَا ، فَيُقَدِّمَهُ لِلْآخِرَةِ ، فَالْعَاقِلُ كُلَّمَا حَصَلَ فِيْ يَدِهِ شَيْءٌ مِنْ أَمْتِعَتِهَا قَدَّمَهُ أَمَامَهُ ، لِيُحْفَظَ وَيَأْمَنَ عَلَيْهِ ، وَيَنْتَفِعَ بِهِ إِذَا وَصَلَ إِلَى مَحَلِّ اسْتِقْرَارِهِ وَهِيَ الْآخِرَةُ . وَالْجَاهِلُ يَحْتَبِسُ مَا مَعَهُ عِنْدَهُ بُخْلًا بِهِ ، فَإِمَّا أَنْ يَأْخُذَهُ الْغُصَّابُ مِنْ يَدِهِ ،

وَهِيَ أَمْثَالُ آفَاتِ الدُّنْيَا . وَإِمَّا أَنْ يُسَافِرَ هُوَ مِنَ الْبَادِيَةِ الَّتِيْ لَا قَرَارَ لَهُ بِهَا عَلَى الْقَهْرِ مِنْهُ ، وَيُكَلَّفَ تَرْكَ مَا مَعَهُ ، فَيَأْخُذَهُ مَنْ يَبْقَى فِي الْمَحَلِّ الَّذِي انْتَقَلَ عَنْهُ .

هَذَا مِثَالٌ عَجِيْبٌ ، فَلْيَفْهَمْهُ الْعَاقِلُ اللَّبِيْبُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُوْنَ }

(الدنيا) الفانية التي هي مزرعة للآخرة (بمنزلة البادية) اليابسة التي لم تكن فيها مدينة ولا قرى ، وهي خلاف الحاضرة (المخوفة) التي يخاف فيها (الكثيرة السُّرّاق) الذين يأخذون الأموال خفية (والغُصّاب) الذين يأخذونها جهرا وقهرا (والآخرة بمنزلة المدينة الخصيبة) الكثيرة العشب والنبات (الآمنة) من السراق والغصاب (والإنسان خرج) من العدم (إلى الدنيا) المخوفة (ليأخذ مما فيها) من الحسنات (فيقدمه للآخرة) الآمنة (فالعاقل) الذي يستطيع بعقله أن يزن كل الأمور ويضعها في مواضعها (كلما حصل في يده شيء من أمتعتها) أي الدنيا (قدَّمه أمامه ، ليُحفظ) أي الشيء (ويأمن عليه) أي على ذلك الشيء (وينتفع به إذا وصل) غدا (إلى محل استقراره) وخلوده (وهي الآخرة) الباقية (والجاهل) الذي لا يستطيع بجهله أن يضع الأمور في مواضعها (يحتبس ما معه عنده بُخلًا به) لشدة حرصه (فإما أن يأخذه الغصاب) قهرا أو السراق خفية (من يده) فلا يبقى معه شيء (وهي أمثال آفات الدنيا) التي يفوت بها ما يمكن أن يتوصل به إلى خير الآخرة (وإما أن يسافر هو من البادية التي لا قرار له بها على القهر منه) بما لا مفر ولا محيد عنه (ويكلَّفَ تركَ ما معه) مما جمعه في البادية (فيأخذه من يبقى في المحل

الذي انتقل عنه) وهي البادية المخوفة . وهذا مثال الموت الذي يأخذ كل إنسان قهرا ، فيترك به الجاهل ما جمعه ولا ينتفع به بل يأخذه غيره . وهل يعد من العقلاء من يضع أمواله وأمتعته في محل لا يأمن عليها فيه من السرقة أو الغصب ؟ أو يعرضها للخسارة أوالتلف ؟ أو يضعها في محل يخاف كل وقت من مفارقته بغتة وفجأة ؟ فالعاقل لايضعها إلا في محل يكون فيه الأمن والقرار ، ويمكن فيه الإنتفاع والإستثمار بها ، كذلك ينبغي له أن يستعد للآخرة الآمنة الباقية بما معه من الحسنات المجموعة في هذه الدنيا المخوفة الفانية ، ولا يغتر بهذه الدنيا فإنها لا تدوم له ولا يدوم لها . والإنسان الذي رزقه الله الأموال لا يسمى عاقلا إلا إذا وضعها في محل يكون فيه البقاء والأمن والإستثمار ، ويكون فيه سعادته في دار القرار ، وذلك بإنفاقها في سبيل الله ، وعدم البخل بها ، لأن المال الذي تصدق به وإن كان بالإنفاق ناقصا حسا فإنه باق معنى ببقاء ثوابه في الآخرة . قال صلى الله عليه وسلم : "مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ" رواه الترمذي عن كبشة الأنماري رضي الله عنه . أي ما نقص ثوابه بل يضاعف يوم القيامة أضعافًا كثيرة ، معنى الحديث : أن ابن آدم لا يضيع بالصدقة من أمواله شيء ، وما لم ينتفع به في دنياه انتفع به في عقباه ، فإن الإنسان إذا كان له داران ، فحول ماله من إحداهما إلى الأخرى لا يقال في ذلك المحوِّل إنه نقص من ماله . وكان بعض السلف إذا رأى السائل يقول : مرحبًا بمن جاء يُحَوِّلُ مالَ دنيانا الفانية إلى أخرانا الباقية . وقال تعالى : (مَنْ ذَا الَّذِيْ يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيْرَةً) {البقرة : الآية ٢٤٥} . عن أنس بن مالك رضي الله عنه موقوفا : "بَاكِرُوْا بِالصَّدَقَةِ فَإِنَّ الْبَلَاءَ لَا يَتَخَطَّى الصَّدَقَةَ" أخرجه أبو الشيخ . باكروا بالصدقة : أي سارعوا بها .

وفي عمدة القاري : عن محمد بن علي بن الحسين أخبرني أبي عن جدي عن علي أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : (يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ) {الرعد : الآية ٣٩} ، فقال : هي الصدقة على وجهها ، وبر الوالدين ، واصطناع المعروف ، وصلة الرحم ، تُحوِّلُ الشقاء سعادة ، وتزيد في العمر ، وتقي مصارع السوء إهـ . والصدقة على الأقارب يحصل بها أجران أجر الصدقة وأجر الصلة .

فعن زينب امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما قالت ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تَصَدَّقْنَ يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ ، قَالَتْ : فَرَجَعْتُ إِلَى عَبْدِ اللهِ فَقُلْتُ : إِنَّكَ رَجُلٌ خَفِيْفُ ذَاتِ الْيَدِ – أي قليلُ المال – وَإِنَّ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَمَرَنَا بِالصَّدَقَةِ فَأْتِهِ فَاسْأَلْهُ ، فَإِنْ كَانَ يُجْزِيْ عَنِّي وَإِلَّا صَرَفْتُهَا إِلَى غَيْرِكُمْ قَالَتْ : قَالَ لِيْ عَبْدُ اللهِ : بَلِ ائْتِيْهِ أَنْتِ ، قَالَتْ : فَانْطَلَقْتُ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِبَابِ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَاجَتِيْ حَاجَتُهَا ، قَالَتْ : وَكَانَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُلْقِيَتْ عَلَيْهِ الْمَهَابَةُ ، قَالَتْ : فَخَرَجَ عَلَيْنَا بِلَالٌ فَقُلْنَا لَهُ : ائْتِ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبِرْهُ أَنَّ امْرَأَتَيْنِ بِالْبَابِ تَسْأَلَانِكَ أَتُجْزِي الصَّدَقَةُ عَنْهُمَا عَلَى أَزْوَاجِهِمَا وَعَلَى أَيْتَامٍ فِيْ حُجُوْرِهِمَا ؟ وَلَا تُخْبِرْهُ مَنْ نَحْنُ ، قَالَتْ : فَدَخَلَ بِلَالٌ عَلَى رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَهُ فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنْ هُمَا ؟ فَقَالَ : امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ وَزَيْنَبُ ، فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَيُّ الزَّيَانِبِ ؟ قَالَ : امْرَأَةُ عَبْدِ اللهِ ، فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَهُمَا أَجْرَانِ أَجْرُ الْقَرَابَةِ وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ" أخرجه البخاري ومسلم ، واللفظ لمسلم . وحكي أنه خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى السُّوْقِ بِثَمَانِيَةِ دَرَاهِمَ يَشْتَرِيْ قَمِيْصًا ، فَرَأَى جَارِيَةً تَبْكِيْ ، فَسَأَلَهَا فَقَالَتْ : خَرَجْتُ أَشْتَرِيْ حَاجَةً لِأَهْلِيْ

بِدِرْهَمَيْنِ فَذَهَبَا مِنِّيْ ، فَدَفَعَهُمَا لَهَا وَمَضَى إِلَى السُّوْقِ ، فَاشْتَرَى قَمِيْصًا بِأَرْبَعَةِ دَرَاهِمَ ، فَلَمَّا رَجَعَ رَأَى شَيْخًا يَقُوْلُ : مَنْ كَسَانِيْ ثَوْبًا كَسَاهُ اللهُ مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ الْقَمِيْصَ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى السُّوْقِ وَاشْتَرَى قَمِيْصًا بِدِرْهَمَيْنِ ، ثُمَّ رَجَعَ فَوَجَدَ الْجَارِيَةَ فَسَأَلَهَا فَقَالَتْ : أَخَافُ الْعُقُوْبَةَ مِنْ أَهْلِيْ لِطُوْلِ غَيْبَتِيْ ، فَقَالَ : الْحَقِيْ بِأَهْلِكِ ، فَتَبِعَهَا حَتَّى وَصَلَ إِلَى دَارِ أَهْلِهَا ، فَطَرَقَ بَابَهُمْ وَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ! فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ ، فَقَالَ ثَانِيًا وَثَالِثًا فَأَجَابُوْهُ . فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لِمَ لَا أَجَبْتُمُوْنِيْ مِنْ أَوَّلِ مَرَّةٍ ؟ فَقَالُوْا : لِنَتَبَرَّكَ بِصَوْتِكَ ، فَسَأَلَهُمُ الْعَفْوَ عَنِ الْجَارِيَةِ ، فَقَالُوْا : هِيَ حُرَّةٌ لِأَجْلِكَ يَا رَسُوْلَ اللهِ ، فَرَجَعَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ يَقُوْلُ : مَا رَأَيْتُ ثَمَانِيَةً أَعْظَمَ مِنْ هَذِهِ ، أَمَّنَّا جَارِيَةً بِهَا ، وَأَعْتَقْنَا بِهَا جَارِيَةً ، وَكَسَوْنَا بِهَا عُرْيَانًا . وحكي أيضا أن شابا صَحِبَ داودَ عليه السلام ، فأخبرَ ملَكُ الموتِ بأنه يموتُ بعد ثلاثة أيامٍ ، فشَقَّ ذلك على داودَ ، فلما مضى عليه ثلاثةُ أيام رآه سالماً ، ثم مضى عليه شهرٌ ، فتعجب من ذلك ، فجاءه ملكُ الموتِ وقال : لما أردتُ قبضَ روحه بعد ثلاثة أيام تجلَّى اللهُ عليَّ وقال : يا ملكَ الموتِ إنه قبل فراغِ عُمرِه بيومٍ خرَجَ فوَجدَ مسكينًا ، فأعطاه عشرين درهمًا ، فقال له : باركَ اللهُ في عمرِك ، فاستجبتُ دعوتَه ، وأعطيتُه بكل درهمٍ عامًا . (هذا مثال عجيب ، فليفهمه العاقل اللبيب) أي الحاذق (قَالَ اللهُ تَعَالَى : وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا) . أي نجعلها (لِلنَّاسِ) تقريبا لأفهامهم (وَمَا يَعْقِلُهَا) أي لا يعقل صحتها وفائدتها (إِلَّا الْعَالِمُوْنَ) بالله وبآياته وشريعته {العنكبوت : الآية ٤٣} .



الحكمة الخامسة والثمانون

قال رضي الله عنه :

الخَوْفُ لَايَنْتَفِيْ وَلَا يَذْهَبُ عَنِ الْمُؤْمِنِ ، وَإِنْ كَانَ قَوِيَّ الإِيْمَانِ صَالِحَ الْعَمَلِ . بَلْ كُلَّمَا كَانَ الْإِيْمَانُ أَكْمَلَ وَالْعَمَلُ أَصْلَحَ ، كَانَ الْخَوْفُ أَعْظَمَ .

مِثَالُ ذَلِكَ :

الْإِنْسَانُ يَكُوْنُ مَعَهُ الذَّهَبُ ، وَالْفِضَّةُ الْكَثِيْرَةُ ، وَالْأَقْمِشَةُ الْمَلِيْحَةُ ، وَهُوَ مُسَافِرٌ فِيْ خَبْتٍ مَخُوْفٍ ، أَوْ بَحْرٍ مُغْرِقٍ ، فَالْمَالُ الَّذِيْ يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الْغِنَى وَالشَّرَفِ مَعَهُ ، وَلَكِنَّهُ لَايَنْتَفِعُ بِهِ ، وَيَشْتَدُّ خَوْفُهُ عَلَى فَوْتِهِ ، وَلَايَخَافُ مَنْ لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ .

ثُمَّ إِنَّهُ لَا يَتِمُّ سُرُوْرُ صَاحِبِ هَذَا الْمَالِ بِمَالِهِ . وَيَنْتَفِيْ عَنْهُ الْخَوْفُ حَتَّى يَصِلَ الْبَنْدَرَ ، وَيَتَيَقَّنَ السَّلَامَةَ .

فَالْآخِرَةُ هِيَ بَنْدَرُ الْأَمْنِ ، وَالدُّنْيَا هِيَ الْبَحْرُ الْمُغْرِقُ ، وَالْخَبْتُ الْمَخُوْفُ ، وَالْمُسَافِرُ هُوَ الْإِنْسَانُ ، وَالنُّقُوْدُ وَالْأَقْمِشَةُ الَّتِيْ تَكُوْنُ مَعَهُ هِيَ الْمَعَارِفُ الْإِيْمَانِيَّةُ وَالْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ ، وَالْأُمُوْرُ الَّتِيْ يُخْشَى مِنْهَا فِيْ هَذَا السَّفَرِ عَلَى هَذِهِ الْأَمْتِعَةِ الشَّرِيْفَةِ هِيَ الشُّكُوْكُ وَالْآفَاتُ الَّتِيْ تَعْرِضُ لِلْإِيْمَانِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَتُفْسِدُهَا . نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ .

(الخوف) من سوء الخاتمة، والخوف من الله تعالى وغضبه، قال الشيخ زكريا

الأنصاري : الخوف هو فزع القلب من مكروه يناله ، أو من محبوب يفوته ، وسببه تفكر العبد في المخلوقات ، كتفكره في تقصيره وإهماله وقلة مراقبته لما يرد عليه ، وتفكره فيما ذكره الله عز وجل في كتابه من إهلاك من خالفه وما أعدّ له في الآخرة إهـ . (لاينتفي ولا يذهب عن المؤمن) الذي آمن بالله واليوم الآخر وعلم أن الخواتم بالسوابق (وإن كان قوي الإيمان) ثابت العقيدة (صالح العمل) وكثيره (بل كلما كان الإيمان أكمل والعمل أصلح ، كان الخوف أعظم) والخشية أشد ، كما كان لعلماء الله تعالى المتفكرين فيما أعد الله لِمَنْ عصاه من العذاب ومناقشة الحساب . قال تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) {فاطر : الآية ٢٨} .

(مثال ذلك : الإنسان يكون معه الذهب ، والفضة الكثيرة ، والأقمشة المليحة) أي الجميلة (وهو مسافر في خبت) أي مكان منخفض (مخوف) أي يخاف منه من نحو السراق وقطاع الطريق لمن يسلكه (أو بحر مُغرِق) يخاف منه الغرق لمن يعبره ، لتلاطم أمواجه أوعمقه (فالمال الذي يتوصل به إلى الغنى والشرف معه) ولا يفارقه في أسفاره (ولكنه) مع ذلك (لاينتفع به) لأنه مشغول بحراسة ماله دائما ، فكيف يستطيع أن ينتفع به ؟ (ويشتد خوفه على فوته) فلا يطمئن قلبه (ولا يخاف من ليس معه شيء) إذِ السُرَّاق إنما يقصدون أرباب الأموال (ثم إنه لا يتم سرور صاحب هذا المال بماله) الذي يصحبه (و) لا (ينتفي عنه الخوف) على ماله (حتى يصل البندر) أي المرسى والميناء (ويتيقن السلامة) على ماله (فالآخرة هي بندر الأمن) والسلامة (والدنيا هي البحر المغرق ، والخبت المخوف) الذي إن كان مستمر الحذر فيه من المهالك سلم وإلا هلك (والمسافر هو الإنسان) الذي يغدو

ويذهب ولا يدري ما يلقاه في طريقه (والنقود والأقمشة التي تكون معه هي المعارف الإيمانية والأعمال الصالحة) التي يجب صونها عما يفسدها (والأمور التي يخشى منها في هذا السفر على هذه الأمتعة الشريفة هي الشكوك) المفسدة (والآفات) المهلكة (التي تعرض للإيمان والأعمال الصالحة فتفسدها . نسأل الله العافية) من الآفات التي تفسد الإيمان والأعمال الصالحة آمين يامجيب السائلين .

فينبغي للمؤمن ولوكان إيمانه قويا وأعماله الصالحة كثيرة أن يخاف الله تعالى وعقابه ويخشى من سوء الخاتمة ، ولا يزال على ذلك حتى يلقى الله تعالى وهو على السلامة ، يرضاه ربه ، ويرضيه ، فإن الأمن من مكر الله خسران عظيم . قال تعالى (فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُوْنَ) {الأعراف : الآية ٩٩} . وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "بَادِرُوْا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِيْ كَافِرًا وَيُمْسِيْ مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا ، يَبِيْعُ أَحَدُهُمْ دِيْنَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا" ، رواه مسلم . قال النووي : معنى الحديث الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها ، والإشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة كتراكم ظلام الليل المظلم .

وفي رواية ابن ماجه عن أبي امامة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سَتَكُوْنُ فِتَنٌ يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيْهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِيْ كَافِرًا إِلَّا مَنْ أَحْيَاهُ اللهُ بِالْعِلْمِ" . قال الإمام الحسن البصري رحمه الله : ما خاف النفاقَ على نفسه إلا مؤمنٌ ، ولا أمِنَه على نفسه إلا منافقٌ . وروي أن عمرَ بن الخَطاب رضي الله عنه سَأَلَ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ صَاحِبَ سِرِّ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا حُذَيْفَةُ ، أَسْأَلُكَ بِاللهِ هَلْ عَدَّنِيْ لَكَ رَسُوْلُ اللهِ مِنَ الْمُنَافِقِيْنَ أَمْ لَا ؟ قَالَ : لَا ، وَلَا

أُزَكِّيْ أَحَدًا بَعْدَكَ . فهذا أمير المؤمنين ثاني الخلفاء الراشدين يخاف أن يكون في أعماله نفاق ويخشى أن يكون من المنافقين الذين قال الله فيهم : ﴿إِنَّ ٱلْمُنَافِقِيْنَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ {النساء : الآية ١٤٥} . وقال ابن أبي مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبي كلهم يخاف النفاق على نفسه . قال عبد العزيز الديريني في طهارة القلوب : إن الخائفين على مراتب : فخوف العارفين خوف إجلال وتعظيم لما غلب على قلوبهم من ذكر جلال الله تعالى وعظمته من غير فكرة في شيء من أفعاله ، وهذا خوف الأنبياء والملائكة وخواص الأولياء . وأما خوف أكثر المؤمنين فيذكرون الوعد والوعيد وأهوال القيامة مع فكرتهم في الجنايات والتفريط واتهامهم لنفوسهم أن يكون فيها من الآفات الباطنة ما يربو على المعاصي الظاهرة كالعجب والرياء والحسد والكبر ونحوها . وأشد ما يهيج خوف هؤلاء ويزعج قلوبهم خوف السابقة والخاتمة ، إذ العبد لا يدري هل سبق له في علم الله تعالى السعادة أو الشقاوة ؟ والخاتمة تجري على ما جرت به السابقة ، فمن سبق له في علم الله تعالى السعادة ختم له بخاتمة الإيمان ، ومن سبق له في علم الله تعالى الشقاوة ختم له بخاتمة الخذلان . قال الله عز وجل : ﴿وَاعْلَمُوْا أَنَّ اللهَ يَحُوْلُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ {الأنفال : الآية ٢٤} . أي يملك الله عليه قلبه فيصرفه كيف شاء . ذُكِرِ أن فتى من أصحاب الفضيل بن عياض مات فرآه فضيل في المنام ، فسأله عن حاله ، فأخبره أنه مُكِربِهِ ، ومات يهوديا ، فقال له : لِمَ ذلك ؟ قال : لأني كنت أظن أني أفضل أصحابك ، فكنت أتكبر عليهم ، وكان بي علة باطنة ، فوُصِف لي شربُ الخمر ، فكنت أشرب الخمر في كل سنة قدَحًا . وقال سفيان الثوري : رأيت رجلا متعلقا بأستار الكعبة ، وهو يقول : سَلِّمْ سَلِّمْ ، فقلت له :

يا أخي ما قَضِيَّتُك ؟ قال : كنا أربعة إخوة مسلمين ، فتوفي منا ثلاثة ، كل واحد يُفتَن عند موته ، ولم يبق إلا أنا ، فما أدري بم يُخْتَم لي ؟ . وتاب رجلٌ نبَّاشٌ ، فسئل عن سبب توبته ، قال : رأيت سبعين رجلا في قبورهم قد حُوِّلُوا عن القبلة . إهـ . نسأل الله العافية والوفاة على الإسلام آمين يا أرحم الراحمين .

✦ ✦ ✦ ✦ ✦ ✦ ✦ ✦ ✦

الحكمة السادسة والثمانون

قال رضي الله عنه :

تَذْهَبُ الدُّنْيَا شَيْئًا فَشَيْئًا ، حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهَا شَيْءٌ .

(تذهب الدنيا) وتفنى (شيئا فشيئا) أي لا دفعة واحدة (حتى لا يبقى منها شيء) وكل ما فيها من أرض وسماء وشمس وقمر سيفنى ، والعوالم كلها ستنتهي ، ولكون ذهابها تدريجيا فلا يحس به ، كما أن الإنسان يولد فيكبر شيئا فشيئا ولا يحس به ، حتى إذا أخذ يضعف بدنه ويرق عظمه ويشيب شعره ، فحينئذ يشعر بأنه كبير ومسن ، ولاتطول مدته في الدنيا بل عن قريب سيلقى ربه ، وربما اخترمته منيته وهو شاب يتمنى أن يعيش مدة مديدة ، فلا يستعد لآخرته بما يكون فيه سعادته الأبدية ، فيندم حين لا تنفعه الندامة ، ولذا لا بد للعاقل أن يختار الآخرة الباقية ، ولا يحب الدنيا الذاهبة الفانية ، فيتنحى ويعرض عنها إلا فيما لا بد منه لقوام عيشه ، وقد كتب علي بن أبي طالب إلى سلمان الفارسي رضي الله عنهما : "إِنَّ مَثَلَ الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْحَيَّةِ ، لَيِّنٌ مَسُّهَا ، قَاتِلٌ سُمُّهَا ، فَأَعْرِضْ عَنْهَا ، وَعَمَّا يُعْجِبُكَ مِنْها ، لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكَ مِنْهَا ، وَدَعْ عَنْكَ هُمُوْمَهَا لِمَا تَيَقَّنْتَ مِنْ فِرَاقِهَا ، وَكُنْ أَسَرَّ مَا تَكُوْنُ

مِنْهَا ، احْذَرْ مَا تَكُوْنُ مِنْهَا ، فَإِنَّ صَاحِبَهَا كُلَّمَا اطْمَأَنَّ فِيْهَا إِلَى سُرُوْرٍ أَشْخَصَ مِنْهَا إِلَى مَكْرُوْهٍ ". وذكر أيضًا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُوْلُ : "مَا سَكَنَ حُبُّ الدُّنْيَا قَلْبَ عَبْدٍ إِلَّا الْتَاطَ مِنْهَا بِثَلَاثٍ : شُغْلٍ لَا يَنْفَدُ عَنَاؤُهُ ، وَفَقْرٍ لَا يُدْرِكُ غِنَاهُ ، وَأَمَلٍ لَا يُنَالُ مُنْتَهَاهُ ، إِنَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ طَالِبَتَانِ وَمَطْلُوْبَتَانِ ، فَطَالِبُ الْآخِرَةِ تَطْلُبُهُ الدُّنْيَا ، حَتَّى يَسْتَكْمِلَ رِزْقَهُ ، وَطَالِبُ الدُّنْيَا تَطْلُبُهُ الْآخِرَةُ حَتَّى يَأْخُذَ الْمَوْتُ بِعُنُقِهِ ، أَلَا وَإِنَّ السَّعِيْدَ مَنِ اخْتَارَ بَاقِيَةً يَدُوْمُ نَعِيْمُهَا ، عَلَى فَانِيَةٍ لَا يَنْفَكُّ عَذَابُهَا ، وَقَدَّمَ لِمَا يُقْدِمُ عَلَيْهِ مِمَّا هُوَ الْآنَ فِي يَدِهِ ، قَبْلَ أَنْ يُخَلِّفَهُ لِمَنْ يَسْعَدُ بِإِنْفَاقِهِ ، وَقَدْ شَقِيَ هُوَ بِجَمْعِهِ وَاحْتِكَارِهِ " . التاط منها : أي التصق من الدنيا أي من حبها بثلاث خصال . قال ابن عجيبة : وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "حُلُّوْا أَنْفُسَكُمْ بِالطَّاعَةِ ، وَأَلْبِسُوْهَا قِنَاعَ الْمَخَافَةِ ، وَاجْعَلُوْا آخِرَتَكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، وَسَعْيَكُمْ لِمُسْتَقَرِّكُمْ ، وَاعْلَمُوْا أَنَّكُمْ عَنْ قَلِيْلٍ رَاحِلُوْنَ ، وَإِلَى اللهِ سَائِرُوْنَ ، وَلَا يُغْنِي عَنْكُمْ هُنَالِكَ إِلَّا صَالِحُ عَمَلٍ قَدَّمْتُمُوْهُ ، أَوْ حُسْنُ ثَوَابٍ جُزِيْتُمُوهُ ، إِنَّكُمْ إِنَّمَا تَقْدَمُوْنَ عَلَى مَا قَدَّمْتُمْ ، وَتُجَازَوْنَ عَلَى مَا أَسْلَفْتُمْ ، فَلَا تَخْدَعَنَّكُمْ زَخَارِفُ دُنْيَا دَنِيَّةٍ عَنْ مَرَاتِبِ جَنَّاتٍ عَالِيَةٍ ، فَكَأَنْ قَدْ كُشِفَ الْقِنَاعُ ، وَارْتَفَعَ الْإِرْتِيَابُ ، وَلَاقَى كُلُّ امْرِئٍ مُسْتَقَرَّهُ ، وَعَرَفَ مَثْوَاهُ وَمُنْقَلَبَهُ" إهـ . كما ينبغي للعاقل أن يجعل الموت دائما نصب عينيه ، ويستعد لأخرته بزاد كثير من الأعمال الصالحة ، وذلك باغتنام شبابه قبل كبره وصحته قبل سقمه . عن ابن عباس رضي الله عنهما قال ، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : "اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ

مَوْتِكَ" رواه البيهقي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما . وأن يتذكر أن شبابه سينتهي ، وأن قوته ستضعف قليلا فقليلا ، فلا يقوى على العبادة مثل أيام شبابه . قال الله تعالى : (اللهُ الَّذِيْ خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً) {الروم : الآية ٥٤} . وقوله تعالى من ضعف- أي ماء مهين- ثم جعل من بعد ضعف - أي ضعف الطفولة - قوةً - أي قوة الشباب - ثم جعل من بعد قوة ضعفا - أي ضعف الكبر- وشيبة - أي شيب الهرم . قال القشيري : "خلقكم من ضعف" أي ضعف عن حال الخاصة "ثم جعل من بعد ضعف قوة" بالوصول إلى شهود الوجود القـديم "ثم جعل من بعد قوة ضعفا" بالرجوع إلى المسكنة أي في حال البقاء . قال صلى الله عليه وسلم : "اللَّهُمَّ أَحْيِنِيْ مِسْكِيْنًا ، وَأَمِتْنِيْ مِسْكِيْنًا ، وَاحْشُرْنِيْ فِيْ زُمْرَةِ الْمَسَاكِيْنِ" رواه البيهقي والطبراني عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه إهـ .



الحكمة السابعة والثمانون

قال رضي الله عنه :

كَلَامُ أَهْلِ الْإِخْلَاصِ وَالصِّدْقِ نُوْرٌ وَبَرَكَةٌ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ فَصِيْحٍ . وَكَلَامُ أَهْلِ الرِّيَاءِ وَالتَّكَلُّفِ ظُلْمَةٌ وَخَيْبَةٌ ، وَإِنْ كَانَ فَصِيْحًا .

(كلام أهل الإخلاص) لله تعالى (والصدق) مع الله تعالى (نور) يُنوِّر القلوب المظلمة (وبركة) يُؤثِّر في القلوب وينتفع به الناس (وإن كان غير فصيح)

فبإخلاصهم وصدقهم يشع كلامهم نورا يتنور به قلب السامع ، ويمنح روحا فتبقى فيه الحياة الأبدية ، وينتفع به غضا طريا على مر الأزمان (وكلام أهل الرياء والتكلف ظلمة وخيبة) وفي بعض النسخ : ووحشة بدل وخيبة (وإن كان فصيحا) فكلامهم لعدم الإخلاص والصدق لا يحرك الأحياء ولا ينفع الموتى ، فرب كلام يسير غير فصيح من مخلص صادق يدخل في سويداء القلب ، فتنفتح به الصدور المقفلة ، وتحيا به القلوب الميتة ، ورب كلام كثير فصيح صدر من مُراءٍ متكلف لا يجد السامع فيه أثرا ، ولا ينتفع به نفسه . فينبغي للداعي إلى الله أن يتكلم على أساس الإخلاص والصدق ليكون كلامه مؤثرا ونافعا . قيل : الكلام إذا خرج من القلب وقع في القلب ، وإذا خرج من اللسان لم يتجاوز الآذان . وقيل : حيث صار التنوير وقع التعبير . قال صلى الله عليه وسلم :" شِرَارُ أُمَّتِيْ اَلثَّرْثَارُوْنَ اَلْمُتَشَدِّقُوْنَ اَلْمُتَفَيْهِقُوْنَ " أخرجه البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة رضي الله عنه . الثرثارون : المكثارون الكلام تكلُّفًا وخروجا عن الحق . والمتشدقون : المتكلفون في الكلام تصنُّعًا . والمتفيهقون : المتوسعون في الكلام للتفصُّحِ . ومعنى هذه الكلمات : التقعر والتكلف في الكلام ليُمِيلَ به قلوبَ الناس وأسماعَهم إليه . وفي الحديث دلالة على النهي عن كثرة الخوض في الباطل ، وأن تكلف البلاغة والتعمق في التفصح مذموم ، وأن ضد ذلك مطلوب محبوب . وقال صلى الله عليه وسلم : " إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ الْبَلِيْغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِيْ يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ تَخَلُّلَ الْبَقَرَةِ بِلِسَانِهَا " أخرجه أبوداود والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما . أي يتكلف في الكلام تصنعا وتفصحا وتفاخرا على الأقران لا سجية ولا سليقة ، أما إذا كانت فصاحته وبلاغته سجية فممدوح ومرغوب فيه ،

لحديث : " جَمَالُ الرَّجُلِ فَصَاحَةُ لِسَانِهِ " أخرجه الديلمي والقضاعي عن جابر ابن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما .

قال بعضهم :

لِسَانٌ فَصِيحٌ مُعْرِبٌ فِيْ مَقَالِهِ * فَيَا لَيْتَهُ فِي مَوْقِفِ الْحَشْرِ يَسْلَمُ
وَمَا يَنْفَعُ الْإِعْرَابُ إِنْ لَمْ يَكُنْ تَقِيْ * وَمَا ضَرَّ ذَا تَقْوَى لِسَانٌ مُعَجَّمُ

فالعالم هو الذي يتكلم بكلام فيه نفع وفائدة ولا يتصنَّع فيه ، وهذا هو الذي ينبغي حضور مجلسه ، واستماع غرائبه وفوائده . ومما ينسب إلى الإمام ابن عرفة المالكي المتوفى سنة ٨٠٣ هـ :

إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيْ مَجْلِسِ الدَّرْسِ نُكْتَةٌ * بِتَقْرِيْرِ إِيْضَاحٍ لِمُشْكِلِ صُوْرَةِ
وَعَزْوِ غَرِيْبِ النَّقْلِ أَوْ حَلِّ مُشْكِلٍ * أَوْ إِشْكَالٍ أَبْدَتْهُ نَتِيْجَةُ فِكْرَةِ
فَدَعْ سَعْيَهُ وَانْظُرْ لِنَفْسِكَ وَاجْتَهِدْ * وَإِيَّاكَ تَرْكًا فَهْوَ أَقْبَحُ خَلَّةِ

وقال ذر بن عمر لأبيه عمر : "مَا بَالُ الْمُتَكَلِّمِيْنَ يَتَكَلَّمُوْنَ فَلَا يَبْكِيْ أَحَدٌ ، فَإِذَا تَكَلَّمْتَ أَنْتَ سَمِعْتُ الْبُكَاءَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . فَقَالَ : يَا بُنَيَّ لَيْسَتِ النَّائِحَةُ الثَّكْلَى كَالنَّائِحَةِ الْمُسْتَأْجَرَةِ" . فبكاء المرأة التي مات زوجها أو أقاربها بكاءٌ خرج من قلب حزين محروق ، فيتأثر به من يسمعه ، وربما يبكي أيضا ، لكن إذا بكى شخص لموت إنسان طلبا للأجرة والدرهم ، فلا يلتفت إليه أحدٌ حتى ولو أخرج دمعا من الدم بل يضحك عليه ، لأن بكاءه ليس عن حزن وإنما يكون تصنعا .

⁘⁘⁘

الحكمة الثامنة والثمانون

قال رضي الله عنه :

مَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ بَصِيْرَةٌ تَهْدِيْهِ ، طَالَ تَعَبُ الْمُعَلِّمِيْنَ وَالْمُؤَدِّبِيْنَ فِيْهِ .

(من لم تكن له بصيرة) في قلبه (تهديه) إلى رؤية الحقائق (طال تعبُ المعلمين والمؤدبين فيه) والبصيرة هي نور في القلب يرى الإنسان ببصيرته الحقائق كما يرى بعينه أي ببصره المحسوسات . ونور البصيرة موضع الهداية والتوفيق ، فمن نظر بعين بصيرته فإنه يهتدي لما ينفعه في عقباه ، ويصل به إلى ما تمناه ، ويرتقي به من مقام إلى مقـام ، حتى يصل إلى حضرة الله ولوكان أعمى البصر . ومن لم يكن له في قلبه بصيرة لم يهتد إلى ما فيه نفعه من خيري الدنيا والآخرة ولو كان بصيرا ، فلا ينفعه موعظة الواعظ ، ولا تأديب المؤدب ، ولا يجديه تربية ولا ترقية ، فلا يبقى للمُعلِّم والمُؤدِّب والمُسَلِّك إلا التعب . والأمداد الربانية إنما تحصل بوجود الإستعداد من المتعلمين والسالكين ، والإستعداد يتحقق بنور البصيرة ، فإذا كان القلب منورا نظيفا سهل نزول الأمداد في كل وقت من الليل والنهار ، أما إذا كان القلب مغمورا بالظلمة ومملوءا بحب الدنيا فلا يجد المدد موضعا فى القلب ينزل فيه ، فيرجع من حيث جاء . وفي الحكم العطائية : "ورودُ الأمدادِ بحسَبِ الإستعدادِ". وقيل : "بِقَدْرِ الْمُجَاهَدَةِ تَكُوْنُ الْمُشَاهَدَةُ " . وبحسن الإعتقاد في المشايخ والمعلمين ، نزلت الأمداد والفتوح من رب العالمين . وحكي أن السلطان محمود الغازي أو الغزنوي دخل على الشيخ الرباني أبي الحسن الخرقاني قدس سره لزيارته ، وجلس ساعة ، ثم قال : يا شيخ ما تقول في حق أبي يزيد البسطامي ؟

فقال الشيخ : هو رجل من رآه اهتدى واتصل بسعادة لا تخفى . فقال محمود : وكيف ذلك وأبو جهل رأى رسول الله صلى الله عليه وسلّم ولم يتصل بالسعادة ولم يتخلص من الشقاوة ؟ فقال الشيخ في جوابه : إن أبا جهل ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلّم وإنما رأى محمد بن عبد الله يتيم أبي طالب ، حتى لو كان رأى رسول الله صلى الله عليه وسلّم لخرج من الشقاوة ودخل في السعادة . ثم قال الشيخ الخرقاني : ومصداق ذلك قول الله تعالى : {وَتَرَاهُمْ - أي ترى الأصنام يامحمد-يَنْظُرُوْنَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُوْنَ} {الأعراف : الآية ١٩٨} . فالنظر بنور البصر لا يوجب الإهتداء والسعادة ، بل النظر بنور البصيرة يورث ذلك . ومثل ذلك الطالب الذي يحصِّل العلم من شيخ مرشد ناصح وهو من أقربائه ، إذا رآه أنه قريبه وأهله ، قل تعظيمه وتنزيهه ، وضعف اعتقاده فيه ، فلم ينفع علمه وتأديبه ، ولكن إذا رأى أنه أستاذه ومعلمه الذي يدله إلى الهدى ، كثر تعظيمه واحترامه ، ونفع علمه . قال العمريطي رحمه الله تعالى :

إِذِ الْفَتَى حَسْبَ اعْتِقَادِهِ رُفِعْ * وَكُلُّ مَـنْ لَمْ يَعْتَقِدْ لَمْ يَنْتَفِعْ

ولـذا قال صلى الله عليه وسلم : "أَزْهَدُ النَّاسِ فِي الْعَالِمِ أَهْلُـهُ وَجِيْرَانُهُ" أخرجـه الديلمي عن أبي الدرداء رضي الله عنه . قال المناوي : وذلك سنة الله في الماضين وعادته في النبيين ، والعلماء ورثتهم ، ومن ثم قال بعض العارفين : كلُّ مَقدُورٍ عليه مزهودٌ فيه ، وكلُّ ممنوعٍ منه مرغوبٌ فيه . قال الماوردي : فإذا قَرُبَ منك العالمُ فلا تطلبْ ما بَعُدَ ، وربما انبعثت نفس الإنسان إلى من بعد عنه استهانةً بمن قَرُبَ منه ، وطَلَبَ ما صَعُبَ احتقارا لما سَهُلَ عليه ، وانتقل إلى من لم يَخبُرْه مَللًا

ممن خَبَرَه ، فلا يُدرِكُ مطلوبًا ولا يَظْفَرُ بطائلٍ . وقال العارف المرسي : ابتَلى اللهُ هذه الطائفةَ بالخَلْق ليَرْفعَ مقدارَهم ، ويُكمِّل أنوارَهم ، ويُحقِّق لهم الميراثَ ، ليؤذوا كما أوذي مَن قَبْلَهم ، فصبروا كما صبر مَنْ قَبْلَهم ، ولو كان إِطْباقُ الخَلْق على تصديق العالِمِ هو الكمالَ ، لكان الأحقُّ بذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، بل صدَّقه قومٌ هَداهُمُ اللهُ بفضله ، وكذَّبه آخَرون فحَجَبَهم اللهُ بعدْلِه ، فانقسم العباد في هذه الطائفة إلى مُعتقِدٍ ومُنتقِدٍ ومُصَدِّق ومُكَذِّب ، وإنما يُصدِّق بعلومهم من أراد الحقُّ إلحاقَه بهم ، وقليلٌ مَا هُمْ ، انتهى قول المناوي .



الحكمة التاسعة والثمانون

قال رضي الله عنه :

مَنْ تَكَبَّرَ عَلَى الْحَقِّ وَأَهْلِهِ ، ابْتَلَاهُ اللهُ بِالذُّلِّ وَالْبَاطِلِ وَأَهْلِهِ ، فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ عِنْدَ ذَلِكَ مُصِيبَتَانِ وَعُقُوبَتَانِ ، وَتَفُوتُهُ مَنقَبَتَانِ وَمَثُوبَتَانِ .

(من تكبر على الحق) تعالى بأن يستنكف أن يكون عبدا له تعالى ، أو يتخذ إلها غيره ، أو لم يمتثل أمره ولم يجتنب نواهيه (وأهله) أي أهل الله تعالى كالأنبياء والأولياء والعلماء والصالحين بأن لم يخضع ولم يذعن لهم (ابتلاه الله بالذل والباطل وأهله) أي أهل الباطل (فيجتمع عليه عند ذلك مصيبتان) قال السندي رحمه الله تعالى : مصيبة التكبر على الله وأهله ، ومصيبة الذل للباطل وأهله (وعقوبتان) قال السندي رحمه الله تعالى : عقوبة الذل عند الحق وأهله ، وعقوبة الذل للباطل وأهله (وتفوته منقبتان) أي مفخرتان ، قال السندي رحمه الله تعالى : منقبة التواضع لله

وأهله ، ومنقبة التكبر على الباطل وأهله (ومثوبتان) قال السندي رحمه الله تعالى : مثوبة الدنيا بالثناء ، ومثوبة الآخرة بالجزاء والله أعلم إهـ . والتكبر منازعة لله في صفته ، فالمتكبر كعبد أخذ تاج مَلِكٍ وجلس على سريره ، أو لا يجلس على سريره لكن نازع بعضَ أمره . فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه و سلم فيما يحكي عن ربه عز و جل قال : "الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِيْ فَمَنْ نَازَعَنِيْ رِدَائِيْ قَصَمْتُهُ" أخرجه الحاكم . أي إن الكبرياء أي العظمة صفة من صفاتي يختص الكبرياء بي ولا يليق إلا بي ، والمنازِع فيه منازِعٌ في صفة من صفاتي . قصمته : أي كسرته وأهلكته . وقد عُرف من هذه الحكمة أن التكبر من حيث المتكبَّرُ عليه ثلاثة أنواع : الأول التكبر على الحق تعالى بأن يمتنع عن أن يكون عبدا له ويدعي الربوبية ، كتكبر فرعون كما حكى الله عن قوله : (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) {النازعات : الآية ٢٤} ، وهذا أفحش أنواع التكبر . والثاني التكبر على أهل الحق كالتكبر على رسله بأن لا يُذْعِنَ لهم كما حكى الله عن قول الكفار: (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا) {إبراهيم : الآية ١٠} . والثالث التكبر على العباد بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره . قال صلى الله عليه وسلم :" إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى مَنْ يَجُرُّ إِزَارَهُ بَطَرًا" رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه . يجر إزاره : أي يرخيه إلى تحت كعبيه . بطرا : أي تكَبُّرًا . والمتكبِّر على الخلق منازِعٌ للخالق تعالى في بعض أمره ، وهذا التكبر يجر إلى التكبر على الخالق ، ألا ترى أن إبليس لما تكبر على آدم وحسده ، جره ذلك إلى تكبره على الله تعالى ومخالفة أمره .

وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريره ، فجاء يوما ومصعب مآدٌّ رجليه فلم يقبضهما ، وقعد الأحنف فزحمه بعض الزحمة ، فرأى أثر

ذلك في وجهه . فقال : "عَجَبًا لِابْنِ آدَمَ يَتَكَبَّرُ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ مَجْرَى الْبَوْلِ مَرَّتَيْنِ". وقال الحسن البصري : "الْعَجَبُ مِنِ ابْنِ آدَمَ يَغْسِلُ الْخُرْءَ بِيَدِهِ كُلَّ يَوْمٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ، ثُمَّ يُعَارِضُ رَبَّهُ" . الخرء : أي الغائط . ويروى أن مُطَرِّفَ بن عبد الله بن الشِّخِّير رأى المُهَلَّب وهو يتبختر في جبة خز ، فقال : يا عبد الله ! هذه مِشْيَةٌ يبغضها الله ورسوله ، فقال له المهلب : أما تعرفني ؟ فقال : أنا أعرفك ، أَوَّلُكَ نطفةٌ مَذِرَةٌ ، وآخِرُكَ جيفة قَذِرةٌ ، وأنت بين ذلك تَحمِلُ الْعَذِرَةَ ، فمضى المهلب وترك مشيته تلك . والتكبر باعتبار المتكبَّربه أنواع : الأول التكبر في العلم ويكون كثيرا في أهل العلم . والثاني التكبر في العمل والعبادة . والثالث التكبر في الحسب والنسب . والرابع التكبر في الجمال . والخامس التكبر في المال . والسادس التكبر في القوة . والسابع التكبر في الأتباع والأنصار والتلامذة والبنين . قال الغزالي رحمه الله تعالى : وبالجملة فكل ماهو نعمة ، وأمكن أن يعتقد كمالا ، وإن لم يكن في نفسه كمالا ، أمكن أن يتكبر به ، حتى إن المخنَّثَ لَيتكبَّرُ على أقرانه بزيادة معرفته وقدرته في صنعة المخَنَّثين ، لأنه يرى ذلك كمالا فيفتخر به ، وإن لم يكن فعله إلَّا نَكالًا ، وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب ، وكثرة الفجور بالنسوان والغلمان ، ويتكبر به لظنه أن ذلك كمال وإن كان مخطئا فيه إهـ . حكي أن ابنَ عمر ابن عبد العزيز اشترى خاتمًا بألف درهم ، فبلغ ذلك عمرَ بن عبد العزيز ، فكتب إليه يابني ! بلغني أنك اشتريتَ خاتما بألف درهم ، فَبعِ الخاتمَ بألف درهم وأَشْبعْ به ألفَ جائع ، واتخِذْ خاتما بدرهمين واكتب عليه : رحم الله امرأً عَرَف قَدْرَ نفسِه .

✦✦✦
✦✦✦✦✦✦

الحكمة التسعون

قال رضي الله عنه :

اَلْمُؤْمِنُ يَتَجَوَّزُ فِي الْعَادَاتِ وَلَا يَتَجَوَّزُ فِي الْعِبَادَاتِ . وَالْمُنَافِقُ يَتَجَوَّزُ فِي الْعِبَادَاتِ وَلَا يَتَجَوَّزُ فِي الْعَادَاتِ .

(المؤمن) الذي يؤمن بالثواب الأخروي (يتجوز) أي يتساهل (في العادات) وهي ماليس من العبادات كالمراكب والبيوت والملا بس والمآكل ، وذلك لأن المؤمن يعلم أنه لا فائدة فيما زاد على قدر الحاجة من العادات ، فلا يهتم بها بل يكتفي بما يَسَّره الله له منها ، ويقتصر على قدر الحاجة له ولمن يمونه (ولا يتجوز في العبادات) فيعمل فيها ما هو الأكمل لعلمه بفضلها وثوابها . قال الله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُوْنَ ، الَّذِيْنَ هُمْ فِيْ صَلَاتِهِمْ خَاشِعُوْنَ ، وَالَّذِيْنَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُوْنَ ، وَالَّذِيْنَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُوْنَ ، وَالَّذِيْنَ هُمْ لِفُرُوْجِهِمْ حَافِظُوْنَ إلى قوله تعالى : أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُوْنَ ، الَّذِيْنَ يَرِثُوْنَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ) {المؤمنون : الآية ١-١١} . (والمنافق) الذي لا يؤمن بالثواب الأخروي (يتجوز في العبادات) لعدم الإيمان بفضلها ، فيتكاسل فيها ، ويقتصر على ما يكون تقية وسترة لما في باطنه من عدم الإيمان (ولا يتجوز في العادات) بل يأخذ منها أكثر فأكثر ، لزعمه أنها جنته . قال تعالى : (وَإِذَا قَامُوْا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوْا كُسَالَى يُرَآؤُوْنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُوْنَ اللهَ إِلَّا قَلِيْلًا) {النساء : الآية ١٤٢} . وإذا قاموا : أي المنافقون . كسالى : أي متثاقلين . وقد بين الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم صفات المؤمنين والمنافقين حتى يكون الإنسان على بصيرة من نفسه ، ويجعل هذه الصفات ميزانا

يعرف بها نفسه ، فإن عرف من نفسه أنه متصف بإحدى صفات المؤمن التي منها الإقتصار من العادات على قدر الحاجة ، والإجتهاد في العبادة ، فليحمد الله وليشكره على توفيقه ، وإلا فليعرف أنه من المنافقين نفاق عمل ، وليحاسب نفسه ، ويندم على ما مضى ، ثم يعالج نفسه لتتحسن حتى يكون من المؤمنين حقا . فمن صفات المنافقين : الكسل والتباطؤ في العبادة ، والرياء ، وعدم ذكر الله ، واتباع الشهوات ، والكذب ، وخلف الوعد ، والخيانة وغيرها ، ومن صفات المؤمنين التودد فيما بينهم ، والمبادرة في فعل الخيرات ، والصدق ، وكل ما كان صفة للمنافق فالمؤمن خلافه . والمنافق هو من أظهر خلاف ما في باطنه ، بأن أظهر الإسلام وأخفى الكفر في باطنه ، وهو كافر منافق نفاق الإعتقاد ، وهو أسوأ حالا من الكفار . قال تعالى : (إِنَّ ٱلْمُنَافِقِيْنَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) {النساء : الآية ١٤٥} . في الدرك : أي في المكان . وقد يكون المنافق في العمل بأن يكون مؤمنا لكنه يعمل عمل المنافقين كما قال صلى الله عليه وسلم : "آيَةُ ٱلْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ" أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .



الحكمة الحادية والتسعون

قال رضي الله عنه :

مَنْ لَمْ يَتَّهِمْ نَفْسَهُ فِيْ كُلِّ وِرْدٍ وَصَدَرٍ ، وَقَعَ مِنْهَا كُلُّ الْبَلَايَا الْكُبَرِ .

(من لم يتهم نفسه) الأمارة بالسوء ، لأن النفس متى أطلقت تحمل عليها (في كل ورد وصدر) أي في كل ما تأتي النفس به وتذره ، وفي المثل : مالَه واردٌ ولا صادرٌ أي ماله آتٍ ولا راجعٌ أي ليس له شيءٌ (وقع منها) أي من نفسه (كل البلايا الكبر) أي البلايا العظيمة مما يوقعه في الهلاك والغواية . فيجب على الإنسان أن يخالف نفسه ويقهرها ، ويتهمها في كل ما تأتي به من الواجبات والمأمورات ، وما تذره من المعاصي والمنهيات ، ليسلم من وبالها ، ويتخلص من مكايدها . قال البوصيري :

وَخَالِفِ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ وَاعْصِهِمَا * وَإِنْ هُمَا مَحَّضَاكَ النُّصْحَ فَاتَّهِمِ
وَلَا تُطِعْ مِنْهُمَا خَصْمًا وَلَا حَكَمًا * فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الْخَصْمِ وَالْحَكَمِ

محضاك : أي أخلصاك . فلا يزكي الإنسان نفسه أبدا ، ولا يمدحها ، ولا يعجب بها ، ولا يظن أنه كامل ، وأنه من الأخيار ، ولا يقول إنه قد أدى ما عليه من الواجبات ، وترك ما نهي عنه من المخالفات على الوجه الأكمل ، بل يتهمها بالتقصير في حق الله تعالى . قال تعالى : (فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ) {النجم : الآية ٣٢} . وقال تعالى : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِيْنَ يُزَكُّوْنَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّيْ مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُوْنَ فَتِيْلًا) {النساء : الآية ٤٩} . الفتيل : هو الخيط الرقيق الذي في شق النواة ، يضرب به للشيء الحقير . فتزكية النفس بمعنى مدحها والإعجاب بها مذمومة

ومنهي عنها . أما تزكية النفس بمعنى تطهيرها بالأعمال الصالحة وترك الأعمال السيئة . فممدوحة ومطلوبة أثنى الله تعالى على أصحابها في قوله : {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) {الشمس : الآية ٩} .

"والنفس" : هي الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية .

"والنفس الأمارة" : هي التي تميل إلى الطبيعة البدنية ، وتأمر باللذات والشهوات الحسية ، وتجذب القلب إلى الجهة السفلية ، فهي مأوى الشرور ، ومنبع الأخلاق الذميمة والأفعال السيئة . قال الله تعالى : (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوْءِ) {يوسف : الآية ٥٣} .

"والنفس اللوامة" : هي التي تنورت بنور القلب تنورا قدر ما تنبهت به عن سِنة الغفلة ، فتيقظت وبدأت بإصلاح حالها ، مترددة بين جهتي الربوبية والخلقية ، فكلما صدرت سيئة منها بحكم جبلتها الظلمانية ، تداركها التنبيه الإلهي ، فأخذت تلوم نفسها ، وتتوب عنها مستغفرة راجعة إلى باب الغفار الرحيم . فهي نفس ممدوحة . ولهذا أقسم الله تعالى بها في قوله : (وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) {القيامة : الآية ٢} . ولا هذه زائدة .

"والنفس المطمئنة" : هي التي تم تنورها بنور القلب ، حتى انخلعت عن صفاتها الذميمة ، وتخلقت بالأخلاق الحميدة ، وتوجهت إلى جهة القلب بالكلية ، حتى ترقت إلى جناب عالم القدس ، متنزهة عن جانب الرجس ، مواظبة على الطاعات حتى خاطبها بقوله : (يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِيْ إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ، فَادْخُلِيْ فِيْ عِبَادِيْ ، وَادْخُلِيْ جَنَّتِيْ) {الفجر : الآية ٢٧- ٣٠} . ثم إن قمع هوى

النفس ومخالفته يسمى عند القوم بالموت الأحمر ، فمن مات عن الهوى فقد حيي بالهدى . قال تعالى : (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًافَأَحْيَيْنَاهُ) {الأنعام : الآية ١٢٢} . أي ميتا بالجهل ، فأحييناه بالعلم . قال بعضهم :

أَخُو الْعِلْمِ حَيٌّ خَالِدٌ بَعْدَ مَوْتِهِ * وَأَوْصَالُهُ تَحْتَ التُّرَابِ رَمِيْمُ
وَذُوْ الْجَهْلِ مَيْتٌ وَهْوَ مَاشٍ عَلَى الثَّرَى * يَظُنُّ مِنَ الْأَحْيَاءِ وَهْوَ عَدِيْمُ

أوصاله : أي أعضاؤه . رميم : أي متفتتة . الثرى : أي الأرض . وللقوم أنواع من الموت غير الموت الأحمر المذكور : "الموت الأبيض" وهو الجوع لأنه ينور الباطن ويبيض وجه القلب ، فإذا لم يشبع السالك بل لا يزال جائعا ، مات الموت الأبيض ، فحينئذ تحيا فطنته ، لأن البطنة تميت الفطنة ، فمن ماتت بطنته حييت فطنته . "والموت الأخضر" هو لبس المُرَقَّع من الخرق الملقاة التي لا قيمة لها ، فإذا قنع عن الثوب الجميل ، واقتصر على ما يستر العورة ، فقد مات الموت الأخضر ، لاخضرار عيشه بالقناعة ، ونضارة وجهه بنضرة الجمال الذاتي الذي حيي به واستغنى عن التجمل العارضي كما قيل :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ * فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيْهِ جَمِيْلُ

ولما رؤي الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في ثوب خَلَقٍ لا قيمةَ له ، فعابه بعض الجهلاء بذلك ، قال رحمه الله تعالى :

لَئِنْ كَانَ ثَوْبِيْ فَوْقَ قِيْمَتِهِ الْفَلْسُ * فَلِيْ فِيْهِ نَفْسٌ دُوْنَ قِيْمَتِهَا الْأُنْسُ
فَثَوْبُكَ شَمْسٌ تَحْتَ أَنْوَارِهِ الدُّجَى * وَثَوْبِيَّ لَيْلٌ تَحْتَ ظُلْمَتِهِ الشَّمْسُ

الفلس : قطعة مضروبة من النحاس يتعامل بها قديما . الدجى : أي الظلمة .

"والموت الأسود" هو احتمال أذى الخلق ، فمن لم يجد في نفسه حرجا من أذاهم ، ولم تتألم نفسه ، بل يلتذ به لكونه يراه من محبوبه ، فقد مات الموت الأسود ، وهو الفناء في الله لشهود الأذى منه برؤية فناء الأفعال في فعل محبوبه .

⁘⁘⁘

الحكمة الثانية والتسعون

قال رضي الله عنه :

رُبَّ دَاعٍ إِلَى الْهَـوَى وَالطَّبِيْعَةِ ، وَهُوَ يَدَّعِيْ أَنَّهُ يَدْعُوْ إِلَى الدِّيْنِ وَالشَّرِيْعَةِ .

(رب) للتكثير (داع إلى الهوى) وهو ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع ، ولا يستعمل غالبا إلا فيما ليس بحق ، وفيما لا خير فيه . قال الشعبي : إنما سمي الهوى هوى لأنه يَهْوِي بصاحبه . وقال بعضهم : الهوى هوان ولكن غلط باسمه قصدًا ليرغب إليه مع بقاء المسمى في محله . قال الشاعر :

إِنَّ الْهَوَانَ هُوَ الْهَوَى قُلِبَ اسْمُهُ * فَـإِذَا هَوِيْتَ فَقَدْ لَقِيْتَ هَوَانَـا

(والطبيعة) أي السجية التي جبل عليها الإنسان (وهو يدعي أنه يدعو إلى الدين والشريعة) فهذا يظن أنه على الحق ولكنه في الحقيقة داع ضال مضل ، وهو عبد هواه حيث يدعي أنه داع إلى الله وإلى دينه وشريعته ظاهرا ، وهو يتبع هواه وطبيعته باطنا . قال تعالى : (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِيْنَ) {القصص : الآية ٥٠} . قال السندي رحمه الله تعالى : وهذا شأن كل من يتبع هواه ، ويجعل دينه تابعا لما يهواه ، حتى يرى الحق باطلا والباطل

حقا ، ويزعم أنه ليس المحق إلا من كان على مثل ماهو عليه إهـ . وقال شيخنا السيد عمر الجيلاني حفظه الله تعالى ما معناه : أن هذه الحالة تقع كثيرا حتى في المتنسكين الذين كانت عبادتهم من صلاتهم وصيامهم وأذكارهم كثيرة ، ولكنهم لا يذعنون للحق ، ولا يرجعون إلى الحق ، يتبعون أهوائهم وشهواتهم ، وقد ذم الله سبحانه هؤلاء القوم بقوله : (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً) {الجاثية : الآية ٢٣} إهـ . اتخذ إلهه هواه : أي جعل معبوده ما تهواه نفسه . والداعي المحق هوالذي دعا إلى الله تعالى وإلى دينه وشريعته ، وعمل بعلمه ودعوته ، ولم يتبع هواه ، وأخلص في دعوته ، ولم يخف في الله لومة لائم . وهذا ما أشار الله تعالى إليه في قوله : (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ) {فصلت : الآية ٣٣} . فلا بد للداعي المحق العاقل أن يجمع في دعوته أربع خصال : أن يدعو إلى الله والإيمان به والعمل بطاعته ، وأن يعمل بعلمه بأن يعمل صالحا ويجتنب محرما ، وأن يتخذ دين الإسلام دينا ومعتقَدا له ويخلص في طاعة ربه ، وأن لا يخاف في دعوته لومة لائم ومنع مانع بأن لا يخاف أن يقول : إنني مسلم أدعو إلى الحق في أي مكان وفي أي زمان ولو على وجه سلطان . وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : "أَوْصَانِيْ خَلِيْـلِيْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبْعٍ : بِحُبِّ الْمَسَاكِيْنِ ، وَأَنْ أَدْنُوَ مِنْهُمْ ، وَأَنْ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلُ مِنِّيْ ، وَلَا أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِيْ ، وَأَنْ أَصِلَ رَحِمِيْ وَإِنْ جَفَانِيْ ، وَأَنْ أُكْثِرَ مِنْ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ، وَأَنْ أَتَكَلَّمَ بِمُرِّ الْحَقِّ ، وَلَا يَأْخُذَنِيْ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ ، وَأَنْ لَا أَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا" أخرجه الطبراني .

الحكمة الثالثة والتسعون

قال رضي الله عنه :

الْعِلْمُ عَلَيْكَ حَتَّى تَعْمَلَ بِهِ ، فَإِذَا عَمِلْتَ بِهِ كَانَ الْعِلْمُ لَكَ .

(العلم) حجة (عليك حتى تعمل به) فما دام الإنسان لا يعمل بعلمه فهو في خطر جسيم وأمر عظيم ، لأنه لابد أن يسأل عنه يوم القيامة ، وهو الذي توقَدُ النارُ أولَ مرةٍ لأجل تعذيبه . ولذا قال ابن رسلان في زبده :

فَعَـــالِمٌ بِعِـلْمِهِ لَمْ يَعْمَلَـنْ * مُعَذَّبٌ مِنْ قَبْلِ عُبَّادِ الْوَثَنْ

وإنما يكون ذلك لأن العالم ارتكب المعصية عالما بتحريمها ، فكان من حقـه أن لا يرتكبها ، وعابد الوثن غير عالم بتحريم عبادته . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الزَّبَانِيَةُ أَسْرَعُ إِلَى فَسَقَةِ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ مِنْهُمْ إِلَى عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ ، فَيَقُوْلُوْنَ : يُبْدَأُ بِنَا قَبْلَ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ ؟ فَيُقَالُ لَهُمْ : لَيْسَ مَنْ يَعْلَمُ كَمَنْ لَا يَعْلَمُ" رواه الطبراني وأبو نعيم . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُوْلُ : "إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ ، رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيْهَا ؟ قَالَ : قَاتَلْتُ فِيْكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ ، قَالَ : كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ : جَرِيْءٌ ، فَقَدْ قِيْلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيْهَا؟ قَالَ : تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيْكَ الْقُرْآنَ ، قَالَ : كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ لِيُقَالَ : عَالِمٌ ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ : هُوَ قَارِئٌ ، فَقَدْ قِيْلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ

حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فعرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ : مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ ، قَالَ : كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ : هُوَ جَوادٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ" رواه مسلم وغيره . وعن الوليد ابن عقبة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إِنَّ أُنَاسًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَنْطَلِقُوْنَ إِلَى أُنَاسٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيَقُوْلُوْنَ : بِمَ دَخَلْتُمُ النَّارَ فَوَاللهِ مَا دَخَلْنَا الْجَنَّةَ إِلَّا بِمَا تَعَلَّمْنَا مِنْكُمْ ؟ فَيَقُوْلُوْنَ : إِنَّا كُنَّا نَقُوْلُ وَلَا نَفْعَلُ" رواه الطبراني . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُهُ" رواه الطبراني . وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : ويلٌ لمن لا يعلم مرةً وويلٌ لمن يعلم سبع مرات . وقيل لابن عيينة رحمه الله : أيُّ الناس أطول ندامة ؟ قال : أمَّا في الدنيا فصانع المعروف إلى من لا يشكُره ، وأما عند الموت وبَعدَه فعالمٌ مفرِّطٌ . (فإذا عملت به) أي بعلمك (كان العلم) حجة ونافعا (لك) تجد ثمرته في الدنيا والآخرة ، قال مالك رضي الله عنه : إِذَا عَلِمْتَ عِلْمًا فَلْيُرَ عَلَيْكَ أَثَرُهُ وَسَمْتُهُ وَسَكِيْنَتُهُ وَوَقَارُهُ وَحِلْمُهُ . لقوله صلى الله عليه وسلم : "الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ" إهـ . قال سفيان بن عيينة : قال بعض الفقهاء : كان يقال العلماء ثلاثة :

عالم بالله ، وعالم بأمر الله ، وعالم بالله وبأمر الله ، فأما العالم بالله فهو الذي يخاف الله ولا يعلم السنة . وأما العالم بأمر الله فهو الذي يعلم السنة ولا يخاف الله . وأما العالم بالله وبأمر الله فهو الذي يعلم السنة ويخاف الله ، فذلك الذي يُدْعَى عظيما

في ملكوت السموات . ثم إذا كان العلم حجة للعالم إذا عمل به ، فمن الحماقة ترك ما يَعلم أنه حسَنٌ ، وفعلُ ما يَعلم أنه قبيحٌ كما قال رضي الله عنه .

⁘⁘⁘

الحكمة الرابعة والتسعون

قال رضي الله عنه :

مَا أَظَلَّتِ الْخَضْرَاءُ وَلَا أَقَلَّتِ الْغَبْرَاءُ أَشَدَّ حَمَاقَةً مِمَّنْ يَعْلَمُ حُسْنَ شَيْءٍ وَهُوَ لَهُ تَارِكٌ ، وَيَعْلَمُ قُبْحَ شَيْءٍ وَهُوَ لَهُ فَاعِلٌ .

(ما أظلت الخضراء) أي السماء (ولا أقلت الغبراء) أي رفعتِ الأرضُ (أشدَّ حماقة) أي جراءة (ممن يعلم حسن شيء وهو له تارك) فمن علم شيئا يقرب إلى الله تعالى كان حقه أن لايتركه ، فإذا تركه كان أحمق شديد الحمق ، فينبغي ويندب للعالم بحسن شيء أن لا يتركه ، بل يفعله ولو بعشره تخفيفا عليه ، كما اكتفى الشارع في زكاة النبات المسقي بغير مؤنة بعشره تطهيرا له . قال صاحب الزبد :

فَاعْمَلْ وَلَوْ بِالْعُشْرِ كَالزَّكَاةِ * تَخْرُجْ بِنُوْرِ الْعِلْمِ مِنْ ظُلْمَاتِ

وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : "إِنَّكُمْ فِيْ زَمَانٍ مَنْ تَرَكَ مِنْكُمْ فِيْهِ عُشْرَ مَا يَعْلَمُ هَلَكَ ، وَسَيَأْتِيْ زَمَانٌ مَنْ عَمِلَ فِيْهِ بِعُشْرِ مَا يَعْلَمُ نَجَا" . وعن أبي ذر رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إِنَّكُمْ فِيْ زَمَانٍ عُلَمَاؤُهُ كَثِيْرٌ ، خُطَبَاؤُهُ قَلِيْلٌ ، مَنْ تَرَكَ فِيْهِ عُشْرَ مَا يَعْلَمُ هَوَى أَوْ قَالَ : هَلَكَ ، وَسَيَأْتِيْ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَقِلُّ عُلَمَاؤُهُ ، وَيَكْثُرُ خُطَبَاؤُهُ ، مَنْ تَمَسَّكَ فِيْهِ بِعُشْرِ مَا يَعْلَمُ نَجَا" رواه أحمد . لكن

فيه راو لم يسم . هذا في المسنونات ، أما الواجبات فلا بد من فعل جميعها (ويعلم قبح شيء وهو له فاعل) إذ من حقه أن لا يفعله ، لعلمه بأنه قبيح ، فإذا فعله لا شك أنه يعد من الحمقى ، فمن يرضى أن يقال : إنه أحمق ؟ بخلاف ما إذا لم يعلم أن ما فعله قبيح فإنه لا يؤاخذ به ، كما حكي أن رجلا صالحا كان يلازم بيته ويعبد الله فيه ، فاشترى حمارة ، فسأله بعض الناس بعد سنين ، وقال له : ماتصنعُ بهذه الحمارة ولا تركبُها ؟ فقال : يا أخي ما اشتريتُها إلا عصمةً لديني ، أَنْكِحُها حتى لا أزنِيَ ، فقال له : إن ذلك حرام ، فبكى وتاب إلى الله تعالى عن ذلك ، وقال : والله ماعلمت أن ذلك حرام . وما ذكر في هذه الحكمة فيمن علم حسن شيء أو قبحه ، أما إذا لم يعلمه فعليه أن يدبر أولًا في فعل سيفعله أو قول سيقوله هل يكون حسنا أو قبيحا كما قال رضي الله عنه .



الحكمة الخامسة والتسعون

قال رضي الله عنه :

دَبِّرْ ثُمَّ افْعَلْ . فَكِّرْ ثُمَّ قُلْ .

(دبر) أنت أولًا قبل أن تفعل أمرا تريد فعله ولم تعلم عاقبته ، فإنك ستحاسب في كل عمل عملته . قال تعالى : (وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوْا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِيْنٍ) {يس : الآية ١٢} . أي نكتب ما عملوه من خير وشر لنحاسبهم ، وآثارهم أي خطاهم إلى المساجد وما استن به أحد من بعدهم . والتدبير لغة : النظر في الأمور وعواقبها ، وفي الإصطلاح كما قاله الشيخ زروق رحمه الله : تقدير

شئون يكون عليها في المستقبل بما يخاف أو يرجى (ثم افعل) إن بدا لك خيره ، وإلا بأن بان شره فلا تفعله ، أولم يظهر شيء فكذلك حتى يتبين لك هل هو خير أو شر ، فإن من فعل أمرا مع إبهام عاقبته كثيرا مَّا يقع في الندم . ولذا قال صلى الله عليه وسلم : "التَّدْبِيْرُ نِصْفُ الْعَيْشِ" أخرجه الديلمي عن أنس بن مالك رضي الله عنه . وفي الحديث :"إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَفْعَلَ أَمْرًا فَتَدَبَّرْ عَاقِبَتَهُ فَإِنْ كَانَ خَيْرًا فَأَمْضِهِ وَإِنْ كَانَ شَرًّا فَانْتَهِ" أخرجه ابن المبارك عن أبي جعفر عبد الله بن مسور الهاشمي مرسلًا (فكر) أنت أولًا في كل قول تريد أن تقوله ولا تعرف عاقبته (ثم قل) إن ظهر لك خيره ونفعه ، وإلا فاصمت ، ولتعلم أن معك ملكا مراقبا لكلامك شاهدا عليه لايفوته شيء ، و أنك محاسب عليه يوم القيامة . قال تعالى : (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيْبٌ عَتِيْدٌ) {ق : الآية ١٨} . أي ما ينطق بنطق ولا يتكلم بكلام إلا وعنده ملك مراقب لكلامه ، عتيد أي حاضر ليس يغيب . والقول قد يكون بابا واسعا من أبواب الخير والصلاح ، وقد يكون بابا عظيما من أبواب الشر والفساد . عن ابن عباس رضي الله عنهما ، يرفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم قال : "صِفَةُ الْعَاقِلِ أَنْ يَحْلُمَ عَمَّنْ جَهِلَ عَلَيْهِ ، وَيَتَجَاوَزَ عَمَّنْ ظَلَمَهُ ، وَيَتَوَاضَعَ لِمَنْ هُوَ دُوْنَهُ ، وَيُسَابِقَ مَنْ هُوَ فَوْقَهُ فِيْ طَلَبِ الْبِرِّ ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ فَكَّرَ ، فَإِذَا كَانَ خَيْرًا تَكَلَّمَ فَغَنِمَ ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا سَكَتَ فَسَلِمَ" . وقال صلى الله عليه وسلم : "رَحِمَ اللهُ امْرَأً تَكَلَّمَ فَغَنِمَ أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ" رواه البيهقي فى شعب الإيمان ، والديلمى عن أنس رضي الله عنه . وقال صلى الله عليه وسلم : "إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ لَا يُلْقِيْ لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سُخْطِ اللهِ لَا يُلْقِيْ لَهَا بَالًا يَهْوِيْ بِهَا فِيْ جَهَنَّمَ" رواه أحمد ، والبخاري عن أبي

هريرة رضي الله عنه . وقال صلى الله عليه وسلم : "وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوْهِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ" رواه الترمذي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه . وهل يكب الناس : أي يُسْقِطهم ويَصْرَعهم . حصائد ألسنتهم : أي محصوداتها . وفي الحديث الآخر: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ" رواه البخاري عن أبي شريح . وقيل : التدبير أمام الأفعال والتفكير أمام الأقوال . وحكي : أن مِلكا من الملوك بينه وبين ابن عمه عداوة وشحناء ، فأراد الملك أن يحتجم ، وأرسل بعض أعوانه للحَجَّام ، فلقيه ابن عم الملك فقال له من غير تدبر في عاقبة أمره : احجمه في موضع يكون فيه هلاكه ولك علي ألف دينار ! فلما جاء الحجام عند الملك تفكَّر في عاقبة أمره بواسطة عقله ، فرآه الملك متفكِّرًا ، فسأله فأخبره بالقصة ، فأعطاه عشرة آلاف دينار ، وضرب عنق ابن عمه ، فانظر عاقبة من تدبر في أمره ومن لم يتدبر !



الحكمة السادسة والتسعون

قال رضي الله عنه :

كَفَى أَهْلَ الْآخِرَةِ شَرَفًا أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يُحِبُّ أَنْ يُنْسَبَ إِلَيْهِمْ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ . وَكَفَى أَهْلَ الدُّنْيَا ضَعَةً أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَكْرَهُ أَنْ يُذْكَرَ فِي جُمْلَتِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَكَابِرِهِمْ .

(كفى أهلَ الآخرة) الذين همُّهم السعادة فيها (شرفاً) في الدنيا (أن كل أحد يحب أن ينسب إليهم) ليتشرف بشرفهم (وإن لم يكن منهم) في الحقيقة (وكفى أهلَ

الدنيا) الذين جعلوها همَّهم وقبلتَهم (ضعةً) أي ذلًّا وهوانًا (أن كل أحد يكره أن يذكر في جملتهم) ويحب أن يتبرأ منهم (وإن كان من أكابرهم) فما أشرف الآخرة وأهلها ! وما أخس الدنيا وعشاقها ! قال تعالى : (اعْلَمُوْا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِيْنَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُوْنُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيْدٌ - أي للكفار - وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ - أي للمؤمنين- وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُوْرِ) {الحديد : الآية ٢٠} . وقد تقدم تفسير هذه الآية الكريمة في الحكمة الرابعة والثلاثين . وقال تعالى : (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ - أي رجالا من الكفار - زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيْهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) {طه : الآية ١٣١} . عن ابن عمر رضي الله عنهما قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قَالَ أَخِيْ عِيْسَى : مَعَاشِرَ الْحَوَارِيِّيْنَ ! احْذَرُوْا الدُّنْيَا لَا تَسْحَرْكُمْ ، لَهِيَ وَاللهِ أَشَدُّ سِحْرًا مِنْ هَارُوْتَ وَمَارُوْتَ ، وَاعْلَمُوْا أَنَّ الدُّنْيَا مُدْبِرَةٌ وَالْآخِرَةُ مُقْبِلَةٌ ، وَإِنَّ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنِيْنَ ، فَكُوْنُوْا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ دُوْنَ بَنِي الدُّنْيَا ، فَالْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ ، وَغَدًا الْحِسَابُ وَلَا عَمَلَ" أخرجه الخطيب . الحواريون : هم أنصار عيسى عليه الصلاة والسلام . قال صلى الله عليه وسلم مشيرا إلى جَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ : "فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنَ هَذَا عَلَيْكُمْ" أخرجه الترمذي . وتقدم هذا الحديث في الحكمة الخامسة عشر . وجاء رجل إلى بعض العلماء فسأله ، وقال : أريد أن أعرِفَ أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ فقال له : جواب هذه المسألة فيكَ ، إن دخل عليك رجلان أحدهما أتاك بهديةٍ ، والآخر جاء يسألك صدقةً ، فإن كنت تحب المعطيَ أكثرَ مما تحبُّ السائلَ فأنت من أهل الدنيا ، وإن

كنت تحب السائلَ أكثرَمما تحب المعطيَ فأنت من أهل الآخرة . وحكي : أن رجلا سأل أحمد بن حنبل رحمه الله أن يعظه فقال : إن كان الله تعالى تكفَّلَ بالرزق فاهتمامُك بالرزق لماذا؟ وإن كان الرزق مقسومًا فالحرصُ لماذا؟ وإن كان الخَلَفُ على الله فالبخل لماذا؟ وإن كانت الجنة حقًّا فالراحة لماذا؟ وإن كانت النار حقًّا فالمعصية لماذا؟ وإن كانت الدنيا فانيةً فالطمأنينة لماذا؟ وإن كان الحساب حقا فالجمْعُ لماذا؟ وإن كان كل شيء بقضائه وقدره فالحزن لماذا ؟ .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَنْ تَمُوْتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوْا فِي الطَّلَبِ " رواه ابن ماجه . وأجملوا في الطلب : أي اطلبوا الرزق بالطرق الجميلة بغير حرصٍ ولا كدٍّ ولا تركِ واجبٍ .

قال الشاعر :

الرِّزْقُ مَقْسُوْمٌ فَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبْ * يَـأْتِيْ بِأَسْبَـابٍ وَمِنْ غَيْرِ سَبَبْ

فَـاسْـتَرْزِقِ اللهَ فَفِي اللهِ غِـنًى * اللهُ خَـيْرٌ لَكَ مِـنْ جَـدٍّ وَأَبْ

(ظريفة) روي أن زاهدا شم رائحة طعام فاشتهاه ، فمشى خلف حامله إلى السوق ، فسمع قائلا ينادي : إن البَطَّاط سَرقَ من جيب فلان دراهمَ ، فنظروا فرأوا الزاهد رجلا غريبا ، فحمله الوالي إلى السجن ، وكان الطعام المذكور محمولا إلى السجن لبعض الأكابر ، فلما وضع بين يديه قال للزاهد : كُلْ معنا ، فأكل معه حتى شبع ، ثم قال : إلهي كنتَ قادرا على أن تُطعِمَني هذا الطعام من غير تُهَمَةِ السرقة ، فسمع هاتفا يقول : من طلب الجِيَفَ فليصبر على عض الكِلاب ، وإذا شخص يقول : قد وجدنا اللِصَّ الذي أخذ الدراهم فأَطلِقوا

الرجلَ الغريب ! فأَطْلَقُوه . البطاط : هو الذي يبط الجيب أوالهميان أي يشقه لاختطاف ما فيه . الجيف : جمع جِيْفَةٍ هي جثة الميتة المنتنة . اللص : أي السارق .

⁘⁘⁘

الحكمة السابعة والتسعون

قال رضي الله عنه :

مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ ، أَنْ تَلْتَمِسَ مِنْ أَصْحَابِكَ الدُّنْيَا ، وَهُمْ يَلْتَمِسُوْنَ مِنْكَ الْآخِرَةَ .

(من أكبر الكبائر الباطنة والظاهرة ، أن تلتمس) أي تطلب (من أصحابك الدنيا) الفانية التي تكون وبالًا عليك (وهم يلتمسون منك الآخرة) الباقية التي تكون نافعة لهم ، فأنت مثل بني إسرائيل الذين قال الله فيهم : (قَالَ أَتَسْتَبْدِلُوْنَ الَّذِيْ هُوَ أَدْنَى بِالَّذِيْ هُوَ خَيْرٌ) {البقرة : الآية ٦١} . قال : أي موسى لبني إسرائيل . وأنت ممن يبيع الآخرة بالدنيا ، والغالي بالرخيص ، والباقي بالفاني ، وهذه حالة مذمومة شرعا وعقلا ، لاتكون إلا من أَجْلِ ضعفٍ في العقل وعدم البصيرة ، حيث تُفوِّت على نفسك الشيءَ الكثير الكبير لأجل أن تنال الشيء الحقير الذي لا قيمة له . وهذه من أكبر الكبائر . قال الله تعالى : (وَلَا تَشْتَرُوْا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيْلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُوْنَ ، مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ) {النحل : الآية ٩٥-٩٦} . لا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا : أي لا تعتاضوا بعهود الله من أوامره ونواهيه بعرض قليل من الدنيا . ينفد : أي يفنى . وقال النبي صلى

الله عليه وسلم : "يَأْتِي عَلَى أُمَّتِي زَمَانٌ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا يَبِيْعُ دِيْنَهُ بِعَرْضٍ يَسِيْرٍ مِنَ الدُّنْيَا" . وتقدم هذا الحديث في الحكمة الخامسة والثمانين .

ومثال ذلك شهادة الزور ، فالشاهد قد باع آخرته بدنيا غيره ، وقد ينال بشهادته شيئا يسيرا لا يُذْكَر ، ولكن خطره كثير ، وإثمه كبير بل من أكبر الكبائر . وقد أمر الله سبحانه وتعالى باجتنابه فقال في كتابه العزيز : (وَاجْتَنِبُوْا قَوْلَ الزُّوْرِ حُنَفَاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِيْنَ بِهِ) {الحج : الآية ٣٠-٣١} . قول الزور : أي الشرك بالله وشهادة الزور والكذب والبهتان . وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال : "كُنَّا عِنْدَ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ - ثَلَاثًا - قُلْنَا : بَلَى يَارَسُوْلَ اللهِ ، قَالَ : الْإِشْرَاكُ بِاللهِ ، وَعُقُوْقُ الْوَالِدَيْنِ ، أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّوْرِ ، وَقَوْلُ الزُّوْرِ - وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ - فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا- أي كلمة ألا وشهادة الزور- حَتَّى قُلْنَا : لَيْتَهُ سَكَتَ" أخرجه البخاري ومسلم والترمذي . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "مَنْ شَهِدَ عَلَى مُسْلِمٍ شَهَادَةً لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ" أخرجه أحمد . وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَنْ تَزُوْلَ قَدَمَا شَاهِدِ الزُّوْرِ حَتَّى يُوْجِبَ اللهُ لَهُ النَّارَ" أخرجه ابن ماجه . وشهادة الزور هي أن يشهد بما لا يتحققه ، وهي أشد وأغلظ من الكذب . وكذلك اليمين الغموس ، وهي التي يحلفها الإنسان عامدا عالما أن الأمر بخلاف ما حَلَفَ عليه ليُحِقَّ بها باطلا أو يبطل حقا ، كأن يقتطع بها مال معصوم . وإنما سميت اليمين الغموس غموسا لأنها تغمس صاحبها في النار ، وهي من أكبر الكبائر . قال تعالى : (إِنَّ الَّذِيْنَ يَشْتَرُوْنَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيْلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ) {آل عمران : الآية ٧٧} . وسبب نزول هذه الآية : "أن عبدان الحضرمي ادّعى على امرىء القيس الكندي قطعة أرض ولم يكن له بينة ، فحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحلف امرؤ القيس ، فهمّ بالحلف ، فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إِنَّ الَّذِيْنَ يَشْتَرُوْنَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيْلًا) فارتدع عن اليمين ، وسَلَّم الأرضَ لعبدان" . وهذا مثال من يبيع الدنيا بالآخرة ، والرخيص بالغالي ، والفاني بالباقي ، وجاء في رواية : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للخصمين : "إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَأَنْتُمْ تَخْتَصِمُوْنَ إِلَيَّ ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَأَقْضِيْ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ مِنْهُ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِشَيْءٍ مِنْ حَقِّ أَخِيْهِ ، فَلَا يَأْخُذَنَّ مِنْهُ شَيْئًا ، فَإِنَّمَا أَقْضِيْ لَهُ قِطْعَةً مِنْ نَارٍ" . فَبَكَيَا وَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا : حَقِّيْ لِصَاحِبِيْ" الحديث . رواه الحاكم والطبراني والبيهقي عن أم سلمة رضي الله عنها . ألحن بحجته : أي أفطن ببيان دليله بحيث يظن أن الحق معه . وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : "جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَارَسُوْلَ اللهِ مَا الْكَبَائِرُ ؟ قَالَ : الْإِشْرَاكُ بِاللهِ ، قَالَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : عُقُوْقُ الْوَالِدَيْنِ ، قَالَ : ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ : الْيَمِيْنُ الْغَمُوْسُ ، قُلْتُ : وَمَا الْيَمِيْنُ الْغَمُوْسُ؟ قَالَ : الَّذِيْ يَقْتَطِعُ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيْهَا كَاذِبٌ" أخرجه البخاري . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : "مَنِ اقْتَطَعَ شَيْئًا مِنْ مَالِ أَخِيْهِ بِيَمِيْنٍ فَاجِرَةٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ ، لِيُبَلِّغْ شَاهِدُكُمْ غَائِبَكُمْ" أخرجه الطبراني والحاكم والبيهقي عن الحارث بن البرصاء الليثي . اقتطع الشيء يقتطعه : أي يأخذه ويتملكه .

⁂

الحكمة الثامنة والتسعون

قال رضي الله عنه :

قِيمَةُ الْإِنْسَانِ عِنْدَ أَهْلِ الدُّنْيَا ، مَا يَأْخُذُهُ مِنْهُمْ .

(قيمة الإنسان عند أهل الدنيا) بمقتضى نظرهم (ما يأخذه منهم) وكلما كان أخذه الدنيا منهم أكثر كانت قيمته أرخص ، فبقدر ما أخذه منهم رخصت قيمته ، وبقدر زهده عما في أيديهم غلت قيمته ، وعظم قدره . ولذا قال صلى الله عليه وسلم : "ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ ، وَازْهَدْ فِيمَا عِنْدَ النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ" رواه ابن ماجه عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه . ازهد في الدنيا : أي اترك من الدنيا ما لا ينفعك في الآخرة . وازهد فيما عند الناس يحبك الناس : أي اترك ما في أيدي الناس يحبك الناس ، والرغبة عنه تقتضي ترك سؤال الناس . فالمعنى : لا تسأل الناس شيئًا ، لأنك إذا سألتَ أثقلْتَ عليهم ، وكنت دنيئا لا قيمة لك عندهم ، فإن اليد العليا المعطية خير من اليد السفلى الآخذة . ويروى عن سهل ابن سعد رضي الله عنه مرفوعا : "شَرَفُ الْمُؤْمِنِ قِيَامُهُ بِاللَّيْلِ ، وَعِزُّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ" أخرجه الحاكم . وقال الحسن : "لَا تَزَالُ كَرِيمًا على الناسِ ، ولا يَزالُ الناسُ يُكْرِمُونكَ مالم تَتَعاطَ ما في أيديهم ، فإذا فعلتَ ذلك استخَفُّوا بك ، وكَرِهوا حديثَك وأبْغضوكَ" . وقال أبو أيوب السختياني : "لا يَنْبُلُ الرَّجلُ حتى يكونَ فيه خَصلتان : العفَّةُ عما في أيدي الناس ، والتجاوُزُ عما يكون منهم" . فينبغي للإنسان أن لا يطمع فيما في أيدي الناس ولا يسألهم ، لأن المال محبوب في نفوس بني آدم ، فإذا طلب ذلك منهم أبغضوه وكرهوه . وكان عمر رضي الله عنه

يقول في خطبته على المنبر: "إنَّ الطمع فقر ، وإن اليأس غنى ، وإن الإنسان إذا أيس من الشيء استغنى عنه" . وقال أعرابي لأهل البصرة : "مَنْ سَيِّدُكُمْ ؟ قالوا : الحسن البصري ، قال : بِمَ سَادَكم؟ قالوا : احتاج الناسُ إلى علمه ، واستغنَى هو عن دُنياهُمْ" . وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا يُرِيْحُ الْقَلْبَ وَالْبَدَنَ ، وَالرَّغْبَةُ فِيْهَا تُكْثِرُ الْهَمَّ وَالْحَزَنَ ، وَالْبَطَالَةُ تُقْسِيْ الْقَلْبَ" أخرجه القضاعي . وقال صلى الله عليه وسلم : "مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِيْ غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِيْنِهِ" رواه أحمد والترمذي عن كعب بن مالك رضي الله عنه .



الحكمة التاسعة والتسعون

قال رضي الله عنه :

إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَسْتَشِيْرَ إِنْسَانًا فَقَدِّرْ أَنَّهُ يُشِيْرُ عَلَيْكَ بِمُخَالَفَةِ مَا تُحِبُّ ، فَإِنْ رَأَيْتَ امْتِثَالَهُ ، وَإِلَّا فَدَعْ .

(إن أردت أن تستشير إنسانا) في الأمور التي تحتاج فيها إلى المشاورة (فقدِّرْ) في نفسك (أنه يشير عليك بمخالفة ما تحب) من الأمرين أو الأمور (فإن رأيت) في نفسك (امتثالَه) فيما يشير عليك وإن كان مخالفا لما تحبه فشاوِرْه ، فإنه لا تخلو مشاورة ذوي العقول من فائدة (وإلا) بأن رأيت في نفسك أنك لم تطاوِعْه ولم تأخذ برأيه إذا أشار إليك بما لا تحب (فَدَعْ) أي اترُكْ مشاورتَه إذ لا فائدة لك في

مشاورته . واعلم أن مشاورة ذوي العقول الراسخة مشروعة ، أمر بها سبحانه وتعالى نبيه سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته ، فقال : (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) {آل عمران : الآية ١٥٩} . وعن الحسن البصري في قوله عز وجل : وشاورهم في الأمر ، قال : قد علم الله أنه ما به صلى الله عليه وسلم إليهم من حاجة ، ولكن أراد أن يَستَنَّ به مَنْ بعده . وقال الضحاك : ما أمر الله نبيه بالمشاورة إلا لما عُلِمَ ما فيها من الفضل والبركة . وقال سفيان : وبلغني أنها نصف العقل . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشاور حتى المرأة . وقال الحسن : ما شاورَ قومٌ قط إلا هُدُوْا لِأَرْشدِ أمورِهم . قال تعالى : (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) {الشورى : الآية ٣٨} . أي أن جميع أمور المؤمنين وشئونهم الدينية والدنيوية من جلب المصالح ودفع المضار، معلَّقٌ بالشورى والتعاون في حل مشكلاتهم ، ليهتدوا في قرارهم إلى ما هو الأرشَدُ ، ويبتعدوا من الخلاف والنزاع فيما بينهم . قال صلى الله عليه وسلم : "مَا خَابَ مَنِ اسْتَخَارَ ، وَلَا نَدِمَ مَنِ اسْتَشَارَ" رواه الطبراني عن أنس رضي الله عنه . و قال صلى الله عليه وسلم : "إِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحَاءَكُمْ ، وَأُمُوْرُكُمْ شُوْرَى بَيْنَكُمْ ، فَظَهْرُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا . وَإِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلَاءَكُمْ ، وَأُمُوْرُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ ، فَبَطْنُ الْأَرْضِ خَيْرٌ مِنْ ظَهْرِهَا" رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه . وقال علي كرم الله وجهه : المشاورة حصن من الندامة ، وأمن من الملامة . قال الشاعر :

إِذَا عَزَّ أَمْرٌ فَاسْتَشِرْ فِيهِ صَاحِبًا * وَإِنْ كُنْتَ ذَا رَأْيٍ تُشِيْرُ عَلَى الصَّحْبِ

فَإِنِّيْ رَأَيْتُ الْعَيْنَ تَجْهَلُ نَفْسَهَا * وتُدْرِكُ مَا قَدْ حَلَّ فِيْ مَوْضِعِ الشُّهْبِ

وقال آخر :

فَمَا كُلُّ ذِي نُصْحٍ بِمُؤْتِيْكَ نُصْحَهُ * وَمَـا كُـلُّ مُـؤْتٍ نُصْحَهُ بِلَـبِيْبِ

وَلَكِنْ إِذَا مَا اسْتَجْمَعَا عِنْدَ صَاحِبٍ * فَحَـقٌّ لَـهُ مِـنْ طَـاعَةٍ بِنَصِيْبِ

وسئل بعضهم : ما أفضلُ ما أُعطيَ الرجلُ ؟ قال : عقلٌ كاملٌ ، قيل : فإن لم يكن ؟ قال : فأدبٌ حسَنٌ ، قيل : فإن لم يكن ؟ قال : فصمتٌ طويلٌ ، قيل : فإن لم يكن ؟ قال : فأخ صالح يستشيره ، قيل : فإن لم يكن ؟ قال : فموتٌ عاجلٌ . ولذلك قيل: الناس ثلاثة : رجل وهو العاقل ، ونصف رجل وهو من لا عقل له ولكن يستشير غيره ، ورجل لا شيء وهو من لا عقل له ولا يستشير غيره .

* * * * * * * *

الحكمة المائة

قال رضي الله عنه :

رَأْيُ الْإِنْسَانِ فَرْعُ عِلْمِهِ وَعَقْلِهِ ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَضَعَهُ عِنْدَ مَنْ لَا يَأْخُذُ بِهِ .

(رأي الإنسان فرع) أي نتيجة (علمه) الراسخ (وعقله) الكامل (فلا ينبغي أن يضعه) أي الرأي (عند من لا يأخذ به) ولا ينتفع به ، إذ لا فائدة في وضعه عنده ، فهو كمن يضع الموائد على القبور ، وكمن يطبخ الحديد يلتمس أُدُمَه .

قال الشاعر :

فَلَا تَمْنَحَنَّ الرَّأْيَ مَنْ لَيْسَ أَهْلَهُ * فَلَا أَنْتَ مَحْمُوْدٌ وَلَا الرَّأْيُ نَافِعُ

ووضعُ الرأي عند غير أهله ربما يوقع صاحب الرأي ومن يأخذه منه في فتنة وتهمة

وريبة . ولله در الإمام زين العابدين سيدنا علي بن الحسين بن علي كرم الله وجهه :

يَـا رُبَّ جَـوْهِرِ عِـلْمٍ لَوْ أَبُوْحُ بِهِ * لَقِـيلَ لِيْ أَنْتَ مِمَّنْ يَعْبُدُ الْـوَثَنَـا

وَلَا اسْتَحَلَّ رِجَالٌ مُسْلِمُوْنَ دَمِيْ * يَرَوْنَ أَقْبَحَ مَـا يَـأْتُوْنَهُ حَسَنَـا

إِنِّيْ لَأَكْتُمُ مِـنْ عِـلْمِيْ جَـوَاهِرَهُ * كَيْ لَا يَرَى الْحَقَّ ذُوْ جَهْلٍ فَيَفْتَتِنَا

أبوح به : أي أظهره وأفشيه . وفي هذه الحكمة إشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يستشير في أموره المهمة من كان أهلا للمشاورة ، بأن كان علمه راسخا ، وعقله كاملا ، ويتأمل فيها ، لئلا يقع في الندم . قال بعضهم : "شَاوِرْ مَنْ جَرَّبَ الْأُمُوْرَ ، فَإِنَّهُ يُعْطِيْكَ مِنْ رَأْيِهِ مَا وَقَعَ عَلَيْهِ غَالِيًا ، وَأَنْتَ تَأْخُذُهُ مَجَّانًا" . قال العلماء : "إذا أشكلَتْ عليك الأمورُ ، وتغيَّر لك الجمهورُ ، فارجِعْ إلى رأي العقلاء ، وافزَعْ إلى استشارةِ الفضلاء ، ولا تأنَفْ من الإسترشاد ، ولا تستنكِفْ من الإستمداد" . وقال البخاري : وكانت الأئمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم يستشيرون الأمناء من أهل العلم ، في الأمور المباحة ، ليأخذوا بأسهلها . وقال سفيان الثوري : ليكن أهلُ مشورتك أهلَ التقوى والأمانة إهـ . ثم إذا جاءك شخص يستشيرك في أمر من الأمور وأنت غير أهل فيه ، فاعتذر إليه وقل : إني غير أهل في هذا الأمر ، وليس لي علم بهذا الأمر . لأنك إذا دخلت فيما ليس لك فيه علم فلا تزيده إلا تشويشا . ويجوز أخذ رأي المرأة واستشارتها إذا كانت أمينة ، فقد تأتي امرأة برأي لا يأتي به أكابر الرجال ، كما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم برأي أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها حين أمَرَ صلى الله عليه وسلم الصحابة بالحلق والذبح في صلح الحديبية ، فلم يمتثلوا أمرَه لِمَا دخل عليهم من أمر الصلح شيءٌ

عظيم ، فقال صلى الله عليه وسلم : يا أيها الناس انحَروا واحلِقوا ! فما قام أحد ، ثم عاد بمثلها فما قام رجل ، حتى عاد بمثلها فما قام رجل . فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل على أم سلمة رضي الله عنها ، فقال : يا أم سلمة ما شأنُ الناس ؟ قالت : يا رسول الله قد دخلَهم ما قد رأيتَ ، فلا تُكَلِّمَنَّ منهم إنسانا ، واعمِدْ إلى هَدْيِك حيث كان فانحَرْه واحلِقْ ، فلو قد فعلتَ ذلك فَعلَ الناسُ ذلك ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكلم أحدا حتى أتى هديه فنحره ، ثم جلس فحلق ، فقام الناس ينحرون ويحلقون . وأما ما اشتهر على الألسنة من خبر "شَاوِرُوْهُنَّ وَخَالِفُوْهُنَّ" فلا أصل له ، كما قاله المناوي .

وذكر القليوبي حكاية في حسن الرأي : أنه كان لهارون الرشيد جارية سوداء قبيحة المنظر ، فنثر يوما دنانير بين الجواري ، فصار الجواري يلتقطن الدنانير ، وتلك الجارية واقفة تنظر إلى وجه الرشيد ، فقيل لها : ألا تلتقطين الدنانير؟ فقالت : إن مطلوبَهن الدنانير ، ومطلوبي صاحبُ الدنانير ، فأعجبه قولها ، فقرَّبها وأثنى عليها خيرا ، فانتهى الخبر إلى الملوك بأن هارون الرشيد يعشق جاريةً سوداء ، فلما بلغه ذلك أَرسلَ خلف جميع الملوك ، وجمعهم عنده ، وأمر بإحضار الجواري ، وأعطى كل واحدةٍ منهن قدَحًا من الياقوت ، وأمر بإلقائه ، فامتنعن جميعا ، فانتهى الأمر إلى الجارية القبيحة ، فألقتِ القَدَح وكسَرَتْه ، فقال : انظروا إلى هذه الجارية وجهُها قبيحٌ وفعلُها مليحٌ ، فقال لها الخليفة : لماذا كسرتِه ؟ فقالت : قد أمرتَني بكسره ، فرأيتُ أن في كسره نقصًا في خزينة الخليفةِ ، وفي عدم كسره نقصًا في أمرِه ، والنقص في الأول أولى إبقاءً لحرمة أمر الخليفة ، ورأيتُ أن في كسره وَصْفِي

بالمجنونة ، وفي إبقائه وَصْفِي بالعاصية ، والأول أحبُّ إلي من الثاني ، فاستَحسنَ الملوكُ منها ذلك ، وعَذَروا الخليفة في محبتها ، والله أعلم بما هنالك إهـ .

(وَلِحَقَ بَعْدُ مِنَ الْكَلَامِ الْمَنْثُوْرِ هَذَا الْمَسْطُوْرُ)

(ولِحَقَ بعدُ من الكلام المنثور هذا المسطورُ) يحتمل أن تكون هذه العبارة من كلام السيد الإمام المؤلف رضي الله عنه ، ويحتمل أن تكون من أحد تلامذته الجامع لهذه الحكم . والمعنى : أن المسطور من الحكم الست الآتية ، ملحق بما تقدم من الحكم .

✦✦✦✦✦✦

الحكمة الحادية بعد المائة

قال رضي الله عنه :

مَنْ سَلَكَ مَلَكَ ، وَمَنْ حَادَ هَلَكَ .

(من سلك) سبيل سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ، واستعد لِلُّحود ، واقتنع بالموجود (ملك) نفسه ، وملك ما تقرُّ به عينه ويسر به جَنانه في الدنيا والآخرة ، ولا يستطيع الشيطان أن يتسلط عليه . قال تعالى : (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ ، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِيْنَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِيْنَ هُمْ بِهِ - أي بالله- مُشْرِكُوْنَ) {النحل : الآية ٩٩-١٠٠} . ليس له سلطان : أي ليس للشيطان تسلُّطٌ . وقال تعالى : (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ) {النحل : الآية ٩٧ } . وقال صلى الله عليه وسلم : " اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ ، وَارْضَ بِمَا

قَسَمَ اللهُ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ ، وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا ، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا ، وَلَا تُكْثِرِ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيْتُ الْقَلْبَ " رواه أحمد والبيهقي وأبو نعيم عن أبي هريرة رضي الله عنه . (ومن حاد) أي مال عن طريق المختار صلى الله عليه وسلم ، وغفل عن الموت وعذاب القبر وعذاب النار ، وأحب الدرهم والدينار (هلك) في الدنيا هلاكا مبينا ، وخسر في الآخرة خسرانا . قال تعالى : (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُوْلَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيْلِ الْمُؤْمِنِيْنَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيْرًا) {النساء : الآية ١١٥} . يشاقق : أي يخالف . نوله ما تولى : أي نجعلْه واليًا لما تولَّاه من الضلال في الدنيا . ونُصْلِه : أي ندخله في الآخرة . وعن ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : "عَجَبًا لِغَافِلٍ ، وَلَا يُغْفَلُ عَنْهُ ، وَعَجَبًا لِطَالِبِ الدُّنْيَا وَالْمَوْتُ يَطْلُبُهُ ، وَعَجَبًا لِضَاحِكٍ مِلْءَ فِيْهِ ، وَلَا يَدْرِيْ أَرْضَى اللهَ أَمْ أَسْخَطَهُ ؟" رواه ابو نعيم في الحلية . وعن هانئ مولى عثمان بن عفان ، أن عثمانَ بن عفان رضي الله عنه كَانَ إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرٍ بَكَى حَتَّى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ ، فَقِيْلَ لَهُ : تَذْكُرُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَلَا تَبْكِيْ ، وَتَبْكِيْ مِنْ هَذَا ؟ فَقَالَ : إِنَّ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ" رواه ابن ماجه . وقيل: كان عامر بن قيس يقول : "ما رأيتُ مثلَ الجنة نَامَ طالبُها ، وما رأيتُ مثلَ النارِ نَامَ هَارِبُهَا" . وقيل لحسان بن أبي سنان : "كيف تجدك ؟ قال : بخيرٍ إن نجوتُ من النار ، فقيل له : ما تشتهي ؟ قال : ليلةً بعيدةً ما بَيْنَ الطرفين أُحْيِيْ ما بين طرفيها ، يعني بالتهجد" إهـ . وفي مثل ذلك قال الشاعر :

يَا لَيْلُ طُلْ يَانَوْمُ زُلْ * يَا فَجْرُ قِفْ لَا تَطْلُعِ

وقال المناوي : ليس الغنى بكثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس ، والقناعة غنى وعزٌّ بالله ، وضدها فقر وذل للغير ، ومن لم يقنع لم يشبع أبدا ، ففي القناعة العز والغنى والحرية ، وفي فقدها الذل والتعبد للغير ، تعس عبد الدنيا تعس عبد الدينار ، فيتعين على كل عاقل أن يعلم أن الرزق بالقَسم والحظ ، لا بالعلم والعقل . قال الحكماء : ولو جرت الأقسام على قدر العقول لم تعش البهائم . ونظم ذلك أبو تمام فقال :

يَنَـالُ الْفَتَى مِن عَيْشِهِ وَهْوَ جَـاهِلُ * ويُكْدِي الْفَتَى فِيْ دَهْـرِهِ وَهْوَ عَـالِمُ

وَلَوْ كَانَتِ الْأَقْسَامُ تَجْرِي عَلَى الْحِجَا * هَلَكْـنَ إذَنْ مِنْ جَهْلِهِنَّ الْبَهَـائِـمُ

إهـ . يكدي الفتى : أي يَقِلُّ مَالُه . الحجا : أي العقل .

وقال آخر :

وَمَـا هَذِهِ الدُّنْيَا بِدَارِ إِقَـامَةٍ * وَمَـا هِيَ إِلَّا كَالطَّـرِيْقِ إِلَى الْـوَطَنِ

فَـإِنْ تَرْضَ بِـالْمَقْسُوْمِ عِشْتَ مُنَعَّـمًا * وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرْضَى بِهِ عِشْتَ فِيْ حَزَنِ

وقيل : ماكان لكَ سوف تَنَالُه على ضَعفِك ، وما كان لغيرك فلن تنالَه بقُوَّتِك ، فإن وجدتَ خيرا فلتحمَدنَّ الله وإن وجدت غير ذلك فلا تلومنَّ إلا نفسك .

وكتب بعضهم إلى صديق له يشاروه في شيء من أمر الدنيا ، فكان الجواب : اطلب الدنيا على قدرِ مُكثك فيها ، واطلبِ الآخرةَ على قدرِ حاجتكَ إليها .



الحكمة الثانية بعد المائة

قال رضي الله عنه :

مَنْ حَفِظَ الْفُؤَادَ ، حُفِظَ مِنَ الْفَسَادِ .

(من حَفِظ الفؤادَ) أي القلب عما يكدره من الإعتقاد الباطل ، والمعاصي كالرياء والعجب والكبر (حُفِظ من الفساد) في جميع أموره ، لأن القلب مِلِكٌ مُطاعٌ ورئيس مُتَّبَعٌ ، والجوارح كلها تَبَعٌ له ، فإذا كان القلب الذي هو المتبوع محفوظا صالحا كان التابع محفوظا صالحا أيضا ، وإذا استقام المَلِكُ استقامت الرعية ، والعكس بالعكس . قال صلى الله عليه وسلم : " أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً ، إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ " رواه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه . فعليك أيها العاقل بإصلاح القلب وحفظه ، فإنه أعظم الأعضاء خطرا ، وأشقها إصلاحا ، وهو كالراعي لها ، فانبعاثها للطاعة أوضدها من تلقائه ، وهو موضع نظر الله تعالى ، فيا عجبا ممن يهتم بوجهه الذي هو نظر الخلق فيغسله وينظفه ، ولا يهتم بقلبه الذي هو نظر الرب بل يتركه ملطخا بأقذار المعاصي وأدناس المخالفات . وقد قال صلى الله عليه وسلم : "إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ " أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن خالد الرِّبْعي رضي الله تعالى عنه قال : "كان لقمان عبدا حبشيا نجارا ، فقال له سيده : اذبح لي شاة ، فذبح له شاة ، فقال له : ائتني بأطيبِ مُضْغتَيْنِ فيها ، فأتاه باللسان والقلب فقال : أَمَا كان شيءٌ أطيبَ من هذين ؟ قال : لا ، فسَكتَ عنه ما سَكتَ ، ثم قال له : اذبح لي شاة ،

فذبح له شاة فقال له : أَلْقِ أَخْبَثَها مضغتين ، فرمى باللسان والقلب فقال : أمَرْتُكَ بأن تأتيَ بأطيبها مضغتين ، فأتيتَني باللسان والقلب ، وأمرتُك أن تُلقِيَ أخبثَها مضغتين ، فألقيتَ اللسان والقلب ، فقال : إنه ليس شيء بأطيبَ منهما إذا طَابَا ، ولا بأخبثَ منهما إذا خبُثَا" . ولقمان المذكور هو الذي ذكره الله في القرآن وأجرى على لسانه الحكم البليغة ، وقال له رجل : ألست عبد فلان؟ فما الذى بلغ بك ما أرى من الحكمة؟ فقال لقمان : قَدَرُ اللهِ وأداءُ الأمانةِ ، وصِدقُ الحديثِ ، وتركي مَالَا يَعْنيني قيل : كان فى زمان داود عليه السلام ، وقيل : كان زمانه بين عيسى وبين محمد عليهما الصلاة والسلام . ومن أقواله لابنه : يا بنيَّ ، عليك بمجالسة العلماء ، وبسماع كلام الحكماء ، فإن الله تعالى يحيي القلب الميت بنور الحكمة .

✦ ✦ ✦ ✦ ✦ ✦ ✦ ✦ ✦

الحكمة الثالثة بعد المائة

قال رضي الله عنه :

مَنْ حَفِظَ الْجَوَارِحَ ، أَمِنَ الْجَوَارِحَ .

(من حفظ الجوارح) أي الأعضاء ظاهرة كانت كاليد والعين ، أو باطنة كالدماغ والقلب عن الإشتغال بها لا ينبغي (أمن الجوارح) أي سَلِمَ من الآفات الدنيوية والأخروية . فإن كل عضو من الأعضاء يسأل عنه الإنسان يوم القيامة ، وله فيه أجر إن شغله للطاعة ، وعليه إثم إن شغله للمعصية . قال تعالى : (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُوْلًا) {الإسراء : الآية ٣٦} . عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مَنْ يَتَكَفَّلُ لِيْ

بِمَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَرِجْلَيْهِ أَتَكَفَّلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ " أخرجه البخاري . من يتكفل : أي يضمن بترك المعاصي . واللحيان : بفتح اللام هما العظمان اللذان بجانب الفم ، ومابين اللحيين هو اللسان . وما بين الرجلين هو الفرج . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سُئِلَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ ، قَالَ : " تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ " ، وسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ ، فَقَالَ : "الْفَمُ وَالْفَرْجُ" رواه الترمذي . وقال : حسن صحيح . وقال أبومدين : كل من ادعى مع الله حالا ثم ظهرت منه إحدى خمس فهو كاذب أو مسلوب ، إرسال الجوارح في معصية الله ، والتصنع بطاعة الله ، والطمع في خلق الله ، والوقيعة في خلق الله ، وعدم احترام المسلمين على الوجه الذي أمر الله إهـ . ولحفظ الجوارح عن المعاصي تأثير عجيب في حفظ الصحة وعدم اختلال العضو وتغير الإدراك . فقد نقل البجيرمي عن الإمام الديربي في ترجمة الشيخ أبي شجاع مؤلف كتاب التقريب أو غاية الإختصار في الفقه الشافعي أنه قال : عاش القاضي أبو شجاع مائة وستين سنة ولم يختلَّ عضو من أعضائه ، فقيل له في ذلك ؟ فقال : ما عصيتُ الله بعضو منها ، فلما حفظتُها في الصِّغَر عن معاصي الله حفظها الله في الكبر إهـ .

✦✦✦✦✦✦

الحكمة الرابعة بعد المائة

قال رضي الله عنه :

كَادَ الْعَاقِلُ أَنْ لَا يَكُوْنَ لَهُ عَدُوٌّ .

(كاد العاقل) الذي لا يتصرف في أمر من الأمور إلا وفيه نفع وفائدة للناس (أن لا يكون له عدو) يعاديه ، بل كل من رأه يحبه وينصره ، فالشخص العاقل لفطنته وحذقه وحسن نظره في عواقب الأمور يحب الناسَ ولو كانوا أقل منه رتبة . فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "رَأْسُ الْعَقْلِ بَعْدَ الْإِيْمَانِ بِاللهِ التَّوَدُّدُ إِلَى النَّاسِ" رواه البيهقي والطبراني . قال بعض العارفين : علامة العاقل أربعة : لا يَتنكَّر من المصائب ، ولا يتخذ عملَه رياء ، ويحتمل أذى الخَلْق ولا يكافئهم ، ويُدارِي العبادَ على تفاوت أخلاقهم إهـ . والعاقل لا يظلم أخاه ولا يؤذيه ولا يضره ولا يتعرض له بسوء ، ولا يقابل السيئة بالسيئة بل يقابلها بالحسنة ، فالكل له إخوانٌ ، والبُعَداءُ له جيران ، وكل ما في المعمورة له مكان ، فلا يبقى له عدو إلا الشيطان و إخوانه من الإنسان ، ولذا قيل : لا وطن للجاهل ولا غربة للعاقل . وذلك خُلُقُ أشرف الخَلْقِ سيدِ العقلاء وأفضل الأنبياء والمرسلين صلى الله عليهم وسلم . قال تعالى : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيْمٍ) {القلم : الآية ٤} . وقال تعالى : (ادْفَعْ بِالَّتِيْ هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيْمٌ) {فصلت : الآية ٣٤} . وفي تفسير الجلالين : ادفع بالتي هي أحسن أي ادفع السيئة بالخصلة التي هي أحسن كالغضب بالصبر ، والجهل بالحلم ، والإساءة بالعفو . فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم أي فيصير

عدوك كالصديق القريب في محبته إذا فعلت ذلك إهـ . والحميم : الذي يهتم لأمرك . وعن جابر رضي الله عنه أنه قال : "كُنَّا مَعَ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَاتِ الرِّقَاعِ ، فَإِذَا أَتَيْنَا عَلَى شَجَرَةٍ ظَلِيْلَةٍ تَرَكْنَاهَا لِرَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ وَسَيْفُ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعَلَّقٌ بِالشَّجَرَةِ فَاخْتَرَطَهُ ، فَقَالَ : تَخَافُنِيْ ؟ قَالَ : لَا ، فَقَالَ : فَمَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّيْ ؟ قَالَ : اللهُ ! قَالَ : فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ ، فَأَخَذَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السَّيْفَ ، فَقَالَ : مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّيْ ؟ . فَقَالَ : كُنْ خَيْرَ آخِذٍ . فَقَالَ : تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّيْ رَسُوْلُ الله ؟ قَالَ : لَا ، وَلَكِنِّيْ أُعَاهِدُكَ أَنْ لَا أُقَاتِلَكَ ، وَلَا أَكُوْنَ مَعَ قَوْمٍ يُقَاتِلُوْنَكَ ، فَخَلَّى سَبِيْلَهُ ، فَأَتَى أَصْحَابَهُ ، فَقَالَ : جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ" أخرجه البخاري ومسلم . وقيل : إن هـذا الرجل أسلم ثم جاء قومه يدعوهم إلى الإسلام . اخترطه : أي أخرجه من غِمْده . كن خير آخذ : أي بأن تعفو وتصفح وتقابل السيئة بالحسنة . وقد تقدم في الحكمة الثالثة والسبعين قصة الأعرابي الذي جبذ رداء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظهر أثر جبذته في عنقه صلى الله عليه وسلم ولم يعاقبْه على ذلك بل يعطيه بعطاءٍ .



الحكمة الخامسة بعد المائة

قال رضي الله عنه :

كَادَ الْأَحْمَقُ أَنْ لَا يَكُوْنَ لَهُ صَدِيْقٌ .

(كاد الأحمق) وهو الجاهل الذي يفعل الأشياء لغير فائدة ، ويرى الخطأ صوابا (أن لا يكون له صديق) لحماقته وغباوته ، بل كل من رآه ابتعد عنه إما خوفا من ضرره ، أو تحرزا من عواقب فعله المذموم ، فليس له ناصر ينصره ، ولا حميم يواليه ، ولا صديق يحبه ، بل الكل له أعداء ، والأقرباء منه بعداء ، وأحس في نفسه كأنه الحوت إذا فارق الماء ، فضاقت له الأرض بما رحبت ، وضاقت أيامه مهما امتدت .

قيل :

رَحْبُ الْفَلَاةِ مَعَ الْأَعْدَاءِ ضَيِّقَةٌ * سَمُّ الْخِيَاطِ مَعَ الْأَحْبَابِ مَيْدَانُ

الفلاة : أي المفازة . سم الخياط : أي ثقب الإبرة . وأشار المؤلف رحمه الله تعالى في هذه الحكمة والتي قبلها إلى فضل مداراة الناس ، فينبغي للعاقل أن يداري الناس بكل ما أمكن من الإحسان إليهم ، وتحمل أذاهم ، وكف الأذى عنهم ، وملاطفتهم ، حتى يكثر له صديق يعينه على آخرته ، ولا يكون له عدوٌّ يُهْلِكُه ويضره ، ويكون محبوبا عند الله وعند الناس . قال الشاعر :

وَدَارِهِمْ مَـا دُمْتَ فِيْ دَارِهِـمْ * وَأَرْضِهِمْ مَا دُمْتَ فِيْ أَرْضِهِمْ

قوله : ودارهم : فعل أمر من المداراة . وأرضهم : فعل أمر من الإرضاء . قال صلى الله عليه وسلم : "أَكْثِرُوْا مِنَ الْمَعَارِفِ الْمُؤْمِنِيْنَ فَإِنَّ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ شَفَاعَةً عِنْدَ

اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" أخرجه الحاكم في تاريخه ، والديلمي عن أنس رضي الله عنه . وفي إسناده أصرم وهو كذاب . وفي حديث آخر : "مَا أَحْدَثَ رَجُلٌ إِخَاءً فِي اللهِ إِلَّا أَحْدَثَ اللهُ لَهُ دَرَجَةً فِي الْجَنَّةِ" أخرجه ابن أبي الدنيا عن أنس رضي الله عنه . وفي حديث آخر : أنه صلى الله عليه وسلم قال لأنس رضي الله عنه : "يَا أَنَسُ ! أَكْثِرْ مِنَ الْأَصْدِقَاءِ فَإِنَّكُمْ شُفَعَاءُ بَعْضُكُمْ فِي بَعْضٍ" رواه الديلمي .

* * * * * * *

الحكمة السادسة بعد المائة

قال رضي الله عنه :

فِيْ أَسْفَارِ الْأَرْبَاحِ رَاحَةُ الْأَرْوَاحِ وَالْأَشْبَاحِ ، وَفِيْ أَسْفَارِ الْأَخْطَارِ تَعَبُ الظَّوَاهِرِ وَالْأَسْرَارِ . وَاللهُ أَعْلَمُ .

(في أسفار الأرباح) أي في مكابدة المشاق والمتاعب التي تكون بسبب مفارقة الشهوات والحظوظ النفسانية ، وملازمة الطاعات المقربة إلى الله تعالى التي تحصل بها الأرباح الأخروية (راحة الأرواح) أي النفوس (والأشباح) أي الأبدان ، عند مصادفة الثواب الجزيل ، من الحور الحسان ، ورؤية الرحمن ، في أعلى الجنان التي فيها ما تشتهيه الأنفس من النعيم المقيم . قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيْمٍ ، تُؤْمِنُوْنَ بِاللهِ وَرَسُوْلِهِ وَتُجَاهِدُوْنَ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُوْنَ ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِيْ جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ

الْعَظِيْمُ) {الصف : الآية ١٠-١٢} وقال تعالى : (إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ) {التوبة : الآية ١١١} . هذا في الآخرة ، وأما في الدنيا فإن من سافر للتجارة ورجا في سفره الأرباح العظيمة ، هانت عليه مشقة السفر ، وارتاح بدنه واطمئن قلبه ، كذلك السالك إلى ملك الملوك الفاني في شهوده ، السابحُ في بحار محبته ، لا يشعر بالتعب والمشقة في سلوكه وعباداته ، بل يشعر باللذة والراحة بالقرب من حضرته .

(وفي أسفار الأخطار) أي في الأسفار التي تؤدي إلى ركوب الأخطار والأهوال بمحبة الدنيا الفانية وارتكاب المعاصي (تعب الظواهر) أي الأبدان (والأسرار) أي القلوب ، فالمؤثر للدنيا على الآخرة ، المفتتن بها ، والمغتر بزخارفها ، يعصي ربه بنسيانه وعدم الثقة به ، والتكالُب على تحصيلها ، ويُضيِّع بذلك كثيرا من عمره وزمنه ، ويركب الأهوال والشدائد لأجلها ، ولا يُحصِّل لآخرته شيئا ، بل يتعب بدنه ، ويقلق قلبه ، وينزعج ظاهره وباطنه فيما لا نفع فيه ، وفي الآخرة له عذاب عظيم . وقال تعالى : (فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُوْلُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ) {البقرة : الآية ٢٠٠} . خلاق : أي نصيب . وتقدم في الحكمة الخامسة عشر " عجبا لمن يطلب الدنيا وهو من تحصيلها على وهم ، ومن الإنتفاع بما حصله منها على شك ، ومن تركها والخروج منها على يقين" .

(والله أعلم) بالصواب وإليه المرجع والمآب .

وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ ، وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ .

(وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، والحمد لله رب العالمين) هذا ما فتح الله به علي ، ووصل إليه علمي القليل ، وفهمي الكليل ، من تقييدات وتعليقات لهذه الحكم النفيسة ، وأعترف أن فيها أخطاء كثيرة نشأتْ عن قصوري وعجزي في فهم معاني ألفاظها ، وبيان مرادها ، فإني لست أهلا لوضع التعليق على حِكَم هذا القطب المشهور ، وهذ التقييد والتعليق بجنبها كقطرة في جنب البحور ، غير أني طامع في فيوضات بركاته ، وأرجو من كل ناظر وقف في هذه التقييدات على الأخطاء أن يصلحها ، وجزاه الله خيرا .

✦ ✦ ✦ ✦ ✦ ✦ ✦ ✦ ✦

وقد تم تسويدها والحمد لله بعد ظهر يوم الإثنين (يوم عيد الأضحى) عاشر ذي الحجة الحرام عام ١٤٣٧ هـ . الموافق ١٢ سبتمبر ٢٠١٦ م . بقلم الفقير الراجي عفو الله ورضاه أحمد غزالي محمد فتح الله اللنبولاني المدوري الإندونيسي غفر الله ذنوبه آمين .

وصلى الله على سيد المرسلين نبينا وشفيعنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .

فهرس النفحات الرحمانية على الحكم الحدادية

فهرس النفحات الرحمانية على الحكم الحدادية

فهرس النفحات الرحمانية على الحكم الحدادية